إلليعازر

رواية

إليعازر

أحمد قابيل

لوحة الغلاف: قيامة ليعازر لجيوفاني فرانشيسكو باربيري (غورتشينو)

الطبعة الأولى: ديسمبر 2018

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:2018/17686

الترقيم الدولي: 5-60-6534-977-978

مدير النشر: هند عبد الله

إشراف عام: رباب الشهاوي

Alfouad_publishing@hotmail.com
facebook.com/fouadpublishing

الفؤاد للنشر و التوزيع

إلليعازر

رواية

أحمد قابيل

الفؤاد
للنشر و التوزيع

الأعمال الفنية والأضرحة والأماكن الأثرية والدينية وملامحها الهندسية حقيقية تماماً... وأماكن ذكرها أيضاً.
ولا تزالُ موجودةً حتَّى الآن.

إهداءٌ

إلى كلٍّ مَن لم يُسلِّم عقلَه للمَوروثات.
سيصل... وحده ، من يجرؤ على السؤّال.

لا توجدُ قوّةٌ فِي العالم
تستطيعُ أن تردع قدراتِ الإنسانِ التدميرية
إلا قوَّة واحدة...
الضمير (إِنْ وُجِدَ).

أحمد قابيل

ليست كل المعارف لكل الرؤوس؛ ولا يمكن للعقل أن يدرك كل الحقائق على شاكلتها؛ ولا يجوز للمرء أن يخشى البحث والسؤال. وإن فضيلة الرجل هي أثره العَطِر؛ والصامت مثله كمثل الخبيث، منسيٌّ.

والآن، وقد أشرفت حياتي على نهايتها، وصرتُ كهلًا مثل هذا الكون، أنتظر دوري لأتوارى فِي غياهب الرب اللامتناهية، وقد كُتب عليَّ ما لم يُكتب على أحدٍ من قبلي؛ لم يعد الصمتُ خيارًا.

الآن سأترك أثري الذي لن ينطويَ من بعدي.

لست أنا مَن أبلج الضياء وأنشأ الوجود من العدم، ولست مَن وارى الفراغ فِي بديع الخلق؛ لكن ها أنا الآن، وقبل أن أغادر، سأكون يدَ الرب فِي الأرض... سأكون السراجَ الذي يوضَع فوق المنارة لكي يُضيء للجميع أذهانَهم... الينبوع العذب الذي يروي الظِّمَاءَ فِي الصحراء.

ماركوس بينتولا

أنا الأمل...

أنا طوق النجاة...

أنا خلاص البشرية...

ظل ماركوس لدقائق طويلة صامتًا، محدقًا فِي انعكاس وجهه العجوز فِي مياه المغطس الطاهرة... هنا فِي هذه الأرض التي باركتها السماء بِوَادي الخرار الواقع على الضفة الشرقية لنهر الأردن؛ وهو وادٍ كبير أفيح، متداخل الأحجار، ملتف الأشجار... وفي أوقات المطر، تتكون مدامع المياه بفعل الصخور المتراصة التي تصد الشمس عن واجهتها، فتحجب أشعتها، وتأذن لدخول نسمات تتخللها لفحات ترد الروح، وتشفي القلب السقيم، وتثمل بها الأجساد المتعبة من حرارة الصحراء.

هنا شهدت البشرية حمل الله الذي جاء ليزيل خطيئة العالم. فِي هذه الأرض التي كانت قفرًا فِي سالف العصر، انفتحت متاريس السماء، وتجلت الروح القدس، ووُلد عهد جديد... حين جاء الناطق الذي وُلد – دونًا عن غيره – على الهدى...

في هذه البقعة، تم تعميد المسيح؛ ومن هنا ستبدأ رحلة ماركوس بينتولا إلى الفردوس الأعلى.

أنا الأمل...

أنا طوق النجاة...

أنا خلاص البشرية...

تنهد بينتولا طويلًا، ومد يده رافعًا ثوبه البابوي الأبيض منحنيًا بجسده نحو المياه، محاولًا تلمُّس سطحها براحته، وقد تأجَّجَت بداخله العقبة التي ظلت تطارده وتعتريه منذ رؤياه الأخيرة، وشهادته على كسر العلوم حاجز

الصراع الأزلي بين الأديان.

لم تكن تلك العقبة كالعقبات التي قابلها فِي حياته كلها... كانت هي شيمة العقبات المعرفية كلها... عقبة جوهرية مصيرية. عقبة لن تحدد مصيره هو فقط، لكن مصير البشرية بأكملها.

عقبة لم يعرفها منذ أن ولد فِي 20 أيار/ مايو 1917، فِي أطراف مدينة فلورنسا الواقعة فِي الجزء الشمالي الأوسط من الأراضي الإيطالية، وعلى أطراف نهر أرنو بين كاريدجي وويلزغوار، حيث انطلقت الشرارة الأولى لعصر النهضة. ودائمًا وأبدًا كان العداءُ قائمًا بين فلورنسا والڤاتيكان، واشتد أزره فِي فترة حكم آل ميديتشي، وخاصة فِي عهد لورينزو دي ميديتشي "ذا ماجنيڤيكو". وبالرغم من ذلك، وبعد مرور ما يقرب من خمسمائة عام، وفي أحد أركان تلك المدينة الصاخبة التي طالما آوت الفنانين والمحررين، مهرطقين كانوا أم أسوياء، نشأ ماركوس بينتولا نشأة روحانية فِي كنف والده، بعد أن تركته أمه وقد وافتها المنية وهو لا يزال فِي التاسعة من عمره. ومن بعدها بثلاث سنوات، لحق بها شقيقه الأكبر... وظل بينتولا فِي أحضان مدينة الفن والتراث، أو كما يقال عنها "أثينا العصور الوسطى". تلقى بها تعليمه الأولي حتَّى وصل لسن الخامسة والعشرين من عمره، وانخرط بعدها فِي السلك الكهنوتي، وظل منعزلًا عن الحياة العامة، متجهًا إلى القراءة فقط، والتي لم تستطع أن تقتلع من فؤاده مأساة فقدانه لوالدته التي أحبها حبًّا جمًّا، ولم يجد من يعوضه عنها، فظل على ذكراها، وظل محبًّا لدينه عاشقًا لتعاليمه، حتَّى قابل فِي أحد الكتب بعض الأحكام التي تهين المرأة. وبسبب تعلقه الشديد بوالدته، لم يعد قادرًا على قبول ذلك، وكان له بعض الاعتراضات على بعض الأجزاء من سفر اللاويين وسفر التثنية وإنجيل كورنثوس، وكان من أشد ما ضايقه افتراء الأديان على المرأة،

والحكم عليها دون انتظار دلائل أو حتَّى وجود شهود، وكان أبسطها تكوين 12:3 وبعض أحكام لاويين الخاصَّة لشهادة المرأة وغيرها من الرؤى؛ ولكنه أبقى رأيه لنفسه.

وبعد أعوام، رُسم كاهنًا، وغادر بلدته متجهًا إلى روما لإكمال دراسته الكهنوتية. ولم يمر الكثير حتَّى عينه البابا أسقفًا على كنيسة سان جيوڤاني. وفي عامه السادس والخمسين، عُين رئيسًا للأساقفة. وبعد أن رُسم كاردينالًا بفترة، تم انتخابه حبرًا أعظم ليعتلي السُّدَّة البطرسية، وحمل من بعدها اسم يوحنا بيوس الثالث عشر...

***

مر كل ذلك، وكأن شيئًا لم يكن. كأن الوقتَ انسلَّ من بين يديه كحبات الرمال، وها هو الآن يقف أمام نفسه الهَرِمَة، وينظر إليها فِي الماء، وقد فاض به الكيل، ولم يعد أمام روحه أي وازع ضميري للامتناع عن التوريات والترميز فِي رسائله للعالم... فعقله الآن مصاب بنزعة طبيعية تميل نحو الحقائق التي رآها بعينيه، متجاهلًا تاريخه ومنصبه الديني الحساس... لم يعد الخلاص يستوجب الأفكار المطولة أو التأملات المديدة... لم يعد سهلًا الولوج إلى غرفة الاعتراف التي لا يذكر آخر مرة ذهب إليها... لم يعد سهلًا التعميد أو اتباع التطويبات... لم يعد طلب الغفران خيارًا... عليه الآن أن يترك كل تاريخه خلفه، ويكتب الآن لصديقه فِي القاهرة ليرسل إليه سره الأخير قبل الجهر به. ولكن عليه توخي الحذر؛ فالمتربصون ينتظرون الفرصة للفتك به، وهم أقرب إلى ذلك الآن، أكثر من أي وقت مضى...

أنا الأمل...

أنا طوق النجاة...

أنا خلاص البشرية...

هبت نسمة هواء، تخللت مسامَّ وجهه، وسرت بجسده رعشة قوية، لم تكن لتخفى عمن حوله، جعلته ينتفض، وتنتفض معه نفسه، مدركًا أنه الآن على حافة الهاوية... ليس أمامه إلا أن يتحرك. لم يعد السكون خيارًا، ولا للصمت مكان. إما أن يكون كحمامة الروح المقدسة التي هبطت هنا، أو لم تهبط! لم يعد متأكدًا من ذلك... أو ليسقط فِي غياهب الجحيم...

ـ آه يا ماركوس! كم من عثاء تسعى وتلهو الآن برأسك الفاني وتعذبك عذابًا واصبًا... كيف لي وأنا الحبر الأعظم أن أحمل رسالةَ غيري؟ كيف لروحي الخلاص الآن؟ يا الهي فِي السماء أعنِّي...

فأنا الأمل...

وأنا طوق النجاة...

أنا خلاص البشرية...

استدار بينتولا مغادرًا المغطس، وحوله وفد الڤاتيكان المكون من بعض الكاردينالات والقساوسة، وكان بصحبتهم العاهل الأردني، وبعض من الحراس ذوي الهيئة الجسمانية المفرطة الضخامة.

تقدم كلاهما الوفد مترجلين فِي ممر حجري تزينه أشجار النبالي المحسن التي يَحوطها سياج متشابك صدئ يدل على الإهمال الشديد للمكان، لينتهي الممر بحجرين كبيرين، يَحملان آخرَ رخاميًّا عريضًا نُقشت عليه خريطة لموقع التعميد، وخُط فوقها بطريقة رديئة: Baptism Site.

وما إن خرج بينتولا حتَّى وجد الحواجز الحديدية ترسم طريقه إلى ثمانات سوداء مصفحة. وخلف تلك الحواجز، تجمهر الآلاف من مسيحيي الأردن والدول العربية المجاورة، من بينها لبنان وسوريا والعراق...

أنا الأمل...

أنا طوق النجاة...

أنا خلاص البشرية...

تشتت ذهنه، ونسي نفسه وذكرياته بعد رؤيته لهذا المشهد المهيب الذي رُسم كأحد طقوس الوداع؛ فكيف له بعد هذا العمر الذي أفناه عليهم أن يخون الأمانة التي أودعت له منذ صغره؟ كيف له أن يواجههم، ومن أين يأتي بالقوة مرة أخرى؟ القوة التي وقف بها نهار ذلك اليوم مترأسًا القداس الديني فِي "ستاد" مدينة الحسين الرياضية، وكان وقتها أمامه أكثر من سبعين ألف شخص، وقد كرر كلمته الشهيرة بخطابه السابق فِي سوريا، والتي خلدتها الصحافة منذ ذلك اليوم... فأعادها آنذاك مؤكدًا أن المسلمين والمسيحيين أساؤوا إلى بعضهم البعض، ونحن اليوم نطلب الغفران عن ذلك من الله، ونقدم الاعتذار عن كل خطأ آخر. وتطرق وقتها فِي حديثه إلى ميثاق الخلاص الذي أصدره فِي عام 1990، والذي لم يكن يعلم وقتها أنه سيفتح عليه أبواب الجحيم؛ فلم يكن مرسوم الميثاق يتحدث فقط عن توحيد المعمودية، لكنه كان أيضًا يتضمن خلاص مَن هم مِن غير المسيحيين. وختم خطابه بالدعاء للبشرية، وبعض تمتمات لم يسمعها إلا فؤاده المهموم.

عاد أخيرًا من بحور أفكاره ليطفو على عالم واقعه الأليم، وقد وصلت سيارته إلى مطار الملكة علياء، ووجد هناك زوجة العاهل وأبناءه فِي استقباله كأحد بروتوكولات الوداع.

وبعد الحديث العابر والمصافحات الطويلة والابتسامات السريعة والنظرات الخاطفة، استقل طائرته.

ارتفع هدير محركات الطائرة البابوية، وبدأت عجلاتها فِي الجري على الممر استعدادًا للإقلاع، وعلى متنها قداسته، متوجهًا إلى محطته القادمة...

إسرائيل...

أنا طوق النجاة...

أنا خلاص البشرية...

أنا حامل آخر الرسالات...

رُفع الأذان. احتشدت الجموع، وعم الاخبات فِي صحن رائعة الفاطميين الواقع فِي بداية شارع المعز من ناحية باب الفتوح، والذي قد بدأ بناءه الخليفة العزيز بالله عام 365 هـ، وأطلق عليه حينها اسم جامع الخطبة. ولكن لم يستطع العزيز إكماله؛ فقد داهمه الموت سريعًا، ومن ثم فقد أتمَّ بناءه الوزير يعقوب بن كلس بأمر من ابنه الحاكم بأمر الله، ليطلق عليه اسم الأخير. وقد لقب جامع الحاكم بأمر الله برائعة الفاطميين، لتفاصيله المعمارية العبقرية، وزخرفته الكوفية التي تزين أركانه، وحوائطه المبنية بالآجر الحراري، ومدخله البارز كالفونات، الذي بُني على شكل مكعب حجري هائل الحجم، ولا يزال حتَّى الآن يقف فِي مكانه كرُخّ شطرنج يتخلله تجويف عظيم على شكل قوس زينت جنباته بأعمدة بارزة، فِي منتصف كل منها مشغولة زخرفية كوفية دقيقة على شكل معيَّن صُنعت بطريقة الصب. وحوافه قد حفرت مكونةً حشواتٍ غائرةً لرسومات استقدمها المسلمون من بلاد شمال أفريقيا. أما داخل المسجد، وعلى مساحة ما يقرب من 16000 متر مربعاً فيتوسطه صحن هائل مكشوف منه إلى السماء لكي لا يكون هناك حاجز بين دعاء السائل وأبوابها... تَحوطه أربعة أروقة ترتكز على دعائم تصلها ببعضها أعمدة مدمجة بأقواس لتؤوي بداخلها الإيوانات أو الإيڤانات باللغة الفارسية، وهو قاعة العرش أو الجناح الذي ينقصه ضلع، ونطلق على أحدها الآن مجازًا أو دلالة على اتجاهه بـ "القبلة". وبين كل دعامة وأخرى ستارة خضراء صماء تستر ما خلفها... وأسفل السقف يلف الجامع من الداخل شريط طويل من الخطوط والكتابات الدينية بالخط الكوفي، وعلى جانبي المدخل الرئيسي، وتحديدًا فِي الجهة الشمالية، مئذنتان من الطوب اللبن رُسمت على بدنهما نقوش هندسية وزخارف نباتية بديعة الصنع.

كانت إحداهما أسطوانية، فِي حين أن الأخرى مربعة الشكل يعلوها مثمَّن، وترتكز كلتا المئذنتين على قواعد حجرية ضخمة على شكل هرم ناقص مكونة من مرحلتين؛ الأولى كانت وقت البناء، والثانية مع أعمال التصليح التي قام بها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير. وجنوبًا تمثل قبتان عظيمتان يتوسطهما مجاز قاطع، وبه دليل على أنه فِي أحد العصور كانت تزينه قبة ثالثة اختفت مع الزمن...

ولم يكن هو جالسًا بين جموع المصلين الأوداء. كان واقفًا أعلى الرواق الشمالي الشرقي، وقد اختبأ خلف إحدى المآذن، وقد تدفقت الرياح من حوله ليلتقط وجهه برودتها المشيجة برائحة التاريخ القديم، وكأنه يطالع كتابًا قد قسا الدهر على أوراقه، وأشبعها من عجاجه.

هطع بعنقه من خلف المئذنة ليلاحظ سيارة ثان سوداء مسرعة قادمة من ناحية باب الشعرية لتقطع شارع البنهاوي فِي لحظات، وتنحرف داخل المقابر المواجهة للسور العتيق. ظل معها بعينيه حتَّى اختفت بين منحنيات الشوارع، ثم ظهر من بين المقابر مجموعة من الرجال بعباءات سوداء يحملون ناووسًا خشبيًّا يرقد عليه فِي سلام جسدٌ ملفوفٌ بأكمله فِي بياض شاهق، ويشع وضح سناء.

سمع فاروق وقع أقدام تأتي من خلفه، فاستدار ليجد والده يقف أمامه، ونظرته الغاضبة التي تحترق لها الأجساد وتنصهر لها الوجوه، تنشر البغض والكراهية من حوله وتكاد تفتك به.

رفع بركات الديب يده فِي السماء، وضرب الهواء بالسوط القابع فِي راحته، ليخترق الفراغ ومن ثم يستقر فِي صدر فاروق ليغطّش نهاره ويَشِمَه بجرح غائر، يُخل بتوازنه ويُسقطه من أعلى سطح المسجد...

استيقظ فاروق مذعورًا مفؤودًا متأملًا المكان حوله للحظات، حتَّى أدرك أنه فِي غرفة منزله الكائن فِي شارع دار السعادة بحدائق الزيتون... الغرفة مظلمة. ضوء ساهر وحيد قد تسلل من ثنايا إحدى النوافذ فِي ركن الغرفة الأيمن جعله يعلم أن الشمس قد أوشكت على البزوغ... تنهد طويلًا، ثم نصب ساكنًا، وتحسس أثر الجرح فِي صدره، وسار عليه بأصابعه... كم كانت ليلته غاطشة هزيزة كليالي الدوار القديم؛ ريحها ضارية، وظلامها غاسق... وما زالت على عهدها معه... فما إن تستفرد بعقله إلا وتصيبه كوابيسها بالحمي. وبالرغم من كل شيء، نظر إلى جواره، وابتسم ثم مسح بيده عليها، وقال لها: صباح الخير.

تركها ونهض، وتوجه إلى الحمام ليتوضأ ويصلي ركعتي الفجر. وظل بعد ذلك جالسًا متأملًا السماء من نافذته حتَّى ارتوى قلبه بالطمأنينة كما ترتوي الشاة حتَّى تبلغ المشاش، ثم ارتدى زيه الرياضي، وتوجه إلى نادي النصر الكائن أمام محكمة الأسرة فِي شارع أحمد حسين ليمارس رياضة العدو.

فاروق الديب أستاذ الفيزياء فِي جامعة عين شمس الذي قد أفنى عمره فِي دراسة العلوم الكونية وفيزياء الجسيمات، وهو على وشك إتمام عامه السبعين، لكنه لا يزال محتفظًا بجسده الرياضي الممشوق، وأكتافه المنسدلة وهيئته القوية بفكه العريض. وبالرغم من شعره الفضي ولحيته البيضاء، إلا أنه كان يتسم بوسامة من نوع فريد، وفخامة فِي الحضور. تراه فتظن أنه أحد أمراء مصر فِي أزهى عصورها. ملابسه دائمًا ما تنحت جسده الممشوق، وتضفي عليه زخاتُ العطر لمسةً من الرقي... لكن شخصيته كمناخ استوائي لا تجمعه تواريخ أو فصول؛ فقد كان هادئًا ذا ثبات انفعالي لا مثيل له، وطويل البال

حسن الاستماع... لكن عندما تهب عواصفه وتحضر شياطينه، فلا رادع لها، ومن المحتمل أن ذلك كان بسبب طفولته المعقَّدة ونشأته الغريبة.

تلاشي الظلام نهائيًّا، وقد طوى الخيطُ الأبيضُ لنجمة النهار عَتَمَتَه، ووصل فاروق إلى النادي مترجلًا من منزله، ثم دلف إلى داخل الملعب بعد أن ألقى التحية على حارس الأمن القابع فِي هدوء. ودار فاروق سائرًا حول الملعب لمدة عشر دقائق، بعدها بدأ فِي الهرولة، حتَّى ظهرت فِي وجهه لمعة من انعكاس أشعة الشمس عن قطرات العرق السائلة عن جبينه.

وفي أحد اركان الملعب، أبٌ يصطحب ابنه إلى حمام السباحة. توقف فاروق متأملًا وجه الفتى المتذمر من الذهاب للتمرين فِي هذا الوقت المبكر... اختفت من وجهه البهجة، واختفت معها الشمس خلف سحابة وحيدة تتهادى بخجل. تذكر يوم ضربه والده العمدة بالكرباج، وطرده من المنزل بسبب سؤال!

كانت ليلة عاصفة رياحها عاتية ووابل أمطارها غزير. اجتمعت العائلة فِي الدوار، والمصابيح الزيتية تزين حوائطه الحجرية من حولهم، والعمدة فِي غرفة "التلافون" يتحدث مع المأمور بخصوص واقعة عبد العاطي الذي صدمه "أتومبيل الإنجليز" وهو على حماره، ولاقى بعدها وجه كريم. فخرجت البلدة عن بكرة أبيها، وأشعلت النيران فِي الأتومبيل، وهرب السائق ومرافقه، ومن بعدها جاء الخراب على البلدة، وفُرضت الإتاوات، وسُجن من سُجن، وصارت البلدة مرتعًا للجنود... يضربون من يخرج من بيته ليلًا أو يسجنونه. غلقت الجوامع من بعد العشاء، ولم تعد قهوة المزين تعرف مجالس السمر، وأصبح العمدة كعروسة مولد بلاستيكية معروضة فِي أحد المحلات! لا تسمن ولا تغني.

دخل فاروق الصغير وكل جسده يقطر. كان عائدًا لتوه من النيل أو البحر كما يسمونه. وضع بركات السماعة على الهاتف المعلق على الحائط، واستدار ليجده أمامه غارقًا فِي المياه فسأله:

ـ أين كنت؟

ـ على النيل.

ـ ماذا تفعل هناك فِي ذلك الوقت؟ أليس منك أي رجاء؟ ماذا إن تم الإمساك بك أو أطلق عليك الإنجليز أعيرتهم التي لا تفرق بين شخص وآخر من أهل البلدة؟ أتدري عمَّن ستتهامس القرية وبمن ستتندر الأفواه؟

ـ أهذا ما يهمك يا أبي؟ حديث الناس وتندرهم!

ـ اخرس ولا تجادلني... ماذا كنت تفعل هناك؟

طأطأ فاروق رأسه، وأرخاه متأملًا أرض الغرفة التي لوثها حذاؤه.

ـ كنت أتطلع إلى السماء.

ـ ما شاء الله! وماذا بك منها؟ أوَلا يكون قد كُشف عنك الحجاب ونحن لا نعلم؟!

ـ مكشوف يا أبي... إني أرى الله فيها. أراه فِي السماء والنجوم والمياه والشجر و...

لم يترك له بركات الفرصة ليكمل حديثه، ورفع يده، ولطمه على وجهه فصرعه على الأرض.

ـ تأدب وأنت تتكلم عن ربك يا فاسد.

رد فاروق بينما كان مكوَّمًا على الأرض:

– أنا لم أخطئ... قصدت أني...

– لا تكمل يا عود الصليب.

كان بركات ينتظر تلك اللحظة حتَّى يطلق الوحش الهائج بداخله؛ فمنذ أن سأله فاروق فِي يوم ما عن كينونة خلق كل شيء، وتطرَّق فِي حديثه، وسأله عمَّن خلق الله، لم يُجِبه وقتها، وردَّ عليه بالضرب. والآن ها قد فاض الكيل، وحان وقت اقتلاع الحشيشة الفاسدة من حقل البرسيم حتَّى لا تضر جاراتها، وحانت لحظة طرده من الدوار كي يحمي إخوته منه.

لمح بركات السوط يرتكز على الحائط فِي جنبات الغرفة بجوار أحد الأبواب - وقد كان ذلك الباب يفتح على غرفة "السلاحليك" - فالتقطه فورًا، وضرب به فاروق ضربةً مؤلمةً، اختفى معها وقع الأمطار بالخارج، وظهرت معها الشمس فجأة من خلف إحدى السحب، وانسل فاروق عائدًا من شروده، واستوقفه شيء غريب يحدث عند المدخل الفرعي للملعب... كان حارس الأمن يمسح بعينه المكان حتَّى توقفت على فاروق، ثم أشار نحوه... لاحظ فاروق أنه لم يكن وحده... لكن يقف بجواره رجلان يرتديان بِزَّاتٍ سوداءَ، ويتطلعان إلى فاروق فِي حماسة شديدة. ما إن استقرا على مكانه، حتَّى توجَّه الاثنان نحوه فِي خطوات مسرعة من وسط الملعب، متجاهلين رشاشات المياه، وغير عابئين بالعشب المبتل.

اقتربا منه، ولم يعرف فاروق وقتها ما عليه فعله... راوده إحساس غريب ومضحك أن عليه الإسراع والهروب، لكن لم يكن يعرف ما يستوجب الهروب، وأيضًا لم تسعفه قدمه التي أصبحت تحمل ما بدا له أكياسًا من الرمال؛ فضخةُ الأدرينالين التي انطلقت الآن من كظريته قد انتشرت فِي أنحاء جسده، وشلت حركته وتفكيره.

توقفا أمام فاروق، وبدأ أحدهما الحديث متسائلًا:

- دكتور فاروق!

كان طويلًا ذا بشرة خمرية وهيئة عسكرية؛ شنب كثيف وتسريحة جانبية فِي محاولة فاشلة لإخفاء استطالة وجهه، وقد اختفت عيناه خلف نظارته الجوتشي. وبدا لفاروق أنه المسيطر؛ فالآخر لم يكن يحاول الكلام، ولا حتَّى النظر إلى فاروق بالرغم من أن لديه نفس الهيئة العسكرية الصارمة، وإن اختلف فِي الحجم قليلًا عن رفيقه. وبدا كلاهما ذَوَيْ شأن هام، أو على الاقل ملابسهم.

رد فاروق بعد لحظات تفكير طويلة: نعم!

– نحتاج منك أن تأتي معنا على الفور.

تبدلت ملامح فاروق إلى الذهول فورًا، ليتلاقى حاجباه معبرين عن دهشة أو غضب. لم يستطع الرجل التحديد.

وقال فاروق:

– أليس من الأولى ألا تتركني هكذا فريسةً للحيرة، وتعرفني بنفسك قبل أن تطلب مني أن أوافق على اصطحابك لي إلى وجهتك...

رد الرجل فِي ثقة:

– لا تخف يا دكتور. سوف أشرح لك كل شيء فِي الطريق. لكن حاليا لا وقت لدينا... ولزامٌ علينا ألا نتأخر.

تابع فاروق متهكمًا ومتجاهلًا نبرة الرجل الصارمة:

– أتُسوِّل لك نبرتك الصارمة أن أبدل رأيي الآن بعدها؟

أنهى فاروق جملته، وقرر أن يتجاهل تمامًا وجود الرجلين، ويتابع العدو حول الملعب... وبالفعل بدأ فاروق فِي التحرك بعيدًا عنهما، فأمسك الرجل بذراعه ليوقفه. استدار فاروق، ونظر له نظرة غاضبة، واتسعت عيناه، وضاقت حواجبه، وقد ضغط على ضروسه مُظهرًا فكًّا قويًّا ليصبح وجهه

العريض كاللايجر المفترس. وقتها أفلت الرجل ذراعه خوفًا، واستطرد قائلًا:
- دكتور فاروق، الموضوع ليس أكثر من استشارة...

لم يكن وقع الكلمة بالغريب على مسامع فاروق؛ فبحكم أنه أستاذ جامعي، فقد تعود على إبداء الآراء وتحكيم العديد من المشاريع والأبحاث والرسالات العلمية للجامعات والمؤسسات أو حتَّى للحكومات؛ لكن الغريب فِي الموضوع والمثير للشك أن الطلب جاء على غير العادة؛ فدائمًا ما كان بريده الإلكتروني هو وسيلة تواصله المعتادة مع مريديه.

للحظاتٍ ظلَّ الرجل مسيطرًا على نفسه حتَّى خانه جسده، ونقل ثقل جسمه إلى القدم الأخرى، وأمسك بياقة قميصه، وسار عليها بأطراف أصابعه... فعرف فاروق أن الرجل قد تملكه التوتر وهو على وشك الانهيار، بالرغم من الحزم الذي لا يزال ظاهرًا فِي عينيه.

أكمل الرجل:
- دكتور... الموضوع أخطر مما تتصور.

قال فاروق منتهزًا لحظة ضعفه:
- من أنت؟

قبل أن يرد الرجل، صدرت من جيبه رنةُ هاتف محمول معلنةً عن اتصال... أخرج الهاتفَ، وردَّ مسرعًا بعد أن تبدلت ملامح وجهه فور رؤية اسم المتصل.
- نعم... وصلنا إليه... معنا الآن... أجل أجل... تفضل...

قالها وهو يشير بالهاتف لفاروق.

مد فاروق يده، وقد تحول غضبه إلى اندهاش مرةً أخرى... أخذ الهاتف، ووضعه بالقرب من أذنه مباعدًا بين شاشته والعرق على وجهه.
- دكتور فارووق!

صعق فاروق، وتوقفت الكلمات فِي حلقه، وعجز لسانه عن النطق، ليتحول عقله إلى جحر يؤوي عشرات من الأفكار تتلوى حول بعضها... تكونت لديه على الفور شكوك حول ماهية صاحب الصوت... فهذه النبرة الهادئة العميقة بالتأكيد ليست بالغريبة عليه... لكن بدت الفكرة مضحكة... حتَّى سمع الصوت مرة أخرى يكرر اسمه:

- دكتور فاروق؟

ضغط فاروق الهاتف على أذنيه متجاهلًا العرقَ ومحاولًا التأكد من صاحب الصوت الذي يأتيه عبر الهاتف...لا يمكن أن يكون هو!

ثم رد دون أن يدري:

- نعم!

أكمل الرجل كلامه عبر الهاتف متجاهلًا اندهاش فاروق، وأيضًا دون أن يكلف نفسه عناء التعريف بها:

- دكتور فاروق... نحتاجك بشدة فِي أمر خطير، ولا أستطيع التحدث فِي الهاتف، لكنها مسألة حياة أو موت... والأمر حساس جدًّا ولا يحتمل التأجيل، وأنا فِي انتظارك... قالها ثم أغلق الخط تاركًا فاروق فاغرًا فاه.

انطلق خيال فاروق مسرعًا فِي شوارع الوهم، وتخيل صاحب الصوت، وبدت أفكاره عاجزةً عن تصوُّر ما هو آتٍ. بحقِّ كل الأديان، ما السبب الذي يجعل شخصيةً كهذه تُرسل من يحضره، ثم يكلف نفسه عناء الاتصال به لتأكيد طلب حضوره على الفور؟

أعاد الهاتف للرجل، وأشار له برأسه أن يتقدَّمه دون أن ينبس.

سار الاثنان نحو بوابة الخروج التي كان الحارس لا يزال واقفًا عندها

محاولًا متابعة ما يحدث... مر الرجلان دون النظر إليه، ومن خلفهم فاروق الذي غمز له بعينه؛ لا يعرف لماذا، لكنها كانت حركة لا إرادية خرجت منه! اعتقد أنها إما بسبب التوتر وإما بداعي التخفيف من دهشة الحارس.

خرج ثلاثتهم من باب النادي، ليجد فاروق سيارة جيب سوداء تقبع بجوار إحدى اللافتات التي تُجرم الصف فِي هذا المكان... ابتسم فاروق وهو ينظر للعلامة، ثم يدخل إلى السيارة التي قد فتح بابها للتو بواسطة أحد مرافقيه. ولكن قبل أن يدخل، أخرج شيئًا من جيبه، ثم نظر به وقال:

- لا تقلقي يا عزيزتي... سيكون كل شيء على ما يرام.

انطلقت السيارة مارةً بشوارع القاهرة التي تكاد تكون فارغةً فِي ساعات اليوم الأولى، وظل نظر فاروق معلقًا بالسحب الخفيفة التي تزين السماء. ولم يساعده عقله، أو تساوره أي شكوك تخص تلك الزيارة أو الاستشارة كما يقول ذلك الرجل الجالس أمامه؛ فهو يعمل فِي مجال لا علاقة له بذلك المتصل، وفاروق لم يتدخل قط فِي أمور مشكوك فيها أو صدر منه حديث لدرجة أن يتم استدعاؤه هكذا... لمح فاروق طفلًا يجلس بجوار أحد أعمدة الإنارة يعد عدته ويجهز نفسه عند بدء الزحام ليبدأ عمله اليومي فِي بيع المناديل أسفل الإشارة.

انسحب عقل فاروق، وسافر به إلى يوم طرده أبوه من الدوار، وسار هائمًا فِي شوارع البلدة... لم يكن يعلم وقتها ما عليه أن يخافه... بطش تلك الليلة السوداء العاصفة أم بطش الإنجليز الذين يعيشون فِي القرية فسادًا... ظل يجري فِي الشوارع، والدم لم تكفه تلك الأمطار؛ فقد أغرق ملابسه هو الآخر... وصل فاروق إلى ضفاف النيل، ورأى "العشة" التي طالما تحاكت عنها البلدة، وقالت إن العفاريت تسكنها. قواه قد خارت من الدم الذي فقده، ومن الجرح

فِي صدره. لكنه بالرغم من حالته، لم يخطئ نور "البابور" القابع فِي منخفض التلة...

حاول الهبوط بحذر متجهًا نحوه، لكن أقدامه خانته، وسقط وظل يتدحرج حتَّى وصل إلى باب العشة. وبينما كان مكوَّمًا على الأرض، وقبل أن يفقد الوعي، لمح بعض الظلال المتراقصة داخل البابور.

توقفت السيارة لتستحضر عقل فاروق من الهَيَمان فِي ذكرياته الأليمة، وقُطعت الأوتار فِي يد الشك العليا التي كانت تقلب فؤاده، وتأكد أنه لم يكن يهذي عندما خمَّن صوتَ محدِّثه.

فتح الرجل الباب لفاروق، ليجد نفسه واقفًا أمام مبنًى كبيرٍ ذي طراز فاطمي، ومدخله عبارة عن قوس عظيم يستند على عمودين يسكنان تجويفًا ثلاثيًّا، يُحيط به نقشان كوفيان مستديران، وقد كتب بينهما بخط ديواني: (مشيخة الأزهر الشريف).

تنبه فاروق للعيون التي ظلَّت تتابعه باستغراب، وتذكر أنه لا يزال مرتديًا الزي والحذاء الرياضي...

أشار له الرجل أن يتابع المشي، وتوجها إلى المدخل الأمامي، وكان عبارةً عن باب خشبي ضخم مزين بأشكال هندسية إسلامية، ويفضي إلى رواق ضخم تتوسطه ستة أعمدة ضخمة مزينة بالجرانيت الأخضر، وحوائط المشيخة من الداخل تشكل معينًا متناسقًا مع رسومات الأرضية الرخامية البيضاء المزينة بأشكال مطعمة برخام أسود وآخر أحمر قانٍ، تتخلله بعض التشبيحات البيضاء، وكل حائط من الأربعة مقسم إلى أربعة أجزاء أخرى تزينه المقرصنات من أعلاه، وتتخلله نوافذ كبيرة عبارة عن شناشيل خشبية غير بارزة مصنوعة بإتقان لتتحدث دون لسان عن عراقة تاريخ العمارة

الإسلامية...

انحرف ثلاثتهم يمينًا، ليصعدوا سلمًا رخاميًّا ذا أيدٍ حديديةٍ تنتهي بخشب ماهوجني ناعم الملمس. وفي الدور الثاني، وجد فاروق لوحات على الجدار لآيات قرآنية وكلمات بخطوط مختلفة؛ ولاحظ أن التلاعب بالحروف يثير الدهشة على غير العادة!

وفي نهاية الرواق، يقف باب وحيد فِي منتصف الحائط يَحوطه برواز خشبي عظيم، وعنده توقف الرجل للحظةٍ، وانتظر قليلًا ليستجمع أنفاسه - أو هكذا بدا لفاروق - ثم طرق الباب ودفعه دون انتظار الرد... فكر فاروق... لا بد أن لديه تعليمات بالدخول فورًا؛ فنظرته وتحوله إلى قط أليف عند رؤية الاسم على الهاتف منذ دقائق توحي بأنه يرهب ذلك الكائن المهيب القابع الآن داخل هذا المكتب.

تبعه فاروق إلى داخل المكتب الذي كانت إضاءته تكاد تكون معدومة، ولا يظهر منه الكثير؛ فقد كانت جميع الستائر مسدلة. نظر فاروق حوله ليجد مكتبة فِي اليمين تكاد تصل إلى سقف الحجرة، وفي الواجهة مكتب ضخم، أما على يساره فهناك منضدة اجتماعات، وخلف المكتب كان يقف متداريًا فِي ظلام الغرفة رجلٌ قصيرُ القامة ليس بالممتلئ ولا النحيف، يقف أمام النافذة متأملًا من أحد فواصل الستارة شارع صلاح سالم وما بعده من أرض الفسطاط التي كساها الزمان باللون الأصفر. ظل لحظاتٍ متجاهلًا دخولهم... وبالرغم من أن فاروق لم يرَ وجهه حتَّى الآن، إلا أنه شعر بقوته ونفوذه ينتشران ويفوحان فِي المكان كالعطر النفاذ...

لحظات، ثم تحدث الرجل بصوته العميق:

- اتركنا بمفردنا يا أدهم...

خرج مرافق فاروق، وتركه فِي لحظات من الصمت والترقب، قبل أن يعود الرجل ليتابع كلامه بعد سماعه لصوت انغلاق الباب:

- أتابع أبحاثك دائمًا... ويعجبني تفكيرك جدًّا. لكن ألا ترى أنك بزمان غير زمانك، وأن العامة الآن غير مستعدين لأن يفتحوا أعينهم وأبصارهم ومداركهم؟ ألا تتفق معي أن الإنسان لا يزال فِي طور النمو؟

تعجب فاروق من الاستقبال الغريب، ولم يعرف إن كان ينبغي عليه الرد أم لا.

استدار الرجل متخذًا خطوة تجاه فاروق، لتظهر ملامح باعثة للطمأنينة، ووجه بشوش مريح، وأسنان صغيرة تميل إلى اللون الأصفر قليلًا، ولحية بيضاء ليست بالطويلة ولا الحليقة، وأعين هادئة؛ أما لباسه فقد كان كالمعتاد، إلا أن عمامته لم تكن أعلى رأسه، بل كانت هناك تستقر بشموخ على مكتبه...

وبالرغم من الهدوء والطمأنينة التي انبعثت فِي قلب فاروق بمجرد رؤية وجهه المألوف، إلا أنه لم يستطع التفوه بكلمة.

أشار الشيخ محمد الغرباوي (شيخ الأزهر الشريف) إلى فاروق ليجلس على أحد الكراسي المواجهة لمكتبه، ثم جلس هو على الكرسي المقابل، وتفحص فاروق للحظات، قبل أن يبدأ فِي الحديث.

- دكتور فاروق... فِي البداية أعتذر عن الطريقة التي استدعيناك بها إلى هنا... لكن حدثت تطورات كثيرة فِي الساعات الأخيرة أجبرتني أن أقوم بإحضارك هكذا...

قالها، ثم التقط جهاز التحكم من الطاولة التي تفصل بينهما مشيرًا ناحية الحائط لترتفع إضاءة الحجرة قليلًا. ظهرت بعض الأصوات من خلف فاروق، فاستدار ليرى مصدر الصوت، وسبب توهج الحجرة مرة بعد الأخرى... كانت شاشة تلفاز عريضة معلقة على الحائط تعرض مشهدًا مَهيبًا

تقشعر له الأبدان. ساحة القديس بطرس أو سانت بيتر سكوير، وقد اختفى بلاطها البازلتي الأسود أسفل الآلاف من البشر المتشحين بالسواد، وقد علت أصوات البكاء والنحيب فِي كل أركان المكان، والدموع تسيل من أعينهم كسيلٍ من السفن ينجر فِي بحور الأسى التي علت وجوههم، وظهرت تموجات حركتهم فِي محاولة للاقتراب من موكب الكاردينالات الهادئ الذي يعبر الساحة، ويتقدمه حملة النعش فِي انكسار جلي... لكن لم يكن تابوتًا هذه المرة. كان نعشًا خشبيًّا مستطيلًا بطول الجسد الطبيعي للإنسان، ويرقد عليه بينتولا بوجه حالم غير آبهٍ بما حوله.

وسط الصراخ والبكاء، تعالت أصواتٌ تصرخ بكلمات لم يستطع فاروق تمييزها، وعادت الكاميرا لترتفع إلى أعلى مبتعدةً عن الساحة لتظهرها بأكملها فِي لباسها الأحمر القاني، والمحاط بهالة ضخمة من اللون الأسود، فيشير فضيلته مرة أخرى إلى الشاشة ليطفئها، وتعود الغرفة لإضاءتها الباهتة.

عدل فاروق من جلسته ليواجه فضيلته مرة أخرى وهو يفكر فيما رآه للتو. بالتأكيد ليس هذا هو الطارئ الذي حدث؛ فوفاة البابا كانت منذ أسبوعين.

قطع صوت الشيخ حبل أفكار فاروق قائلًا:

- دكتور فاروق... بعد دقائق سيبدأ المجمع المغلق؛ وما أنا على وشك عرضه عليك الآن، هو أكثر سرية وقدسية من أي شيء تتخيله فِي حياتك. وقبل أن تطَّلع عليه، أريد أن أناقشك فِي بعض من النقاط المهمة...

تعالت الدهشة فوق وجه فاروق، ولم يستطع تخمين أو توقع ما هو آتٍ من حديث.

اعتدل الشيخ فِي جلسته، وأغمض عينيه للحظاتٍ قبل أن يبدأ كلامه بصوتٍ هادئٍ عميقٍ، وكأنه يخرج من أعماق جوفه:

- تعلم بالطبع أننا كرجال دين دائمًا ما يؤرقنا هاجس التطور العلمي والصراع الأزلي المتمثل بين طفرات العلم وقدرة الإيمان على التفسير المنطقي. ولن أكذب عليك، ولن أدَّعي الفضيلة وأقول إننا أفضل من الكنيسة وإننا نتقبل كل شيء، أو إننا لم نرتكب جرائم بالمثل فِي حق كثير من العلماء، وفي حق الدين... وبالرغم من التاريخ الإسلامي الحافل بالعلم والعلماء، إلا أنك الآن إن تحدثت مع بعض شيوخنا، فستشعر أن النار ما هي إلا الجنة، لكن من الجانب الآخر! لكن دعني أحدثك أننا حتَّى هذه اللحظة، لا نزال على وفاق مع التطورات العلمية، فيزيائية كانت أم كيميائية أم حتَّى كونية؛ وكل ما يتم اكتشافه يثبت قدسية القرآن. ولكننا على وشك الوصول للحافة، وأصبحنا على شفا حفرةٍ لن ينجو منها الكثير، وسيأتي اليومُ الذي يصل فيه الدين إلى نهاية الطريق، ويعجز أمام العلم، ولن نجد وقتها تأويلًا لنفسِّر ما يحدث من حولنا، وحينها ستكون الفتنة الكبرى، ولحظة القبض على الجمر التي وُعدنا بها...

لم يردَّ فاروق منتظرًا من الشيخ متابعة كلامه، علَّه يفهم إلى أين سيربو هذا الحديث.

نطق الشيخ بعد برهة، وقد استجمع فيها أنفاسه التي كانت قد تسارعت:

- نحن حتَّى هذه اللحظة، مشكلتنا الكبرى هي أننا لم نعترف بوجود المشكلة نفسها... أو لا نملك الجرأة لأن نطرحها على الملأ، مدركين لكن راكدين فِي مستنقع الإنكار، وسنظل سجناء أنفسنا، وستظل عقولنا دفينةَ غياهب ظلمات دينية نحن من خلقناها لأنفسنا؛ والمصيبة الكبرى أننا لن نخرج من تلك المرحلة على الواقع والتقبل... لا، بل سنتخطاها إلى مرحلة الثواب والعقاب، ولن يكون بالشيء الهين يا دكتور...

تنهد الشيخ ثم تابع:

- أَتَعْلَم؟ قبل العصور الوسطى فِي أوروبا، أو ما نطلق عليه عصور الظلام، كان العلم فِي الإسلام غاية. وأعتقد أنه لا داعي لذكر الفارابي والخوارزمي والرازي وابن سينا وابن حيان وغيرهم...

استدار برأسه ليُلقي بنظرةٍ نحو النافذة، ثم عاد ليتحدث.

- لكن كانت الفاجعة من بعد سقوط الأندلس، وحتى الآن ما زلنا نتحسَّر على ما ذهب، وقد أصابنا العقم العلمي. تخيل لو أنك تمتلك أطفالًا فِي مرحلة التعليم الأولي، وأنت عالم فيزياء، وتحاول الاستذكار مع أحد أولادك، وتجد أن منهجه لا يزال مؤمنا بأن الإلكترون أصغر مكونات الذرة... إنها لفاجعة أن تظل تلك المعلومات من المسلَّمات عندنا، بالرغم من أنها قد ماتت من عشرات السنين. وللأسف لا نملك أي حلول كي نطرحها على ساحة العلم أو البحث... أتعلم لماذا؟

أجاب فورًا على نفسه دون إعطاء فرصة لفاروق.

- لأننا وقعنا فِي نفس الخطأ الذي وقع فيه أجدادنا.

توقف طويلًا هذه المرة قبل أن يعاود حديثه قائلًا:

- قد تستعجب أن يكون هذا الكلام صادرًا عني، لكنها الحقيقة. كمسلمين فِي هذا العصر، لسنا إلا مجموعة من المغرورين بالإيمان المتحرر غير المبرر بأن الفردوس الأعلى لنا فقط. وللحق، ليس بيننا من يستحقه. إننا لا نختلف كثيرًا عن اليهود عندما قالوا أنهم شعب الله المختار، ولا حتَّى عن النصارى. بالعكس، لقد فاق انحرافنا ما فعله سفهاء المجمع عندما نصبوا المسيح ابنًا للرب فِي محاولةٍ للحفاظ على روما، وقد كان. أما نحن، فقد نصبنا الإسلام نفسه ربًّا، ولم نعد نعبد ربَّ الإسلام، بل أمسينا نعبد ديننا نفسَه، ونتفاخر

بتعاليمه، وننتسب لها دون التماسها. وللأسف، المدرك صامت، ويعتقد أنه لن يعذب إلا أيامًا معدوداتٍ، وفي نفس الوقت الذي أتحدث معك فيه يتقدم العالم بسرعة تضاهي سرعة الجسيمات فِي سيرن...

- حسنًا لا تندهش أنا مطَّلع مثلك...

قالها الشيخ عندما لاحت على وجه فاروق الدهشة، بعد أن ذكر مسارع سيرن. ثم تابع:

- دعني أكمل ... العالم يتحرك الآن بسرعةٍ رهيبةٍ، ونحن لا نزال منكبين على تعظيم الإله فِي شكل من الأشكال الحمقاء التي يصنعها أحد البشريين عن طريق كذبة "جرافيكية" دنيئة فِي محاولة فاشلة لإظهار قدرة الله عز وجل... وللأسف، الانسياق خلفه قد يفوق الخيال... وكأن الله ينتظر من أحدهم أن يتلاعب بالتكنولوجيا ليظهر عظمته وقدرته فِي خلق قنطور أسطوري، أو رسم كلمات دينية كاسم الرسول أو كلفظ الجلالة على مخلوقات أو أشجار أو ما إلى ذلك... هذا غير بعض الخزعبلات الجديدة التي دخلت الدين، واستقرت فيه بقوة، وحكت جذورها به... ولو اعترض أحدٌ ما على أيٍّ من تلك الأعراف غير الموثوق فيها، فسيُتَّهم بالزندقة والفسق، ولو حاول أن يتطرق لبعض الأسئلة اللاهوتية، فسيتم تكفيره وإباحة دمه. أعلم أن حديثي قد طال؛ لكن فِي النهاية قبل أن أعرض عليك مشكلتي، أريد أن أقول لك أنه للاسف لقد تم ترويضنا على أن نلعب دور الصنم الذي يسبح مع التيار، دون أي فهم؛ ومعظم من تقابلهم فِي حياتك اليومية الآن خاضعون تحت رحمة رؤوسهم التي لا فائدة منها إلا أن توازن ما بين أكتافهم... ولن أنكر أن محاولات فهم الكون صعبة بدرجة كبيرة، قد لا تحتمل معها إضافة المزيد من الأسئلة، ولكن ها نحن الآن أمام معضلةٍ قد تكون الأخطر فِي تاريخ الكون.

تعجب فاروق بشدة. هذه الجملة من إحدى محاضراته...

"إن محاولات فهم الكون صعبة بدرجة كبيرة، قد لا تحتمل معها إضافة المزيد من الأسئلة".

ولكن دهشته الكبرى كانت من أن الكلام الواصل إلى مسامعه صادر عن رجلٍ من قامات العالم الاسلامي. وتذكر والده الذي لم يكن يسمح له بالنقاش أو حتَّى التطرُّق إلى مواضيع شبيهة، وكان دائمًا يرد عليه إما بالضرب أو الطرد، وبدأت بعض الشكوك مرة أخرى تساور فاروق؛ لكنه حتَّى الآن لا يزال يجهل الغرض من طلبه وإحضاره بهذه الطريقة. فإذا كانت أسطورة التناقض بين العلم والإيمان (التي لم يؤمن بها قط) حقيقية، فبالنسبة له المشكلة لم تكن قط تكمن فِي أيٍّ منهما؛ لا فِي العلم القائم على التجربة والملاحظة والبرهان وفي النهاية الاستنتاج، ولا حتَّى فِي الدين القائم على الايمان البحت. بل المشكلة فِي رواد طَرَفَي المعادلة؛ إما العالم وإما رجل الدين، حيث دائمًا وأبدًا يسعى كلٌّ منهما فِي دربٍ بعيدٍ عن الآخر، فكان هم الأول التطور البشري وتقدم العقول والطفرات عن طريق الخوض والتجربة، والآخر سعى إلى الخلاص البشري معتمدًا على التدبُّر، ومكتفيًا بالوحي اللاهوتي... وآمن فاروق تمامًا أن كل ثورة علمية كان لها تأثير مباشر أو غير مباشر على الفكر الديني للإنسانية، وأن رسالة العلم يومًا ما ستصل إلى الخالق، لكن المدهش الآن أن كلام فضيلته يشير إلى ما هو عكس ذلك تمامًا!

أنهى الشيخ حديثه الذي كان مستمرًّا دون الوصول إلى مسامع فاروق، ونظر إليه متسائلًا:

- دكتور... أما زلتَ معي؟

رد فاروق بإيماءٍ من رأسه إيجابًا، والحقيقة أن أذنه لم تلتقط إلا بعض الغمغمات التي لم يصل لعقله منها إلا كلمتان: "المسيخ الدجال"!

تابع فضيلته:

– ورد إلى مسامعي أنك ممن يرفضون تمامًا مبدأ الحلولية الكمونية الواحدية!

رد فاروق سريعًا:

– طبعًا... أرى أن بها خللًا كبيرًا، فِي الجزء المتعلق بالإله. ولَمَّا حاولت أن أعرض الفكرة فِي الجامعة، تم تحويلي لتحقيق استمرَّ أسبوعين.

الشيخ الغرباوي:

ـ بالتأكيد يجمعنا الاتفاق على معارضة الجزء اللاهوتي؛ لكن ما سمعته أنك حاولت أن تعرض نظريةً، ولذلك تم فصلك مؤقتًا من العمل، وكدت أن تُسجَن.

فاروق: وهل يُسجن الشخص لأفكاره.

الغرباوي: آه... عزيزي دكتور فاروق... هنا لا يُسجن المرءُ إلا لأفكاره.

صمت كلاهما برهةً، وكأن عقولهما قد سافرت فِي البلاد عائدةً بالزمن، ليتذكرا آخرَ مرةٍ نعمت فيها البلادُ بحرية الرأي، لكن وجوههما دلت على أنهما لم يصلا لتاريخ معيَّنٍ.

استأنف فضيلته الحديث مرة أخرى:

– لكن بالرغم من اعتراضي التام على نظريتك، إلا أن هناك جزءًا بداخلي مؤمن أن لدينا الحق فِي المعرفة التي تحاول أن تصل إليها... أتدري أنه لا فرق بين الملحد والمتعصب فِي دينه؟ فكلاهما أخطأ فِي حق الله؛ فالأول يعتقد أن الله ليس إلا خطيئةَ العقل، والآخر يؤمن سرًّا دون أن يدرك أن العقل خطيئة الله.

تطلع إليه فاروق مصدومًا من كلماته، وتذكَّر اليوم الذي تمنَّى أن يكون والدُه معه حتَّى يستطيع بركات أن يُبدي ندمه على ما اقترفت يداه فِي حقِّ صدر فاروق الموشوم بجرح كرباجه.

المدرَّج يومها كان هادئًا، والطلاب فِي انتظار المحاضر الوسيم. دخل فاروق المدرج دون أن يوجه نظرة إلى الجالسين كالعادة، ليخلع بذلته على الفور، ويبدأ فِي ثني قميصه السماوي الخالي من ربطة عنق، ليكشف عن ساعديه، وبعدها يبدأ حديثه على الفور بسؤالٍ غريبٍ كالعادة حتَّى يسترعي انتباه الجميع. والحقيقة أنه لم يكن يحتاج لذلك؛ فهو دائمًا ما يأسر الأعين والآذان بكاريزمته الخاصة، وحضوره الطاغي، وصوته الدافئ العميق.

بعد لحظاتِ تأمُّلٍ لم تدم طويلًا، سأل فاروق:

- مَن منا لم يتعرَّض للضرب من قَبل من قِبل والديه؟

كان السؤال هذه المحاضرة غريبًا على مسامعهم، واعتقد البعض أنه غير لائق لكي يبدأ به فاروق محاضرة الفيزياء، وسرت فِي المدرج همهماتهم لتتلاقى جميعها فِي آذان فاروق، ويفسرها عقله بأنه قد نجح فِي إرباكهم كالعادة.

أكمل حديثه قائلًا:

- فلنغير فِي صيغة السؤال قليلًا... مَن منا تعرَّض للضرب بسبب فضوله؟

هنا توقف الهمس تمامًا، وارتفعت الأعناق كي تتابع نظرات فاروق الباسمة، قبل أن يتابع:

- هل أساعدكم قليلًا... حسنًا، سأقول لكم السؤال الذي تعرَّض معظمنا للضرب بسببه، ولم تأتِنا إجابةٌ شافيةٌ عنه حتَّى الآن من أحد...

استدار فاروق، وأمسك بأحد الاقلام، وشرع فِي الكتابة على السبورة، وما إن تحرك مبتعدًا، حتَّى ظهر السؤال للجميع، ليختفي الهدوء، وتبدأ الأحاديث الجانبية مرة أخرى، ولكن بصوتٍ أعلى.

سؤال مكون من ثلاث كلمات، لكنها لم تكن قط كلماتٍ عاديةً. كانت تبدأ بلفظٍ للسؤال عن الماهية أو الكينونة، وتنتهي بما هو ليس لأحدٍ القدرة على إدراك كينونته؛ لذلك كان هناك دائمًا وأبدًا الخوف والرهبة من تكوين هذا السؤال، وقد قيل دائمًا إنه من أشد الأسئلة وأفظعها، وإن على الإنسان أن يكتبه، ثم يحفظه فِي أكثر الأماكن السرية قدسيةً (أي القلوب)، فلا يعرض بعدها على النفس أو الذات... لكن ها هو الآن أستاذ الفيزياء يعرضه على طلبة الفرقة الرابعة، والثقة تملأ وجهه كالمعتاد، وكأنه يملك الأجوبة لجميع الأسئلة التي يُمكن أن تعرَض...

كانت الكلمات المكتوبة على السبورة تكوِّن التساؤل الأخطر فِي تاريخ البشرية.

من خلق الله؟

نعم، هذا ما كتبه فاروق منذ لحظات، ولكن بدت تلك اللحظات فِي أعين من يجلسون أمامه وكأنها أعوام وأعوام من التفكير... حتَّى وقف أخيرًا أحد الطلاب ليتحدث مع فاروق دون استئذان.

– أعتقد أنه من غير الصحيح أن يسأل المخلوق عن وجودية أو حتَّى كينونة صانعه وخالقه، وإن ذلك لخروجٌ عن الملة، وتعدٍّ على الدين.

رد فاروق:

– أعتقد يا عزيزي أننا لسنا فِي المسجد هنا حتَّى تتحدث معي عن التعدي على الدين... ما اسمك؟

– علاء.

- حسنًا يا علاء... صدقني، لو كنت أجلس معك فِي المسجد الآن، لما كنا تطرقنا لهذا السؤال؛ لأن الإيمان الحق لو كان بالحقائق والإجابات المقنعة، لما أصبح ايمانًا مطلقًا، ولكن الإيمان الحق قائم على التصديق دون دليل أو برهان... وأنا الآن أقف أمامك هنا فِي محاضرة الفيزياء حيث لا شيء ممنوع أو محظور؛ وإن كنت تملك الإجابة، فلتتفضل، وإن لم تكن، فاستمع.

استدار فاروق ناحية اليمين قليلًا، وأشار بيده ليأذن لصاحب إحدى الأيادي المرفوعة، ولكنه توقف فجأةً، وشهر كفه طالبًا منه ألا يبدأ بالكلام.

- انتظر... يا أحبائي، ليس على أيٍّ منكم حرجٌ إذا خشيتم مما لن تستوعبوه أو تفهموه. فمن أراد أن يتفكر، فالاستماع خير سلام، ومن لم يستطع منكم، وأراد أن يغادر الآن، فليتفضل... ثم انتظر برهة قبل أن يغادر الطالب الذي اعترض على السؤال للتو هو وبعض زملائه، ليغلقا خلفهم باب المدرج بعنفٍ، ظل صدى دويه يتردَّد فِي المكان للحظاتٍ، حتَّى اختفى تمامًا، وعم الهدوء مرة أخرى.

فأشار فاروق للطالب أن يتحدَّث.

الطالب: أعتقد يا دكتور أن الكينونة أصعب من أن تدركها عقولنا.

فاروق: بالطبع... وأنا لم أسأل عن الكينونة. أنا أسأل الآن عن وجوديةٍ وليس كينونة. فأنا مثلك تمامًا أومن أنه عزَّ وجلَّ لا يُرى بعينٍ كأعيننا، ولا يُسمع بأذنٍ كآذاننا؛ فصيغ المبالغة فِي أسمائه تتخطَّى عقولنا؛ فـ"سميع بصير" لا يمكن أن تكون مثل "سامع ومبصر".

الطالب: لا أرى فارقًا. أعتقد أن عقولنا لا تستطيع إدراك هذا أو ذاك.

أشار له فاروق أن يجلس، ثم قال:

- لنجعل حديثنا علميًّا بحتًا... ودعونا نعُدْ إلى البداية، حيث لا شيء... حيث العدم والفراغ التام... ولنحاول إدراك كينونة العدم. هل عند أحدكم فكرة عمَّا هو العدم؟

أشارت إحدى الطالبات لتطلب الإذن بالإجابة، فأذِنَ لها.

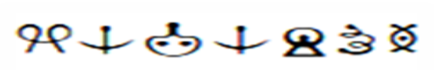
الطالبة: أرى أن السؤال فلسفي أكثر منه علمي؛ فالإدراك والعدم لا يتوافقان، فإذا حضر أحدهما غاب الآخر؛ فالطبيعة تمقت الخواء. وعليه، فإن إدراك أو فهم كيفية العدم، يستلزم وجود كيان من نسأل عنه؛ وفهم إجابة سؤالك يماثل فِي صعوبته كيفية فهم بزوع الوعي وموته.

فاروق (مقاطعًا): أعتقد أنني طلبت أن يكون حديثنا علميًّا بحتًا، ولم أتطرق للجزء الفلسفي. ولو كنا أردنا أن نناقشها من هذا المنطلق، لدخلت عليكم وأنا أحمل الريجْڤيدا مرددًا أنشودة الخلق... تفضلي بالجلوس.

تعمد الشيخ ترك فاروق فِي تيه أفكاره للحظات، ثم قام من مجلسه، واستدار حول المكتب ليخرج ظرفًا من أحد الأدراج التي كانت مغلقة بإحكام، وعاد ليجلس مرة أخرى مواجهًا لفاروق، ووضع الظرف على الطاولة التي تفصل بينهما بحرصٍ شديدٍ، وأمسك مقعده من يديه ليزحزحه سنتيمتراتٍ تجاه فاروق، لتلتصق ركبتاه بالطاولة ثم مد فضيلته يده ليلتقط الظرف مرة أخرى، مخرجًا محتواه ليسلمه بيد مرتعشة إلى فاروق... كان المحتوى عبارة عن ورقة واحدة فقط. مد فاروق يده ليتسلمها منه، وقد لاحظ على الفور الشعار الساكن فِي أعلى يسار الورقة، حيث التاج الثلاثي المتمثل فِي قوة وصلاحيات الحَبر الأعظم، يتوسط مفتاحين متقاطعين على شكل صليب أحدهما ذهبي والآخر بلون الفضة. وكما ورد فِي إنجيل "متى"، إنهما مفتاحا الجنة اللذان أهداهما المسيح إلى بطرس، حيث يرمز الذهبي للقوة الروحية

والفضي للقوة المادية، ويصل بين المفتاحين حزامٌ أحمر ليدل على دم المسيح الذي سال على أخشاب الصليب، ومواجهًا له على الناحية الأخرى من الورقة شعار البابا ماركوس بينتولا، المتمثل أيضًا فِي التاج الثلاثي والمفتاحين، لكنهما يختفيان خلف ما يشبه علم السويد الأزرق، ويحوي فِي منتصفه الصليب الأصفر، لكن يزيد عليه فِي الجهة اليسري حرفM.

لم يندهش من وجود شعار الفاتيكان والختم البابوي؛ فبالتأكيد هناك مكاتبات ومراسلات دائمة بين قطبي العالم الديني، لكن ما فاجأه هو عنوان الوثيقة المكتوب بلغةٍ غير مفهومة تشبه الرسومات السريالية، أو حروفًا تداخلت مع رسومات مكونةً أشكالًا عشوائيةً. كان العنوان مرسومًا بالشكل التالي:



لم يتعرف فاروق على معنى الكلمة، ولم يهتم فِي البداية بمحتوى الوثيقة الفعلي، لكن ما استوقفه هو علاقته بها... وحيث إنه يعلم أن الرد لن يأتيه، وأن أحدًا لن يروي ظمأ سؤاله وجه تركيزه إلى الورقة التي تحتوي على مجموعة من المعادلات الرياضية التي تحمل الكثير من المتغيرات والرموز ذاتها التي شكلت العنوان... تأملها فاروق لفترة وجيزة، ثم عاد موجهًا نظره إلى الشيخ، وهزَّ رأسه فِي حركةٍ منه للتساؤل عن ماهية ذلك الشيء الذي بيده، وما يتوجب عليه فعله... لكن لم يحصل على ردٍّ فوريٍّ. ظل الصمتُ مطبقًا على المكان، حتَّى تحدَّث فضيلتُه أخيرًا.

- دكتور... أنت هنا بسبب هذه المعادلات... وأؤكد لك أنها لم ولن تُعرض على أحد غيرك. وكما قلت لك من قبل، إن الموضوع سري وقدسي للغاية.

سأل فاروق: والمطلوب؟

- تحاول أن تصل إلى حل تلك المعادلات؛ فنحن لا نزال نجهل معناها أو الغرض منها.

عاود فاروق النظر مرة أخرى للوثيقة متفحصًا إياها عن كثب هذه المرة، ثم تكلم بعد وقتٍ ليس بالقصير.

- والمرسل؟

- أنت تعلم... هو مع خالقه الآن.

نظر إلى الورق، ثم قال:

- قد يحتاج الموضوع إلى وقت. هذه المتغيرات ليس لوجودها فِي وسط المعادلات معنى منطقي.

تساءل الشيخ:

- كيف؟

- أعني أن المتغيرات التي أمامنا الآن قد تم تشفيرُها، ومن الممكن أن تكون فيزيائيةً أو كيميائيةً أو رياضيةً، لكن هي الآن رموز تحت الجذر أو بين علامات رياضية، ولا معنى لها، ومن المحتمل أن تكون رموزًا معلومةً لدينا، وسهل التعرف عليها، لكن تم تكويدها بأي طريقة من الطرق...

أعاد فاروق كلامه بعدما رفع الشيخ حاجبيه:

- تكويدها أي تم تشفيرها بكود أو مفتاح معين، ويجب أن نحصل على هذا الكود لكي نقوم بعكس العملية، ونرجع الرموز لأصلها.

- وهذا الكود؟

رد فاروق: من الصعب معرفته.

لم يأته أي رد فعل من الشيخ، فأكمل فاروق:

- هناك ملايين الطرق للتشفير، منها البسيط والمعقد... ومن المستحيل أن نخمِّن بدون أي دليل أو خيطا ومن المحتمل أن...

توقف فاروق فجأةً عن الكلام عندما لاحظ أنه فِي أسفل منتصف الصفحة، كتب بلغة عربية وخط عثماني: ص43 "...

أغمض عينيه وتنهد طويلًا، ثم عاد لينظر إلى الشيخ بعين يملؤها الغضب، وأخيرًا تحدث بنبرة حانقة:

- لقد كلفت نفسك، وأتيت بي إلى هنا لتضيِّع وقتك فِي محاولة فاشلة... كان من الأفضل أن تقدر موافقتي، وتعرض عليَّ الأمر كاملًا.

لم يفهم الشيخ ما يقصده فاروق، ولاحظ فاروق علامات الدهشة على وجهه، فسلمه الورقة، وأشار بيده الأخرى إلى رقم الصفحة، وتابع كلامه محاولًا إنهاء تلك المسرحية الهزلية، وقد تأكد للتو أن الأزهر يتلاعب به، وأن الشيخ قد جاءته وثيقة كاملة أو مجلَّد، واستدعاء فاروق ما هو إلا محاولة فاشلة لتقسيم الأوراق على بعضٍ من العلماء...

فَهِم فضيلته، وظل برهة يحدق فِي حرف الصاد المكتوب باللغة العربية، وبجواره رقم ثلاثة وأربعين... شعر الشيخ بالرعب بعد أن فهم ما يقصده فاروق، وعلم أنه من المحتمل والراجح وجود وثائق أخرى لم تصل إليه، وعليه الآن البحث عنها، فأخذ الورقة من فاروق، وفكر فيما إن كانت تمت سرقتها أو أنها لم تُرسل من الأساس من طرف ماركوس...

ماركوس بينتولا الذي كان آخر لقاء به فِي قلب الڤاتيكان فِي مؤتمر السلام العالمي، حين تخلت جدران بازيليك القديس بطرس الحزينة لأول مرة عن ترانيمها وموسيقاها، لتصب أنغام أوركسترا كراكوف سلسبيلًا من معزوفات تتمايل لها حبات القلوب، وتثمل لها الأرواح، وتتهادى لها الأجساد...

ما زال الغرباوي يتذكر حتَّى الآن نظرته العميقة التي اختلط فيها بياض عينيه بحمرة الدم، والتي لم يفهمها حتَّى الآن.

يومها كان معه وفدٌ مرافقٌ من الأزهر وكبار الحاخامات اليهود، بناءً على دعوة بينتولا لهم ليلقي وقتها ماركوس خطابه التاريخي فِي حضرتهم.

خطا بينتولا داخل الكاتدرائية التي كانت ولا تزال تعتبر أكبر كنيسة فِي العالم من حيث الحجم داخليًّا، وتوجه نحو مذبح القديس بطرس الذي يمتلك مكانة عظيمة فِي قلوب المسيحيين، ويلقب أيضًا بمذبح الاعتراف، ويحوي أسفله ضريح القديس بطرس نفسه. وفوق المذبح البابوي تقوم مظلة برنيني، المسماة نسبة إلى صانعها جان لورنزو برنيني. والمظلة عبارة عن أربعة أعمدة لولبية يرمز كل عمود منها إلى الإنجيليين الأربعة: متى، ومرقس، ولوكا، ويوحنا. ولم تكن فقط من الخشب، فقد أدخل البرونز والذهب فِي بناء هيكلها، وتعلو المظلة قبَّة متطاولة يزين أعلاها صليب ضخم؛ كما تستقر فوق الأعمدة الأربعة تماثيل لملائكة مجنحة ترتدي أوشحةً ذهبيةً، ويتوسطهما طفلان أحدهما يجلس على المظلة حاملًا مفتاحًا ضخمًا، والآخر يفرد جناحيه فِي الهواء حاملًا بيده التاج البابوي...

واستقرت الأعمدة الأربعة على أربع منصات رخامية تحمل الشعار البابوي بشكل بارز. وتلك الأعمدة استوحى برنيني فكرتها من الأعمدة الملتوية التي قد جلبها قسطنطين الأول من اليونان عند بنائه الكنيسة القسطنطينية. وتنتمي رائعة برنيني تلك إلى الفن الباروكي، وقد استغرق العمل بها ما يقرب من اثني عشر عامًا، وقد كان أمر بنائها صادرًا من البابا أوربان الثامن. أما المذبح البابوي، فيقع فِي منطقة التقاء أطراف الصليب فِي هوة داخلية، تعلوه القبة، وتُحيط به الأعمدة الأربعة. وقد زُيِّنت هذه الأعمدة

الأربعة العريضة بمجموعة الشرفات والزخرفات، وفي نهاية كل عمود أيقونة تُظهر أحد الإنجيليين الأربعة، كما وضع فِي كوَّة محفورة داخل كل عمود تمثال... الأول للقديسة هيلانة تحتضن الصليب الحقيقي من تصميم آندريا بولجي، والثاني تمثال للقديس لونجيوس وهو قائد المائة الروماني الذي آمن بيسوع بعد أن سال الدم والماء من جنبه فِي أعقاب طعنه بالحربة للتأكد من موته بعد صلبه كما هو مذكور فِي إنجيل يوحنا؛ ويظهر التمثال القديس لونجيوس ممسكًا بتلك الحربة الملطخة بالدماء. والعمود الثالث يحوي تمثال القديس إندراوس شقيق القديس بطرس؛ وبحسب التاريخ الكنسي، فإنه قد صلب هو الآخر ولكن بشكل مائل على صليب يشبه الحرفX؛ ولذلك يُظهر التمثال إندراوس ممسكًا بصليبه؛ وهو من تصميم الفنان فرانسيسكو دكيوسوني. أما التمثال الرابع والأخير فهو لڤيرونيكا القديسة الناعمة التي مسحت وجه يسوع بمنديلها عندما كان مصلوبًا. وبنتيجة الدم والعرق من على وجهه، تشكل على منديلها ما يشبه صورةً لملامح وجهه. والتمثال من تصميم فرانسيسكو موشي. وبالقرب من نهاية الرواق، يتموضع تمثال ضخم للقديس بطرس، من تصميم مايكل آنجلو. أما الشرفات، فكانت تحتوي كل منها على مذبح له نفس اسم التمثال الموضوع أسفل العمود، ويقام القداس الإلهي على هذا المذبح فِي يوم عيد شفيع المذبح، كما أنه وبحسب تقاليد الكاتدرائية، فإنه خلال الصوم الكبير، تتم قراءة الكتاب المقدس من الشرفة التي تعلو تمثالًا معينًا. على سبيل المثال، فإن الصلاة فِي الأحد الأخير من الصوم يقرأ فيها من الشرفة التي تعلو تمثال القديسة ڤيرونيكا.

بدأ بينتولا خطابه قائلًا:

باسم الإله الأوحد الذي نعبده جميعًا

أحييكم إخوتي جميعًا،

وأشكركم على قبولكم لدعوتي، وحضوركم المشرف، وأود أن أختص بالشكر والترحيب صديقي وأخي يوستينوس الذي كان له دورٌ كبيرٌ فِي إلهامي بأن أفكر وأنظم هذا المؤتمر الذي يجمعنا نحن اليوم على غاية واحدة، وتحت راية السلام...

أعزائي الحضور، أود أن أبدأ معكم حديثي بإلقاء الضوء حول ما استطعت أن أستقيه من تاريخ من سبقونا... وليس هناك أيُّ عيب أو خزي فِي أن نعترف ونتحدث بشأن أخطاء أجدادنا... لكن العيب فِي ألا نتعلم من تاريخهم... وأولى النقاط التي سأتحدث عنها اليوم...

أعاد صوت فاروق المطالب بالرحيل شيخ الأزهر من شرود أفكاره، فتمسَّك الغرباوي به مؤكدًا أن هذه هي الورقة الوحيدة التي وصلته.

- دكتور... أنا متفهم موقفك تمامًا، لكن صدقني لم يصل إلينا إلا هذه الورقة، والأمر أكبر ممَّا تتخيَّل... ولا يحتمل أن أضيع الوقت الباقي فِي اللعب والتخطيط.

تنهد فاروق، وفكر طويلًا... هل الشيخ يتلاعب به أم إن الحقيقة فعلًا هي ما تنطقه شفتاه، وأنه لم يصله إلا هذه الورقة؟ لكنه رأى فِي عينيه تصميمًا يشوبه رجاء، فمد يده، وأخذ منه الوثيقة مرةً أخرى متسائلًا:

- مهلة؟

جاء الرد سريعًا:

- أربعة وعشرون ساعة.

زفر فاروق ما بدا كأنه نفسٌ مكتومٌ منذ الأبد، وفكر أنه يحتاج إلى الاستحمام وتغيير ملابسه بسبب العرق والرائحة الملازمة لجسده، والتي لا يعرف هل لاحظها الشيخ أم لا.

ثم تابع كلامه مطالبًا:

- سأحتاج أن أعود إلى المنزل.

الشيخ: لا يا دكتور... أغراضك ستصل خلال دقائق... أرسلنا لإحضارها.

اندهش فاروق، وتضايق من تحركات الشيخ التحكمية، لكن كان فِي نفس الوقت مقدرًا لنبرة الصوت المرتعبة التي لم يستطع أن يخفيها الغرباوي بالرغم من ظهوره المتماسك فِي بداية لقائهم.

طرقتان على الباب، ثم دخل نفس الرجل الذي اصطحب فاروق من النادي، ومعه رفيقه يحمل ملابس فاروق فوق يديه... بنطاله الجينز الأزرق، وقميصه الكاروهات السماوي، وسترة صوفية بيج بدون أكمام، وقد وضع أعلاهم حذاءه الجلدي المفضل، وبجواره هاتفه المحمول. أخذهم فاروق دون أن يسأل حتَّى كيف استطاعوا دخول شقته... لكنه قد اكتشف غياب مفاتيحه التي كانت فِي جيبه! بالتأكيد أخذها منه ذلك الرجل وهو يفتح له باب السيارة.

أشار له الغرباوي من فوق كتفه نحو باب آخر على يمين الغرفة، فتوجه فاروق نحوه ليجد حمامًا ملحقًا بغرفة المكتب.

دفع فاروق الباب الذي أصدر صريرًا مزعجًا، ثم دخل تاركًا عقله فِي مكتب شيخ الأزهر. هل ما يحدث حلم؟ هل هو كابوس آخر من كوابيسه التي تطارده منذ شهور، والتي لا معنى لها؟ رفع يده، وتحسس وجهه، وسار بأصابعها على لحيته، ثم تأكد أن لا أحد يراه، وضرب نفسه ضربة خفيفة، وظل جامدًا للحظاتٍ، ثم رفع يديه أمامه، ونظر إلى راحتيه، فاستطاع أن يراهما...

فقال لنفسه فِي أسًى:

- ليس حلمًا.

سانتو سوبيتو... سانتو سوبيتو...

ما زال صدى تلك الكلمات يتردَّد فِي أركان المكان حتَّى الآن، والمجمع المغلق على بعد لحظات من البدء فِي الكنيسة السيستينية المطلة على ساحة القديس بطرس... فمنذ أكثر من أسبوعين، ظلت الأجراس تُقرع فِي نغمةٍ ملائكيةٍ حزينةٍ من أجل جنازة بينتولا، ومن فوقها كانت السحب تتهادى بأسًى حتَّى انهارت، وبدأت تتساقط منها قطراتُ المطر على الجموع الغفيرة التي ظلت تردِّد: سانتو سوبيتو... سانتو سوبيتو. لدرجة أن المراسم تم تأخيرها لمدة خمس دقائق كاملة... وقتها كانت السلطات الإيطالية قد أغلقت المجال الجوي، وأعلنت حالة طوارئ قصوى فِي جميع أنحاء البلاد، وتم تشديد الحراسة على العاصمة، وأغلقت المدارس والهيئات العامة، وتوقفت المركبات، ومُنعت أي سيارة من التجول فِي أنحاء روما.

كان الحشد غير مسبوق، ويقال إنه - لأول مرة - تواجدت دياناتٌ أخرى فِي قلب ساحة القديس بطرس وقت الجنازة. كان العدد يصل إلى حوالي مليونين ونصف مليون شخص، من بينهم مئات من الشخصيات العالمية واعتبرت جنازة ماركوس من أضخم الجنازات التي شهدها التاريخ...

خرج يومها ماركوس من الكاتدرائية محمولًا على أعناق من كانوا يخدمونه فِي حياته، ليستقر بمنتصف الساحة، لكي يقترب منه الكاردينالات واحدًا تلو الآخر، وينحنوا أمامه، ويعود كلٌّ منهم إلى مكانه فِي الساحة لتبدأ مراسم التأبين.

توجَّه أحدُ الرجال ذوي العباءات الحمراء ناحية المذبح، وقد كان هو الكاردينال يوستينوس، عميد الكرادلة ورئيس مجمع الإيمان... انحنى هو الآخر على التابوت للحظاتٍ، ثم بدأ فِي مباركته بالعطور، ومن ثم عاد ليقف

يوستينوس على رأس بينتولا، ويبدأ فِي تلاوة الصلوات... وعلى يمينه مجلس الكرادلة، بينما على الناحية الأخرى احتشدت الوفود المشاركة من الدول الأخرى من ملوك ورؤساء ووزراء وسفراء.

اختفت الجموع من المشهد تمامًا الآن، وأمست الساحة شبه فارغةٍ، وهناك على أعتاب الكنيسة السستينية يتجه الكرادلة إلى المجمع، وقد انسلَّ نيكولا من بينهم دون أن يلاحظه أحدٌ محاولًا الاختفاء عن الأنظار.

الآن يجب عليه أن ينقذ الموقف؛ فمنذ لحظاتٍ جاءه الاتصال من صديقه يحذره من أن الوثيقة التي كتبها بينتولا سرًّا قد وصلت إلى الأزهر، وقد تمت الاستعانة بأحد الفيزيائيين، وحاليًّا تتم محاولات فك شفرتها.

كان نيكولا بلاجيوس أكثر الكرادلة كرهًا لبينتولا، وأكثرهم عداءً له؛ وبالرغم من ذلك، هو أقوى المرشحين لخلافته.

أخرج هاتفه المحمول، واختار أحد الأسماء من قائمته، واتصل به، ثم انتظر قليلًا حتَّى جاءه الرد من الطرف الآخر.

- آلو.

نيكولا دون تردد: ما الجديد؟

- لم نصل إلى شيءٍ حتَّى الآن.

- أبلغني فورًا بالتطورات، وبعدها تعرف ما عليك فعله.

- أعرف.

قال نيكولا فِي حزم:

- تعلم أنه ليس لديَّ كثيرٌ من الوقت. بعد لحظات سيبدأ المجمع، ولن أكون قادرًا على التواصل معك.. كن مؤمنًا أن ما نفعله يصب فِي مصلحة الجميع..

وبمجرد أن يتم الحل، تخلص من كل من يشارك فِي الأمر، إلى أن أنتهي من المجمع، بعدها تأتي بنفسك سرًّا لتطلعني على ما تحويه تلك الورقة اللعينة.

- لا تقلق. فليكن اهتمامك نصب الانتخابات فقط.

أنهى نيكولا اتصاله، وهو فِي الواقع لا يشغل باله تمامًا بالمجمع؛ فمنذ أسابيع قد تم الاتفاق على كل شيء، وحتى الآن الأمور تسير على ما يرام؛ فالوحيد الذي يمكن أن يغير مجريات الأمور يوستينوس، وهو الآن عميد المجمع، ولا يستطيع أن يترشح أو يرشح... لكن اللعبة التي يمارسها نيكولا خطيرة؛ فإذا لم يقم أيٌّ من الكاردينالات بدوره، فستنقلب الأمور، وذلك لن يكون فِي صالح أحد.

جلست الطالبة، وعاد الصمت ليخيم مرةً أخرى على المدرج، ليبدأ فاروق بالحديث قائلًا:

- حسنًا. لنذهب إلى البداية حيث لا شيء... حيث العدم والفراغ التام. والفراغ - طبقًا للنظرية الأثيرية - ليس فراغًا كما نعرفه... إنما هو مجموعة من الأجسام والأجسام المضادة التي يلاشي بعضها بعضًا، ثم تظهر، ثم تستمر إلى ذلك. ومن المعلوم أن لكل حدث سببًا. والحدث يكون ناتجًا وتابعًا، أي إنه يخضع فِي مكانة التبعية لمسببه. لذلك تكون الأفضلية أو القبلية للسبب أو المسبب لذلك الحدث... أرجوكم أن تركزوا فِي كلامي، ولا تستبقوا الأحداث... مرة أخرى أقول إن لكل حدث سببًا، والحدث يكون ناتجًا وتابعًا، أي إنه يخضع فِي مكانة التبعية لمسببه، أي إن التبعية ناتج، والقبلية مسبب. ولا وجود لكليهما - الحدث وسببه - بدون توفر المحاور أو الأبعاد الأربعة، وهم: الطول والعرض والارتفاع والزمن. ولكي يقوم المسبب بعمله فِي وقت معين ويصنع الحدث، أو بمعنى أصح لكي يجد الحدثُ مكانًا يحتويه، يجب توافر تلك الأبعاد الأربعة. وإذا ما سقط منهم بعد، فسدت العملية. إذًا نحن متفقون أن الحدث كي يحدث يجب أن تتوافر الأبعاد الأربعة. هل هناك أي اعتراضات؟

لم يأته رد، فأكمل حديثه:

- حسنًا لنكمل... أعتقد أنكم تعلمون أنه حتَّى الآن تُعد أكثر النظريات قبولًا لنشأة الكون هي نظرية البيج بانج أو الانفجار الكبير. وإذا ما أردنا أن نستدل على ذلك دينيًّا - حتَّى تطمئن قلوبكم؛ وذلك لا عَلاقة له بما أشرحه - فهذا فِي قول الله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَي أَفَلا يُؤْمِنُونَ) [الأنبياء - 30].

الرَّتق فِي المعجم هو مضاد للفتق.
رَتْق الشيء هو إلحامه ولصقه. و(رتقًا) هنا، أي إن السماوات والأرض مصمتتان لا فرجة بينهما.
أما الفتق فتعني الشق أو الفصل، وهنا تعود على الانفجار.
وبعد آلاف السنين، جاء أحد أعظم العقول التي خلقها الله، عبقري الفيزياء ستيفن هوكينج ليثبت نظرية الثقوب السوداء والانفجار الكبير فِي بحثه الأول عن التفرد أو السينجلاريتي.
وتنص النظرية على أن الكون فِي توسُّع دائم. وهذا قد ذُكر أيضًا فِي القرآن: (وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) [الذاريات- 47].
إذًا لو عدنا بالزمن لبلايين السنين، وعكسنا مبدأ التوسُّع، يكون وقتها الكون فِي أقرب وأصغر حالاته.
إذًا كما فرض هوكينج، فإن الكونَ ناتجٌ عن انفجارٍ من أحد الثقوب السوداء التي تجتمع فيها كميةٌ هائلةٌ من الكتلة فِي حيزٍ صغيرٍ جدًّا، حيث تتوحَّد المادة ومضادها، ويتفرد الزمان مع المكان، وهو ما يسمَّى السينجلاريتي أو التفرد؛ أي لا يوجد به ما يسمَّى بالزمن...
لنعُدْ للحدث وسببه... فانعدام أحد الأبعاد يؤدِّي إلى تغير المفاهيم، فبذلك يمكننا أن نتأكد من أنه لا قبلية ولا تبعية داخل ذلك الجزء المعتم الذي انبلج منه ضياء الكون؛ فالوقت متوقف بداخله... أي إن الزمان والمكان ومسببات الأحداث ونواتجها لم توجد بعد؛ ومن ثم فهي ستنتج عن الانفجار الكبير.
إذًا مَن أحدث الانفجار الكبير؟
تحرك فاروق، وهبط من أعلى المدرج ليواجه الطلبة ويقول فِي هدوءٍ تامٍّ:

- التفسير الوحيد والمنطقي يا طلابي الأعزاء هو أن الصانع له من القدرات ما يتعدَّى الحدود الفيزيائية والكمية التي نعرفها، وأنه متفرِّد بكيان لا نعلمه ويصعب إدراكه؛ فهو موجود لا يزول، وليس له وجودٌ كالفكرة. ولعل أصدق القول أن الايمان فكرةٌ، والفكرة لا تُخلق ولا تفنى، ولكن تتكون داخل العقل، وتظهر من العدم.

وهنا تتوقَّف حدود العقل. لكن كما كنت دائمًا أقول، إن العقل البشري لا يقبل التسلسل اللا نهائي... أي إنه إذا قلنا إن مَن خلق الله هو إله آخر، فمن خلق الإله الآخر. سنقول: إله آخر؛ وهكذا إلى الأبد!

لكن نظرية هوكنج للتفرُّد تثبت أنه لم يكن للتسلسل أيُّ معنى من قبل، كما قلنا إن الزمن لم يكن له وجود، ونعلم علمًا ليس يقينًا أن أول خلق الله كان القلم، ثم قال له: اكتب مقادير كل شيء... أي إن القلم كتب مقدار تكوين كل شيء، ومعادلات الكون كلها من حركة أجرام وجاذبية الأشياء وحتى المعادلات التي ندرسها اليوم والأسماء والجينات وعلوم الطب والهندسة وكل ما تتخيله قد كتب وخلق من عند الله بهذا القلم، بما فِي ذلك الزمان أو الوقت.

فهنا لا يصح أن أقول: ماذا كان يفعل الله قبل خلق القلم.

فلا قبلية ولا زمن.

الزمن نطاق أو فقاعة خُلقنا نحن فقط بداخلها، أو يمكن أن نقول إن الزمن مخلوقٌ من مخلوقات الله. إذًا المشكلة ليست فِي تفسيرات أو نظريات. المشكلة بيولوجية بحتة "داخل عقولنا"، وهي نتاج أن أدمغتنا قد تطورت ونمت على أن لكل شيء سببًا، ولكل صنعة صانعًا.

الحقيقة... أن أدمغتنا الصغيرة لا يمكن أن تتخيَّل وجودَ حدثٍ بدون سبب.

أعزائي طلابي... إن العيب لم ولن يكون أبدًا فِي السؤال. لكن العيب فِي طاقتنا الاستيعابية.

وأخيرًا قبل أن نبدأ المحاضرة، فإن محاولة فهم الكون صعبة بدرجة كبيرة لا تحتمل معها إضافة المزيد من الأسئلة إلا إذا كنت على قدرٍ كافٍ من العلم والإيمان والشجاع.

استدار فاروق، وعاد ليصعد ويواجه الطلبة، ويقول:

- محاضرة اليوم ستكون عن أهم الأبعاد... الزمن.

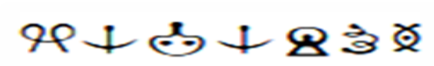
❋ ❋ ❋

خرج فاروق من الحمام بعد أن استحمَّ وارتدى ملابسه واستفاق من غرقه فِي استحضار آخر محاضراته عن الزمن. كم يستمتع بتلك الذكريات!

اتجه عائدًا إلى غرفة الشيخ الذي كانت علامات التوتر لا تزال ظاهرةً فِي كل أفعاله؛ فقد كان يذرع المكان ذهابًا وإيابًا معتقدًا أنه يفكر، لكن دون جدوى... تنبه الغرباوي لخروج فاروق، فطلب منه الجلوس، لكن هذه المرة على كرسي مكتبه الخاص، ووضع أمامه الوثيقة سائلًا بصوت هادئ:

- ماذا تشرب؟

شكره فاروق، لكن فضيلته صمم حتَّى وافق فاروق على أن يأتيه بالقهوة. والمدهش أن الشيخ خرج بنفسه ليحضرها، فعاد فاروق، وركز انتباهه على الوثيقة التي أمامه، ونظر مرة أخرى إلى العنوان الذي ما زال معناه مبهمًا لديه... ثم حاول التأمُّل فِي المعادلات...



مرت دقيقة طويلة، وفاروق لا يزال مستغرقًا فِي الرموز التي أمامه، والتي لا معنى لها تمامًا، بالرغم من أن المعادلات مشابهة لبعض التي درسها من قبل فِي إحدى محاضرات الفيزياء فِي جامعة عين شمس، وتطرقت المحاضرة إلى موضوعه المفضَّل والذي دائمًا ما كان يحبُّ أن يفتتح الكلام به لينهيه وهو يحاول إثبات نظرية النسبية الخاصة لأينشتاين... فكر فاروق بينه وبين نفسه كم هو غريب أنه كان يفكر فِي هذه المحاضرة منذ لحظات فِي حمام شيخ الأزهر!

دخل فضيلته ممسكًا بقدح قهوة، ووضعه أمام فاروق، وتوجه إلى النافذة وقد أعطى ظهره لفاروق دون أن ينبس محاولًا ألا يشتته... فعاد فاروق إلى الوثيقة أمامه مرة أخرى محاولًا معرفة تسلسل المعادلات، وملغيًا ماهية الرموز التي أمامه، وواضعًا فِي الاعتبار أنه من الممكن أن يكون صاحب الوثيقة قد شفر الرموز بطريقة عشوائية... ظل فاروق موجهًا نظره نحو الوثيقة دون أن يركز اهتمامه عليها... وسارت أفكاره بعيدًا عن السبب الجلي أو الغاية الكبرى التي جعلت الفاتيكان يرسل هذه الوثيقة إلى الأزهر... حاول جاهدًا إبعاد تلك الأفكار عن رأسه لكي يستطيع أن يتخذ ولو خطوة صغيرة فِي حل تلك المعضلة.

أخيرًا... أمسك فاروق الورقة والقلم من جواره، وبدأ فِي إعادة كتابة المعادلات بيده على أمل الوصول إلى شيء... لكن مرة بعد مرة دون جدوى، حتَّى بدأ صبره ينفد.

ففكر فِي أن يحول كل رمز للحرف الأقرب إلى شكله أو ما إلى ذلك، وبدأ فِي ترحيل الحروف إلى أقرب المعاني الممكنة مستخدمًا العديد من طرق التشفير حتَّى وصل به إلى الحال إلى تحويلها إلى أرقام ثم تقسيمها إلى أعداد مكونًا مجموعةً من الوحدات العشرية، ويعود ليحولها لرتبة أعلى لكي يقوم بكتابة ما

يناظرها من حروف، لكن دون جدوى. بدأت الأفكار تراوده أن هذه الوثيقة ما هي إلا خدعة من خدع الكنيسة لغرض أو هدف ما؛ وما يؤكد أنها خدعة، الرقم المكتوب أسفلها، فحاول أن يلتقط أنفاسه ويشرب القهوة، ولكن أثناء وضعه للوثيقة على المكتب، شعر بشيء غريب فِي ظهرها... فوضع راحته على الورق وهو يزفر نفسًا قد حبسه منذ لحظات، وإن بدت له كالدهر... لكنه شعر بشيء غريب اتسعت له عيناه، وقام واقفًا فجأة، ورفع الورقة أمام عينيه، وبدأ يتحسسها مرة أخرى بأصابعه...

لاحظ الشيخ حركة فاروق المفاجئة، فتوجه إليه... كان فاروق يتلمس الورقة كالأعمى، لكن ظلت حدقته تتسع أكثر وأكثر كلما سارت يده على الوثيقة... كان ورقها من نوع الدوبلكس الغليظ الناعم من جهة والخشن من الأخرى، وقد حُفر بها بعض المناطق لتظهر فِي الخلف وكأنها حروف حفرت بعيدة عن بعضها دون أن تكون كلمات. أعطى فاروق الورقة للشيخ، وأمسك بيده، ووضعها فوق الأحرف... صُعق الغرباوي بالطبع؛ فالوثيقة كانت بيده لفترة لا بأس بها، ولم يرَ تلك الحروف، وأيضًا تذكر ما جعل عقله يتجمد... تذكر آخرَ حديثٍ له مع البابا بعد المؤتمر عندما جلسا سويًّا. حدثه بينتولا يومها عن اكتشاف مذهل غير مجرى التاريخ، لكنه نُسب بعد ذلك إلى غير صانعيه... فقد جلس فضيلته بعد انتهاء البابا من خطابه ونزوله ليجلس بين الجموع للاستماع للجوقة الكلاسيكية لأوركسترا كراكوف، وكان الحديث يومها عن إنجازات الإسلام والمسلمين، وتطرق للتحوُّل الرهيب فِي فكر بعض المسلمين، وظهور بعض المتطرفين، وخاصة بعد أن لاحت كلمة (الإرهاب) على الأفق والتصقت التصاقًا وطيدً بالإسلام. وعندما كان البابا فِي خضم حديثه مع الشيخ، سأله سؤالًا مباغتًا بدا وقتها أنه عدواني بعض الشيء.

بينتولا: تخيل معي لو أن العالم بدون مسلمين... كيف تعتقد حاله؟

ضاقت عينا الشيخ دون أن ينطق، منتظرًا ومتأهبًا للهجوم الفوري:

فأردف قداسته: أوه عزيزي محمد... على رسلك... لست مناهضًا هنا. لولاكم ما كان هناك وجود للفيزياء العملية أو المحركات والمكابس ومعدات الجراحة وطواحين الهواء ونظم الترقيم والجبر. أتعلم... حتَّى علم الإنسان الآلي، أعتقد أن أول من وضع أساسه كان الجزري، والعديد من الاختراعات التي لا حصر لها. بدونكم ما كان العالم ليكون. وإحقاقًا للحق عزيزي، هناك العديد من اختراعاتكم نسبت إلى غير صانعيها، ولعل أشهرها طريقة برايل...

ابتسم قداسته عندما لاحت له نظرة الشيخ المندهشة، ثم عاد ليكمل حديثه:

- نعم عزيزي... أنا قارئ جيد.

علم وقتها فضيلته ما كان يقصده بينتولا بكلامه.

عم صمت مطبق على المكتب، وفجأةً صدرت صيحة قوية:

- الآن هناك خيط.

هكذا قالها الغرباوي لفاروق، وتوجه بنفسه، وأحضر ورقة بيضاء، وأخذ القلم الذي كان قد ألقاه فاروق فور صدمته، وأغمض عينيه، وابتسم كأنه يحلم حلمًا جميلًا، وبدأ يتلمس الحروف.

لم يفهم فاروق ما يحدث، لكنه اقترب من الشيخ أكثر ليراه يكتب حروفًا غير متشابكة. نظر الغرباوي لفاروق المندهش، وبدأ يحكي له عن حواره مع البابا، الذي تطرق إلى بعض اكتشافات واختراعات المسلمين المدهشة، وعن حديثه عن ذلك الرجل الأندلسي الذي كان ينطق بلغات كثيرة منها الفارسية والرومية والمغولية وكان يُدعى أحمد بن عبد الوارث، والذي ورد عنه فِي كتاب "التقريب لحد المنطق" للإمام ابن حزم ما ينص على إخباره مؤدبي ابن عبد

الوارث أن أباه وُلد له ولدٌ أعمى، فأراد أن يعلمه القراءة، فصور له حروف الهجاء من القير بشكل بارز، وجعله يتلمسها بأصابعه حتَّى علمها وحفظها بحسه وعقله. ثم ألمسه تراكيبها وقيام الأشياء منها، أي "الكلمات والجمل"، حتَّى قرأ الفتى بنفسه، وبذلك رفع عنه غصة عظيمة.

انتهى الغرباوي من حكايته، وعاد بقلمه إلى الورقة ليجمع بعض الكلمات... بعد فترة ليست بالقصيرة انتهى، ولكنه ظل واقفًا أمام ما كتبته يداه عاجزًا عن الكلام... تحرك فاروق ليأخذ منه الورقة، ولم يمانع الشيخ أبدًا.

كانت نتيجة عمله عبارة عن مجموعة من الجمل المرتبة بالشكل التالي:

حينما يزهرُ التوتُ والبرتقال
حين تَمتدُّ روح الجدة حتَّى حدودِ الخَيال
حينَ تخضرُّ عشبًا يغني شذاها
والشموس التي أرضَعَتها سناها
حين يخضرُّ حتَّى دجاها
يلمس الدفء قلبي فيجري دمي فِي ثراها
وستجدني أرقد بين ثناياها

نظر كلاهما لبعض دون أن ينطقا، وهز فاروق رأسه بأن ليس لديه أية فكرة عن حل هذا اللغز... لكن فِي نفس الوقت كانت أفكاره تنهش فِي كبريائه... فهو لم يعجز من قبل أمام أي معادلة، لكن ها هو الآن... غير قادر حتَّى على الاقتراب ولو لقبضة... وما قرأه للتو زاد الطين بلة.

لكن بدا وجه فضيلته من خلف ملامحه غريبًا، وكأنه يحاول العدو خلف أفكار كثيرة، ولا يمكنه اللحاق بأي منها... أخيرًا قالها الشيخ، وقد عرف فاروق على الفور الصراع القائم بداخله.

لم تكن الجراءة من شيمه، ولم يكن قط مقدامًا، لكن الأمور الآن تستوجب خطواتٍ مختلفةً وشاذةً عن كل الأفعال... عليه أن يكون قويًّا كما كان ماركوس... عليه اتخاذ قرار حاسم.

اقترب الغرباوي من النافذة، وهو يشعر بمعدته وكأنها ممتلئة بالأشياء. حاول أن يتنفس بهدوء، ثم نطق أخيرًا موجهًا حديثه إلى نفسه:

- نحتاج المساعدة؟

فاروق: تقصد فيزيائيًّا آخر؟

استدار فاروق ببطء ليواجهه قائلًا:

- لا... أقصد الكنيسة.

غُلقت الأبواب، وشُدت المتاريس، ليكون وحده الله نصب أعين المائة والعشرين كاردينالًا المرشحين لخلافة بينتولا، والذين تمَّ اختيارهم من مختلف قارات العالم، وكان لإيطاليا نصيب الأسد فِي عددهم بحكم أن البابا يكون أسقفًا على روما... لكن الأمور كانت محسومةً من البداية بالنسبة لنيكولا؛ فمنذ أشهر وهو يعد لهذا اليوم، وقد قام بعمل رائع مع الكرادلة المرشحين، وضمن أصواتهم هنا داخل المجمع، وسكوتهم خارجه، ويجب ألا تخرج الأمور عن السيطرة... هكذا زفرها نيكولا بعد أن فاض به الكيل، ولم يعد غبار الصبر يحجب جمر المؤامرة الرهيبة التي وقع بها الفاتيكان... بعدما ظل كثيرًا ينكر ويشكك فِي ما يعتقده من أمر بينتولا، بدأ الآن يعترف بالمشكلة.

فمنذ عودة بينتولا من رحلته فِي جنيف، لم يعد كما كان يعهده الجميع. أصبح دائمًا مشتت الذهن قليل الكلام. ويومها حاول نيكولا التحدث معه، لكنه رفض، وطلب أن يدخل خلوته، وبعدها فوجئ نيكولا بأن يوستينوس قد قطع على البابا خلوته، وظل يتحدث معه لما يقرب من الساعة.

مرت بضعة أيام. وذات يوم بعد الانتهاء من القداس الإلهي فِي أثناء مغادرة الجميع، أشار البابا لنيكولا طالبًا منه انتظاره... مشى البابا متجهًا نحوه، واستند بيده على كتف نيكولا، وقال له:

– سر معي.

ترجل كلاهما من رواق الكنيسة متجهين إلى الساحة، ليتوقف بينتولا ويوجه حديثه لنيكولا:

البابا: عزيزي نيكولا. أراك ضيق العطن... ما بك؟

نيكولا: لا شيء قداستك. أنا فقط أرى أنك منذ عودتك من جولتك الأخيرة

وأنت قد تغيرت على الجميع، سامحني حتَّى فِي هيئتك. أعتقد أن رحلتك تلك زادتك عمرًا على عمرك... وحتى الآن لم تفصح لأحد عمَّا كنت تفعله فِي زيارتك الطويلة بجنيف، ونحن هنا جميعًا نعلم أنك لم تمكث فِي قصر الأمم إلا بضع ساعات.

- آه يا نيكولا... كلامك حق؛ فكل جولة فِي هذه الحياة تزيدنا أعوامًا وأعوامًا من الهموم. ولو تعلم ما بالنفس، لشاب رأسك. نحن نمر بظروف عصيبة، ونفوذنا يقل عامًا بعد الآخر، وليست كل الأعين ترى، ولا كل الرؤوس تعقل...

- لا أفهم ما تقصده.

- الأكاذيب... الأكاذيب يا نيكولا قد تُعلي الهامات، وقد تهدم الأمم. أتؤمن بي يا نيكولا؟

- طبعًا... كما أومن بالمسيح.

- حسنًا، هناك أمور لا يمكن الإفصاح أو الحديث عنها مهما سولت لنا أنفسنا؛ وإني ليحزنني أن أخفي عليك ما بصدري.

عاد نيكولا يقول للبابا:

- ألا تثق بي؟

- بالطبع يا عزيزي. أثق بك، لكن الأمر لا يتعلق أبدًا بالثقة...

- إذًا ماذا؟

- الأمر فيما إذا كان عقلك وروحك قد شابا، ليريا الأمور كما أراها، أم ما زالت روحك فِي ريعان شبابها!

- لا أعرف... لكني قلق عليك وعلى الكنيسة.

ـ أعلم أنك تخاف على الكنيسة، كما أعلم أنك لست قلقًا عليَّ لكن دعني أقل

لك شيئًا. ستعرف بعدها إذا كنت جاهزًا لتسمع ما عندي أم لا.
- حسنًا... تفضل.
- إذًا... ماذا لو قلت لك إننا كائناتٌ مستضعفة، خُلقنا وهنًا، وأن الرب أرحم بنا من هذه الدنيا الهوجاء، وأنه لا ينتوي أن يعذبنا أكثر من عذابنا بها، وأننا لا ينبغي علينا أن ننسب إلى الرب القسوة. هل ستعارضني؟
- ... لا أعلم.
- إذًا عليه سأقول لك إنني لا أحبذ فكرة وجود الجحيم، وتؤمن نفسي أملًا بأنه ليس إلا شكلًا فلكلوريًّا أو تخيلًا زُيِّن فِي أعمال السلف، وقد تفننوا فيها فِي العذاب، وكان فِي ذلك تشويه لحقيقة الخالق... فالغفران الحقيقي يا نيكولا، لا يقتضي العذاب الأزلي، بل يكتفي بالعقاب.
ذهل بيلاجسيوس من كلام البابا، لكنه فِي داخله كان مؤمنًا أن ما يقوله، به شيء كبير من العقلانية. وقبل أن تبدأ أفكاره فِي مداعبة إيمانه الداخلي، تابع البابا كلامه قائلًا:
- أرأيت... كلها أكاذيب. حتَّى ما أقنعتك به الآن كذبة... فكما وجدت الملائكةأ خلقت المسوخ، وكلاهما جزء من القدرة الإلهية. وفي ملامح الشيطان قبل الملك، تتجلَّى عظمة الرب؛ وفي الوعيد قبل الوعد تتعظم القدرة.
تردد بلاجسيوس قليلًا قبل أن يقول:
- أتفهم ما تريد قوله قداستك... لكني لا أفهم إلى أين تربو بذلك.
- لا عليك يا عزيزي... فقط أحاول أن أشاركك بعضًا مما يدور فِي خلدي.
- إذًا فيمَ كان الهدف من رحلتك فِي جنيف...

صمت قداسته ولم يرد، وبدت الآن الحمامة التي ترفرف أمامه فوق الساحة مثيرة لاهتمامه، فظل يتابعها حتَّى حطت على كتف فابيولا الأرملة

الرومانية، وهو أحد تماثيل الساحة المائة والأربعين، وكان هذا التمثال من تصميم النحات لازارو موريلي. ذكَّره صوتُ جناحيها بصوت التابوت فِي جنيف، ولم يستطع لملمة ذكرياته التي رآها هناك.

وأخيرًا تحدث:

- فِي بعض الأوقات يا نيكولا، سيتوجب عليك أن تقف وتواجه الجميع من أجل فكرة ما، وحينها عليك أن تقف حتَّى وإن عنى ذلك أن تقف وحدك.

عاد صوت رفرفة أجنحة الحمامة يدوي فِي الساحة، فنظر إليها بينتولا وقال:

- أتعلم يا نيكولا أن الحمام رسول الأقدار... تمامًا كالمطر. ليس عليك إلا أن تخبره بأمانيك فِي صمت، وتنتظر.

قالها بينتولا، ثم غادر، تاركًا بلاجسيوس وحيدًا شريدًا فِي تيه أفكاره.

انسلَّ نيكولا من ذكراه، وتأمل المكان حوله، والآن قد أدرك الفاجعة التي ستلحق بالكنيسة؛ فقد علم للتو قبل الدخول إلى المجمع أن الأزهر قد استعان بأحد العلماء.

والوثيقة الآن فِي مرحلة الحل.

يجب أن يظل الأمرُ سرًّا حتَّى يتم حل تلك الوثيقة ومعرفة ما أخفاه بينتولا؛ لكن كيف وعملية الاقتراع الآن على وشك البدء؟ كم أنت أحمق يا بينتولا! سنضيع جميعًا، وتضيع معنا رسالة المسيح بسببك. ترى ماذا رأيت فِي رحلتك إلى جنيف، أيها السفيه أنت وأقرانك؟

تجلس وحيدةً. هشةٌ أفكارها، كرغيف خبز بدون خميرة. تتأمل همسات العشاق ونظراتهم التي تكاد تناطح السحاب. سيجارتها تنفِّس عن ضيقها. تتلفت. لا أحد يتابعها. تحرك يدها. تطالع أيدي العشاق. تضمها على اليد الأخرى. تمسكها جيدًا. تغمض عينيها... تنتبه لتلامس الكوب مع زجاج المنضدة، فترفع يدًا عن الأخرى. يسألها النادل:

- تحتاجين أيَّ شيء آخر؟

- طبق بيتيفور.

هز النادل رأسه، وغادر على الفور تاركًا الدكتورة لارا أليكساندر مشتتة بين تأمل حديقة جروبي الخارجية من خلف زجاجها، وبين قراءة أعين العشاق الجالسين أمامها لتتأكد أنه لا أحد يتابعها أو يراها. تُحرك يمناها وهي تطالع أيدي أحد العشاق، وتضمها على اليد الأخرى، وتمسك بها جيدًا، وتغمض عينيها للحظاتٍ... تواسي نفسها، وتأمُل فِي لقاءٍ قريبٍ يشفي لهيب قلبها...

لارا أليكساندر بروفيسيرة مزدوجة الجنسية من أم بريطانية وأب مصري من أحياء العجوزة. والدها طبيب جراح سافر للعمل بلندن وتعرف هناك على والدتها لوشيانا ماركوبوليس. تزوجا وعادا إلى القاهرة ليستقرا بها فترة من الزمن. نشأت لارا بها، وتلقت تعليمها فِي الفرانسيسكان، ثم سافرت لتكمل دراستها فِي جامعة كامبريدج، وحصلت على الماجيستير فِي التاريخ المسيحي واليهودي، وأصبحت محاضرةً هناك. هذا غير لقائها الشهري فِي مركز أكسفورد للدراسات العبرية واليهودية.

عادت للقاهرة منذ أشهر بعد انفصالها عن زوجها أندرو جراي بعد زواج دام سبع سنوات. سبع سنوات من الحياة العادية الرتيبة الآمنة بعض الشيء، تشوبها لحظات سعادة وأخرى تعيسة... كأي زوجين فِي الكون. ولكن

بدأت المشاكل تتراكم عليهما حتَّى لم تعد حياتهما تعرف الهدوء؛ فقد كان جراي من النوع اللامبالي، لا يحمل همَّ أيٍّ من المشاكل... فاقدٌ للقدرة على النقاش... ومن غبائها، لم تكتشف أنه غير قادر على تحمل المسؤولية... كم كان الله رحيمًا بهما، أنهما لم يرزقا بأطفال... عاشت لارا معه فترةً لا بأس بها... كانت سعيدة لوجود رجل فِي حياتها، لكن بعد فترة اكتشفت أنه فِي الحقيقة ليس رجلًا، وتحاملت من أجله حتَّى جاءت اللحظة التي كان هو ينتظرها. حينما جاءها عملٌ فِي أمريكا، وسافرت لمدة ثلاثة أشهر.

وبعد العودة من رحلتها، اكتشفت اختفاءه تمامًا، وتركه لها... ظلت تبحث عنه حتَّى علمت أنه هرب مع إحدى الساقطات إلى اليونان، والآن مر عام على رحيله، ولا تعلم أيَّ شيءٍ عنه... فعادت وحيدةً لتستقرَّ بمصر.

من المؤسف أن يكون حبُّ المرأة الأول لذكر لا يعرف عن الرجولة والتحمُّل والمسؤولية إلا مصطلحاتٍ يتغنى بها...

لا تعرف هل تكرهه أم تحبه... بداخلها مشاعر متضاربة تفتك ببعضها وبروحها... كلما تذكرته، شعرت بغصةٍ فِي حلقها... واضطرابٍ فِي معدتها... لكنها عاشت لحظات جميلة معه... أوقات كثيرة كان هو صانع الابتسامة الوحيد فيها... كان سعادتها... لكنه فِي النهاية كان هلاكها.

صدرت فجأة رنة من هاتفها المحمول جعلتها تنتفض فِي البداية مسحوبة من ذكرياتها، لكن إيقاع نغمة la vie en rose جعلها تستعيد مرة أخرى هدوءها.

نظرت إلى الهاتف أمامها على المنضدة لتجد أن المتصل رقم غير مسجل على هاتفها...

قررت أن تحوله إلى الوضع الصامت، خاصةً أنها وجدت النادل قد أحضر

البيتيفور، وهي الآن تريد أن تستمتع بشايها وبيتيفورها دون إزعاج.

وضع النادل الطبق، وغادر فورًا، لكن من الواضح أن المتصل مصمم على محادثتها... بعد العديد من الاهتزازات وارتفاع صوت حركة الهاتف على المنضدة، وبعد أن أصبحت عيونُ مَن حولها تتابع هاتفها الذي أزعج لحظات عشقهم، ونغص عليهم أشعارهم الزائفة التي كانوا يتغنون بها لبعضهم البعض، حتَّى تلك المرأة التي دخلت منذ دقائق بمفردها لتجلس وحيدةً على إحدى مناضد المقهى، وقد كانت ذات وجه طفولي صغير، وملامح غانية، وشامة صغيرة فِي يمين وجهها، وعينين واسعتين، وقوام لطيف ممشوق ليس بالرفيع ولا الرداد؛ بدأت هي الأخرى تنزعج من الهاتف... فلما لاحظتها لارا، قررت أن ترد.

- آلو... دكتورة لارا!

- نعم.

- أعلم أنك ستتعجبين من اتصالي، لكن فِي الحقيقة نحن فِي حاجة ماسة إليك الآن.

- من المتصل؟

جاءها الرد سريعًا، فاتسعت عيناها حد الاندهاش، وأجابت متسائلةً:

- نعم!

على بُعد حوالي ألفَيْ ميل من مكتب الغرباوي، بدأ دخان أبيض يتصاعد من الكنيسة السستينية، وظهر الاضطراب بين الجموع المحتشدة فِي ساحة القديس بطرس، والتي ظلت هادئة منذ انعقاد المجمع، وها هم الآن ينتظرون حبرهم الأعظم الجديد بعد أن حُسم الأمر سريعًا، ولأول مرة فِي تاريخ الكنيسة منذ أن انعقد أول مجمع، ووضعت طقوسه بدايةً من استدعاء الكرادلة عن طريق "الكاردينال الحاجب" الذي يشرف على عملية الاقتراع حتَّى الإعلان عن البابا. ومن المتعارف عليه أن الحاجب لا يحق له الترشح أو الترشيح.

ينعقد المجمع بالكرادلة فِي سرية وهدوء حتَّى يتم الاستقرار على البابا الجديد، وقد تستغرق تلك العملية أيامًا، وفي أحد المجامع ظلت عملية الاقتراع ما يقرب من ثلاث سنوات.

والخطوة التالية بعد النقاش تكون بترشُّح بعض الكرادلة، ويقوم التصويت فِي سرية وخصوصية فِي أوراق خاصة بكل كاردينال، وتوضع فِي طبق معدني لتُسلَّم إلى الكاردينال الحاجب. وبعد فرز الأصوات، يقوم بإحراق البطاقات مع إضافة بعض المواد الكيميائية لإعطاء دخانها لونًا. وعندما يحصل مرشح واحد على العدد المطلوب من الأغلبية، تتم إضافة بعض المواد الكيميائية ليتصاعد دخان أبيض. عدا ذلك، يضاف إلى الورق مواد أخرى ليتحول دخانها إلى الأسود، معلنًا عن أن الكنيسة لا تزال بدون أب، وحينها تتم إعادة الاقتراع مرة أخرى. وفي العادة لا يحصل أحد على أغلبية مطلقة من أول مرة. وعند عدم حصول أحد على الثلثين أو أكثر أو إذا كان العدد يقبل القسمة على ثلاثة، يحتاج وقتها الكرادلة إلى الوصول إلى قرار، وتغيير القوانين، والتخلي عن قاعدة الثلثين، وتتحول لقاعدة النصفين. فالذي يحمل نصف

الأصوات يحق له الترشح، ثم يتم بعدها الاتفاق عليه من الجميع. وإن لم يكن يقوم وقتها الكاردينال الحاجب بتعليق التصويت لمدة يوم واحد لتلاوة الصلوات، وبعدها يتم استئناف الاقتراع.

والآن وبعد أن تم الاتفاق على البابا الجديد، أحرق الكاردينال الحاجب يوستينوس ورق الاقتراع لتتصاعد منه الأدخنة البيضاء لتحرك أفئدة الجميع بداخل وخارج الساحة، وبدأ الهتاف يعلو ومعه ترانيم المحبة تنشد فِي أنحاء الساحة بانتظار الإعلان عن البابا.

أغلق الغرباوي هاتفه. ألقاه فوق مكتبه. ارتمى على كرسيه، ووضع وجهه بين راحتيه. زفر أنفاسه المكتومة حتَّى بدا له العالم بأسره قد صمت، والأصوات والضجيج القادم من الشارع قد تلاشى مع رياح أفكاره، وكأنها عصفت بأذنه، ولم يبق لتفكيره إلا أن يفقده بصره... ظل يفكر فِي مهاتفته لـ "لارا"، وهل كان ذلك استعجالًا أم هو صواب بعينه.

بدأ يداعب لحيته بيده، وفاروق لا يزال يحاول الوصول إلى شيءٍ من الوثيقة... وظل فاروق يقرأ القصيدة التي على ظهر الورقة مرات عديدة.

حينما يزهرُ التوتُ والبرتقال
حين تَمتدُّ روح الجدة حتَّى حدودِ الخَيال
حينَ تخضرُّ عشبًا يغني شذاها
والشموس التي أرضَعَتها سناها
حين يخضرُّ حتَّى دجاها
يلمس الدفء قلبي فيجري دمي فِي ثراها
وستجدني أرقد بين ثناياها

بعد قراءتها للمرة الخامسة، فقد فاروق أعصابه، وألقى القلم أمامه على المنضدة، واستند بظهره إلى كرسيه، ووجه كلامه للغرباوي:

- أشك فضيلتك أن هذه الوثيقة تعني شيئًا... الرموز كلها مختلفة، ولا معنى لها، ولم تستخدم من قبل فِي أيٍّ من العلوم التطبيقية... وهذه القصيدة لم أسمع بها من قبل. إنها ليست إلا خدعةً فضيلتك.

رد الغرباوي مستهجنًا:

- خدعة؟ ولِمَ يرسل بينتولا إليَّ هذا... انظر يا دكتور فاروق؛ أعرف أن ذلك قد يكون غريبًا على مسامعك... لكن ماركوس كان من أعز أصدقائي، ومنذ

عودته من جنيف قبل خمسة أشهر من الآن، أصبح قريبًا مني على غير العادة. وبالرغم من أن أحاديثنا كانت معظمها على الهاتف، إلا أني قد شعرت بتغيره فِي الأشهر الأخيرة، وأنا أثق تمامًا أن الأمر خطير.

قام الغرباوي من كرسيه، وسار ملتفًّا حول مكتبه حتَّى توقف خلف فاروق، وانحنى عليه هامسًا:

- ماركوس كان يعاني من اضطرابات فِي النظام الحركي، أو ما يقال عليه (باركنسون).

فاروق: شلل رعاش!

الغرباوي: نعم... وأنت تعرف أن لا علاج له، ولكنه كان فِي المراحل الأولى، ولم تكن حالته خطيرة. وغير ذلك، لم يكن ماركوس يعاني من أي اضطرابات فِي القلب.

تلاقى حاجبا فاروق، وضاقت عيناه، واستدار للغرباوي قائلًا:

- ماذا تقصد؟

ضغط الغرباوي على ضروسه للحظات، ثم نطق أخيرًا:

- أقصد أن بينتولا قد قُتل... وإن ما نحمله الآن هو دليل إدانة قاتله.

ظلت لارا للحظاتٍ تحدق فِي سقف المقهى بعد أن أنهت للتو حديثَها مع شيخ الأزهر، واتفق معها على لقائها بعد ساعةٍ لأمرٍ هامٍّ لم تعرفه حتَّى الآن. لم تستطع أن تتحكم فِي مشاعرها المتضاربة، فاستجمعت أفكارها، وقامت من مجلسها، وخرجت إلى الشارع لتوقف سيارة أجرة، وتطلب من السائق التوجه إلى باب الفتوح...

دخلت إلى السيارة، وأخرجت هاتفها لتقلب فِي رسائلها القديمة بينها وبين زوجها... كان يخبرها فيها أنه أنهى عمله باكرًا، وأنه فِي الطريق لاصطحابها فِي نزهة... عادت بذكرياتها ومشاعرها لذلك اليوم... كم تشتاق إليه... إلى لمسةٍ من يده... إلى ضحكة مرسومة على وجهها بسببه... كم تكرهه الآن لصنعه تلك الذكريات بداخلها، وهروبه منها.

تنبهت لارا أن السيارة قد توقفت منذ لحظاتٍ على الناحية الأخرى من سور القاهرة القديم، وهي ما زالت غارقة فِي ذكرياتها... ألقت نظرة خاطفة من بين المقعدين الأماميين لتلمح الأرقام المضيئة فِي عداد السيارة... وتخرج من حقيبتها مبلغًا لتعطيه إلى السائق، وتغادر دون أن تنطق... وما إن أغلقت باب السيارة خلفها، حتَّى أصبحت وحدها مرة أخرى، وعادت للغرق فِي أفكارها، وظلت تنظر حولها فِي شرود، ثم تنبهت أنها وصلت قبل الموعد بعشر دقائق...

فكرت بينها وبين نفسها... كيف لها أن توافق وأن تأتي بهذه السرعة دون التفكير فِي عواقب ذلك، أو ما الذي يمكن أن يحدث جراء هذا اللقاء، أو على الأقل ما هو سبب طلب شيخ الأزهر لمقابلتها... هل يمكن أن يكون لذلك علاقة بمقالها الأخير عن العنف الديني والتطرف اللاهوتي.

هل تضايق الشيخ من حديثها عن ملازمة العنف الديني للإسلام، وأنه ليس

حديثًا أو وليدًا على الدين، وأن غياب القبول بالرأي الآخر فِي الإسلام هو ما أدى إلى ذلك... لكنها عادت وقالت إن ذلك مستحيل؛ فهي فِي نفس المقال تحدثت أيضًا عن الديانات الأخرى... إذًا لماذا يريدها شيخ الأزهر، ولماذا على وجه السرعة كما قال؟

ترى ماذا يريد؟

- **هل** تقبل الانتخاب كحبر أعظم؟

- نعم.

- أي اسم تود أن يُطلق عليك!

- فرانشيسكو أوديتوري.

- إذًا فليعِنْك الرب؛ فهو من يضع العبء، ويختار له النفس، ويمنح لها القوة، ويمنع عنها الهوى... فلا تسقط تحت ثقل منصب، أو فِي قاع إغراء.

كان هذا يوستينوس محاورًا البابا الجديد، ومرددًا آخر كلماته منتظرًا الحرس أن يفتح باب المجمع استجابة للدخان المتصاعد من الكنيسة؛ فقد تمت العملية بسهولة لم يشهدها المجمع من قبل؛ فقد حصل أحد المرشحين ومن أول اقتراع على ثلثي أصوات المجمع، ودون أن يقاربه أحدٌ من المرشحين.

الآن يقترب الجميع لمصافحة وتهنئة الحبر الأعظم، وبدأت الأحاديث والهمسات الجانبية بين الكرادلة حتَّى سمعوا حركة السلاسل التي تتم إزالتها من على أبواب الكنيسة، ليُفتح الباب، وبذلك يكون المجمع قد انتهى.

توجه يوستينوس بالأوامر لتجهيز الزي البابوي والخاتم الخاص بالبابا. وتم سريعًا استدعاء الخياط والصائغ، وقد أودعت صناعة الخاتم لعائلة البورجيا، وأمر القساوسة بإعداد الأوراق الرسمية للكنيسة الكاثوليكية ليبدأ البابا الجديد فِي توقيعها.

وتوجه بعدها إلى غرفة البابا المطلَّة على ساحة القديس بطرس، وأمر يوستينوس كلًّا من القس جيوڤاني والقس أوليڤيتي أن يتقدماه. وما إن وصل حتَّى أمرهم بفتح الشرفة المطلة على ساحة القديس بطرس.

تنهد يوستينوس كثيرًا، وتخيل الجماهير الغفيرة التي تنتظر خروجه للإعلان عن شخص البابا الجديد، وتذكر وقتها حديثه مع بينتولا قبل وفاته

بأسبوع عندما كان يعاني الأخير من حمى شديدة، وطلب رؤيته وقتها، فذهب إلى حجرته. طرق فأذن له. وعندما دخل، اشتم رائحةً كرائحة زيت الورد البري الذي يعشقة بينتولا.

دخل يوستينوس، وقبل يد البابا، وقال له:

- لقد طلبتَ رؤيتي قداستك...

اعتدل بينتولا فِي سريره، وتأوه قليلًا، ثم أشار بيده إلى الكرسي المجاور السرير.

- اجلس يا صديقي. أريد أن أحدثك فِي أمر هام.

جلس يوستينوس، ولملم رداءه الفضفاض بين أرجله، وانحنى على قداسته معطيًا له أقوى انطباع بأنه مهتم بما سيقال، وقد كان فعلًا.

قال البابا:

- انظر يا يوستينوس. أنت تعرفني منذ زمن، ولا أريد أن تتبدل مشاعرك نحوي بعد أن أرحل؛ لذا عليَّ أن أضعك على نفس الطريق الذي وصلت لنهايته. هل أنت مستعد؟

- طاعتك غايتي يا أبي.

- فلتجعلها طاعة الرب... ذلك أفضل لنا جميعًا.

- حسنًا.

- سأسألك سؤالًا غريبًا بعض الشيء، لكن اعذر سني وجارِنِي.

- تفضل.

- ستتعجب قليلًا من السؤال، لكني حقيقةً أظل أفكر فيه ساعات طويلة.

صمت قليلًا، ثم تابع:

- تعتقد، ماذا لو أن هناك هواء بالخارج؟

تعجب يوستينوس وسأل:

- بالخارج أين؟

- خارج كوكبنا... خارج الأرض... ماذا لو أن هناك هواء؟ ألا يمكن أن تكون خدعةً توارثناها على مر الأجيال لنتعفن فِي هذا الكوكب؟

صمت ماركوس طويلًا، وترك ليوستينوس الحرية والمتسع ليفكر فِي السؤال، ثم ابتسم عندما علم ما يدور بخلد يوستينوس، وقال له فِي النهاية:

- تحدث... فرِّج عمَّا فِي صدرك.

- ولِم الابتسام قداستك؟

- لأني أعلم ما ستقوله... لكني أريد أن أسمعه منك.

- حسنًا... حتَّى لو فرضنا أن هناك هواء بالخارج، فأيدينا مكبلة لا نستطيع أن نفعل شيئًا حيال ذلك.

- أحسنت. هذا ما أريد الوصول له معك... أن هناك فرقًا كبيرًا بين أن يُتاح لك الخيار، وأن تتلخَّص اختياراتك فِي أمانيَّ مستحيلةٍ. إن هناك فارقًا بين أن يتم إغماء بصرك بإرادتك، وأن تكبَّل يداك رغمًا عنك. أنا يا عزيزي لم يكن لديَّ الخيار أبدًا... وها قد أتيحت لي الفرصة، وستتاح للعالم بأسره، وأنا أعلم أنها بي أو بدوني كانت ستأتي... وأنت هنا الآن معي، علَّنا نفعل شيئًا حيال ذلك؛ فالحياة لم تقف على أحدٍ ولن تقف.

- لا تقل ذلك يا أبي... الكنيسة بدونك لا تساوي شيئًا.

- لا يا عزيزي، إنها الحقيقة. ستستمر الحياة بعد ذهابي كما كانت قبل أن آتي إليها. ستظل ميكانيكية الكون تعمل شئنا أم أبينا... ستسبح الكواكب فِي فلكها، وستستمر الشمس فِي الشروق بعد رحيلنا، وأمواج البحر ستظل تلاحق بعضها حتَّى تصل للشواطئ حيث ضحكات الأطفال وهمسات العشاق وآمال الحالمين. ستظل المدن مزدحمة، وستبقى البيوت زاخرة... ستبقى

الشوارع كما هي والأرصفة لن تزول والأعمدة لن تنطفئ، ومجالس الليل ستظل عامرة بضحكات السامرين، وسيبقى الصخب سيد الموقف، ولن يصمت شيء برحيلنا... حقيقة قاسية... كرهناها أم لا؛ فهي حقيقة لن نستطيع أن ننكرها... نحن فقط من سنصمت... أنا وأنت وجميعنا لا شيء وسط هذا الكون الذي يعج بالحياة... نحن لن نصبح إلا ذكرى؛ فعلينا الآن يا عزيزي أن نعمل على أن نكون ذكرى حسنة. سنعمل على ألا نرحل كما أتينا.

صمت ماركوس حتَّى يلتقط انفاسه... علم وقتها يوستينوس أنه يربوا إلى شيء معين لكنه ما زال حائرًا.

هم يوستينوس ليتسائل لكنه عاد وراجع نفسه وفضل الصمت فِي انتظار المزيد من البابا

تحدث البابا أخيرًا:

- عزيزي يوستينوس. إني أمهد عقلك لطريق مغاير لما اتخذناه جميعًا من قبل؛ فأنت تعلم أني منذ أشهر كنت فِي سويسرا بناءً على طلب أحد أساتذة جامعة هارڤارد، وقد تقابلت معه فِي جنيف هو وثلاثة آخرين، وشهدت هناك طفرة ستقلب العالم رأسًا على عقب، وظللت من يومها فِي صراع حتَّى كاد التفكير أن يفتك بروحي، وحاولت أن أقنع نفسي أن ما رأيته ليس إلا سحرًا... لكنني بعد عودتي من المطهر، تجلت الحقائق أمامي، واختار قلبي طريقًا قد سلكه عقلي من يومها، وأنا الآن مستعدٌّ لمواجهة العالم، مستعدٌّ لأن أعلمهم أن هناك هواء بالخارج، وعلينا أن نحرر أنفسنا من عبوديتنا... أنا مستعد لمواجهة أي شيء بالخارج.

- لكن قداستك، إن الحياة تعج بالشرور، وأنت لا تعلم ما بالأنفس حتَّى تطلعهم على عهد جديد كما تقول.

- لا يا عزيزي... ليست كذلك... إن الشر موجود بداخلنا، وغرائزنا هي التي تخلق الشرَّ فينا. سأقول لك مثالًا شهيرًا... ماذا لو واجهك أسد فِي الغابة وهو جائع؟ بالطبع غريزته ستحتم عليه أن يطاردك ويفترسك، ووقتها - وهو آتٍ نحوك - لن تفكر فِي أنه من لحم ودم ومعدة خاوية تنتظر وجبة شهية... ستفكر أنه شر؛ وما هو بِشَرٍّ. الشر الوحيد يا يوستينوس هو أن تُلقي بنفسك فِي غياهب الجهل، وتتركها تغرق فِي دهاليزه... الشر الوحيد والمحتمل فِي هذه الدنيا، لا يمكن أن يجلبه أحدٌ عليك...

أنت شرٌّ لنفسك، ونفسك شرٌّ عليك... وأنا الآن - كما كنت أقول - وبعد رؤيتي لكسر العلم حاجز الصراع الأزلي بين الأديان، أستطيع أن أواجه أي شيء.

- حتَّى وإن كان الموت؟

- أفضل أن يكون الموت... الموت لم يكن قط شرًّا... وهنا تكمن السخرية. الحياة دائمًا مؤلمة، والموت لم ولن يؤلم عابريه... لكننا دائمًا نفضل الألم... الآن دعني أقص عليك ما رأيت، وعدني أن هذا السر لن يخرج إلا عندما يحين الوقت.

- أعدك بالطبع.

"سيدي سيدي..." .

تبدد المشهد من أمام يوستينوس سريعًا، ووجد القس جيوڤاني ينبهه أن باب الشرفة قد فُتح، وأن الجماهير فِي انتظار خروجه لكي يعلن عن الحبر الأعظم الجديد.

شهق يوستينوس ببطء، ثم زفر سريعًا، وخطا ثلاث خطوات حتَّى ظهرت الساحة من خلف سور الشرفة تعج بآلاف البشر، فأشار لهم بيده، ثم قال:

- أنوتشو... فويس جوديوم ماجنوم... هايموس بابام.

أمام باب الفتوح، توقفت سيارتان جيب سوداوان، وبداخل إحداهما شيخ الأزهر، وبجواره سائقه فِي بذلته السوداء، ونظارة رخيصة الثمن... شعر قصير ميري، وفك عريض، وحاجبان غاضبان دائمًا. وفي المقعد الخلفي، يجلس فاروق وفي يده بعض الأوراق البيضاء، وأعلاهم قد وضع الوثيقة، وأحكم قبضته عليها.

لاحظ فاروق على الناحية الأخرى من الطريق امرأة أربعينية ساحرة تقف هناك بجسدها المنحوت كالعاج... انحناءاتها تصيب النفس بالعذاب... حرارتها تصل إليه عبر الطريق، وتعلو قلبه كاللهيب. كانت تتلفت حولها دون وجهةٍ محددةٍ... استدار الغرباوي ليحدث فاروق، فلاحظ أنه يتابع بنظره شيئًا من خلف الزجاج، فتتبع الغرباوي خطَّ بصره حتَّى استقرت عيناه على المرأة فِي الجهة المقابلة... فقال سريعًا لسائقه وهو لا يزال ناظرًا إليها دون أن يلتفت إليه:

- إنها دكتورة لارا... اذهب وأخبرها أني فِي انتظارها هنا.

نزل السائق، وعبر الطريق، وتوقف أمامها... كانت لارا قد لاحظته وهو متجه نحوها، وما زال القلق هو الشعور العام المسيطر على تفكيرها.

وصل إليها السائق، وقال بهدوء مصطنع:

- دكتورة... إن فضيلته فِي انتظارك.

وأشار نحو السيارة فِي الجهة المقابلة:

نظرت لارا نحو السيارة، وترددت قليلًا، ثم أخيرًا قررت السير عندما فتح زجاجها، وأشار لها الغرباوي من الداخل... كان هو بالتأكيد، لكن دون عمامته وجلبابه... كان يرتدي قميصًا سماويًّا ونظارات طبية بيضوية كبيرة، لا تليق أبدًا بوجهه الصغير...

وصلت لارا إلى السيارة، ففتح لها السائق الباب الخلفي، ودخلت لتجلس بجوار فاروق، واكتشفت وجود أحد غيرها هي والشيخ فِي السيارة، ومن الواضح من هيئته أنه أيضًا أستاذ جامعي. وبالرغم من أن ذلك قد أراحها قليلًا، لكنها شعرت بالضيق لوجود أحد بجوارها يحدق فيها وهي لا تعلم ما عليها فعله أو قوله.

التفت لها الغرباوي قاطعًا الصمت:

- أهلًا دكتورة... آسف لإحضارك بهذه الطريقة.

فكر فاروق فِي قرارة نفسه أن الغرباوي قد قال هذه الكلمة حتَّى الآن مرتين، والله يعلم كم مرة سيكررها!

أكمل الغرباوي قائلًا:

- لكن الأمر هام جدًّا، ولا يستدعي التأخير.

قالت لارا:

- بالتأكيد أنت لا تتحدث عن مقالي الأخير.

- بالطبع لا... الأمر لا يخصك أبدًا أو يخص كتاباتك... ولكي لا أطيل عليك، ولكي أختصر المقدمات التي لا فائدة منها معك، فإن الأمر يتعلق بالأزهر والفاتيكان.

- ماذا تقصد؟

أشار الغرباوي لفاروق كي يعطيها ما بيده، فمدت يدها له، ثم قال لها الغرباوي وهي تتسلم الوثيقة:

- هذه الوثيقة قد أرسلها إليَّ بابا الفاتيكان ماركوس بينتولا قبل وفاته، ولا نعلم ما فحواها حتَّى الآن، ولا نستطيع فك رموزها أو حتَّى معرفة معنى عنوانها.

نظرت لارا قليلًا إلى الورقة ثم قالت:
- اعذرني... لا يمكنني مساعدتك؛ فأنت بحاجة إلى فيزيائي لحل تلك المعادلات.
قال الغرباوي:
- آه... آسف. نسيت أن أعرّفك، دكتورة لارا... دكتور فاروق بركات أستاذ الفيزياء بجامعة عين شمس.
مدت لارا يدها لتصافح فاروق، وما إن تلامست أيديهما، حتَّى شعرت برعشة طفيفة. إن يده باردة جدًّا.
ظلَّا صامتين قليلًا حتَّى قال فاروق:
- أعرف فيم تفكرين. هكذا يقولون دائمًا...إن يديَّ باردتان دائمًا.
ابتسمت لارا رغمًا عنها ثم عادت لتنظر إلى الشيخ وتقول:
- إذًا، لِمَ الحاجة إليَّ؟
قال الغرباوي بثقة:
- كما كنا نقول أنا والدكتور فاروق، إن الرموز هنا تم تكويدها بطريقة ما، ولا نستطيع الوصول إلى حلها.
تعجب فاروق، وابتسم من أن شيخ الأزهر قد استخدم بثقة لفظ تكويد، وهو منذ ساعة لم يكن يعلم ما معناه.
- وكيف لي أن أقوم بذلك؟
أخرج الغرباوي من جيبه ورقةً قد طبع بها القصيدة التي كانت فِي ظهر الوثيقة، ثم أعطاها لها قائلًا:
- نعتقد أن الحل هنا.
فضت لارا الورقة، وتأملتها وقرأت:

حينما يزهرُ التوتُ والبرتقال
حين تَمتدُّ روح الجدة حتَّى حدودِ الخَيال
حينَ تخضرُّ عشبًا يغني شذاها
والشموس التي أرضَعَتها سناها
حين يخضرُّ حتَّى دجاها
يلمس الدفء قلبي فيجري دمي فِي ثراها
وستجدني أرقد بين ثناياها

صمتت قليلًا حتَّى انتهت من القراءة، ثم قالت:

- إنها من قصيدة "بعد الصلب" لبدر السياب، التي كانت تحكي قصة المسيح؛ وهذا الجزء يحكي عن أسطورة تموز.

أنهت حديثها، ونظر ثلاثتهم لبعض، وعم المكانَ صمتٌ مطبقٌ.

بين تماثيل الساحة الستة والتسعين التي كان أغلبها لـ "جان لورينزو بيرنيني"، بدأ الصياح يعلو عندما خرج يوستينوس بردائه الأحمر القاني وغطاء رأسه والصليب يزين صدره، فاتحًا ذراعيه، وقد أمسك أحد القساوسة من على يمينه بميكروفون، والآخر يحمل كتاب الميثاق، ثم بدأ يوستينوس من جوارهم فِي التحدث باللاتينية قائلًا:

- أبشروا... فقد أصبح لديكم بابا جديد.

وتابع كلامه بعد لحظات عم فيها الصخبُ فِي الساحة من أمامه:

- نيكولا بلاجسيوس... فرانشيسكو أوديتوري حبركم الأعظم.

زادت التهاليل مرة أخرى فِي الساحة، لكنه تركهم وعاد خارجًا من غرفة البابا سائرًا فِي الرواق حائرًا حتَّى قابل ذلك الباب من على يمينه ففتحه، ووجدها هناك قابعة فِي هدوء كما تركها بينتولا، فعادت به ذكرياته ليومٍ بدا وكأنه مرَّ منذ دهور.

في ذلك اليوم، وبينما كان يمر فِي الردهة متجهًا إلى غرفة البابا، سمع عزف بينتولا على الهارمونيكا الزجاجية، فطرق الباب مرةً واحدةً للتنبيه، وسمح لنفسه بالدخول دون انتظار إذن، حتَّى لا يقاطع عزفه...

الغرفة كما عهدها يوستينوس دائمًا بحوائطها السكرية الهادئة ولوحاتها العتيقة وأثاثها العريق البسيط والهارمونيكا الزجاجية فِي مكانها متوسطة الغرفة. لكن الآن يستكين بينتولا أمامها.

جلس يوستينوس على أحد المقاعد منتظرًا البابا حتَّى ينتهي من سوناتا "ديڤلز تريل" أو هزة الشيطان لتارتيني. عرفها يوستينوس على الفور؛ وقد اختلفت الأقاويل والأساطير المتعلقة بهذه المعزوفة، لكن كلها اجتمعت على الصفقة التي عقدها غوسيه تارتيني مع الشيطان.

وتقول الأسطورة إنه فِي يومٍ ما استيقظ تارتيني على حلم غريب؛ فقد حلم أنه يعقد صفقةً مع الشيطان نفسه، ويهبه نفسه ليكون خادمًا له، وفي المقابل يطلب منه تارتيني ما يشاء. فِي الحلم تأمَّل الشيطان كمان تارتيني، وطلبه منه. ظل تارتيني يبادل نظراته بينهما دون أن يسلمه له، حتَّى اقترب منه الشيطان، وأخذ الكمان بنفسه، وبدأ يعزف مقطوعةً غاية فِي الروعة والجمال – كما قال تارتيني – وأضاف يومها أنه لم يستمع لمثلها من قبل، وأسماها هزة الشيطان، وحكى بعدها أنه عندما استيقظ ساوره شعور غريب أجبره على تدمير كمانه وعدم العزف مرة أخرى؛ فقد وصل بمعزوفته تلك إلى الكمال... وكما يقال عنها، فإنها المعزوفة الملعونة التي جلبت الموت إلى صاحبها... فهناك قصة تقول إن تارتيني قد صُلب وأعدم حرقًا عندما علم الناس بالصفقة التي أبرمها مع الشيطان.

أنهى بينتولا عزفه، ثم نظر مبتسمًا إلى يوستينوس، وقال:

– هات ما عندك.

ابتسم يوستينوس حتَّى أفلتت منه ضحكة.

– بالتأكيد تعرف ما أريد... أريد أن أعلم أولًا سرَّ حبك للهارمونيكا.

– حسنًا، هذا سؤال جيد لكنه متأخر قليلًا... إن سر حبي لهذه الآلة هو الألم... الألم يا يوستينوس كما يخرج أسوأ ما فينا، قد يخرج أفضل ما لدينا.

– اعذرني قداستك... لا أفهم ما تعني.

– حاول أن تعزف عليها دون أن تبلل يدك، وستفهم ما أعني.

– حسنًا... هل يمكن أن أسأل عن شيء آخر.

– بالتأكيد.

- ... إني أتعجب دائمًا من سر عزوفك عن الترانيم، وعشقك للموسيقى، وأتعجب أكثر لقرارك فِي دعوة أوركسترا كراكوف إلى هنا.

لم تختفِ الابتسامة من وجه بينتولا، بالرغم من أن الكلام قد مسَّ شيئًا بداخله جعله يشعر ببعضٍ من الضيق. ولكنه دائمًا ما كان يحب يوستينوس. كان يرى فيه نفسَه وهو شابٌّ عندما كان الطموح يملأ روحه الصغيرة.

تحدث البابا أخيرًا:

- انظر يا يوستينوس. إن فِي الترانيم كلماتٍ تُردد، وفي الكلمات حروف تُنطق. وما تراكيب الحروف إلا لجام للمشاعر... تحرك الفؤاد كما تشاء، فتحزنك تارةً، وتسعدك أخرى. لكن الموسيقى يا صديقي مركب، يبحر بك فِي بحور المشاعر لترتوي مِمَّا تشاء وتترك ما لا تريد.

- ودعوة الأوركسترا... ألا تخاف حديث البعض؟

- أخاف! نعم. لكن أبدًا لا تحدثني عن ردود الأفعال؛ ففي ترانيمهم قيودٌ، وفي نغمي حرية.

- يا لها من شجاعة أن تواجه العامة بما لديك من أفكار ولا تهاب حديثهم.

- الشجاعة يا عزيزي لم تكن قط غيابَ الخوف. الشجاعة هي أن تتخذ خطواتك أنت وخوفك يدًا بيد.

- وهل هذا هو السبب الوحيد لدعوة الأوركسترا إلى هنا؟

- بالطبع لا... هناك سبب آخر؛ لكن دعني الآن أحتفظ به لنفسي حتَّى عودتي من المطهر.

- كما تشاء قداستك... لكني أراك مهمومًا منذ عودتك من جولتك الأخيرة.

- ليس فقط منذ عودتي من جنيف، إنه همي الدائم منذ الأزل. أتعلم ما هو؟

- لا.

- أخاف ألا يسامحنا الربُّ على أخطاء أجدادنا.

يوستينوس: وما لنا بهم؟

البابا: لقد نسينا ما فعلوه ومحوناه من تاريخنا.

يوستينوس: للكل أخطاؤه، وللبعض أعذاره، ولولا التناسي لما كان لنا ما لدينا الآن من نفوذٍ وقوةٍ.

- حسنًا، أنت تعلم جيدًا أن هدفي لم يكن نفوذًا أو قوةً كمعظم من جاؤوا... همي الأوحد كان تعزيز الإيمان؛ ولهذا دائمًا كنت من محبي جحيم دانتي؛ فقد كان سببًا فِي تقرُّب الناس إلى الرب فِي أوقاتٍ كانت فيها التوحيدية المسيحية تبعدهم عن الدين، ولم يرهبهم وقتها مبدأ:

It’s a sin to disagree

بل نفَّرهم، وزاد من كرههم للكنيسة.

- صحيح... لكن الخوف أمر طبيعي.

- نعم. لكن الخوف من الخوف نفسه يكون فِي أوقات كثيرة أشدَّ فتكًا بالروح. دعني أفرِّق لك.

صمت قليلًا ثم تابع:

- دائمًا يا عزيزي ما كان من المتعارف عليه أن فوبيا المرتفعات هي الخوف من الوجود فِي الأماكن المرتفعة... لكنها ليست كذلك أبدًا... إنها فوبيا الخوف من السقوط من تلك الأماكن... وأنا دائمًا ما كنت أخشاها. أخشى السقوط من ذاك الارتفاع... نعم يا عزيزي. لا تندهش. هناك فارق كبير... فارق بين أن يوقفك شيء تعيه وهو أمامك، وأن تسلسل بشيء من خلفك لا تراه... بين أن تدرك خوفك وترى ما يعجزك وأن تخاف على نفسك من الخوف نفسه كما كنت أقول... قد لا تفهم مغزى كلامي الآن، لكن سيأتي اليوم الذي تعلم وتتعلم

فيه أن الخوف مركب يجب العبور به حتَّى لا نغرق فِي بحور الندم؛ فالخوف لحظة، والندم دهر، وإن كان علينا أن نتغاضى عمَّا حدث سابقًا ولا نخاف من عاقبة الأمور، فعلينا ألا ننسى؛ فإن من المهم للإنسان أن يتناسى بعض الشيء كي يعيش ويكمل حياته... لكن لكي يظل إنسانًا، عليه ألا ينسى...

- أعرف... لكن الواقع الآن مغايرٌ تمامًا.

- لا يا عزيزي. إن الشيطان ذو عقل بليد... لا تختلف طرقه وأساليبه على مرِّ العصور... لكن كما قالوا قديمًا، فإن التاريخ يثبت دائمًا أننا لا نتعلم منه... والخلاص موجود وحقيقي، لكنه هناك بالخارج، ونحن نحاول إنكاره. لكن تظل الحقيقة قابعة أمام أعيننا ونراها، لكن نرفض إبصارها.

- عن أي خلاص تتحدث قداستك؟

- ستعرف... لكن ليس الآن. الآن إن لم نعترف بخطايا من سبقونا ونطلب الصفح، فلن نجد من سقوطنا مفرًّا.

قال يوستينوس متعجبًا: سقوطنا؟!

قام بينتولا، وسار حتَّى توقف أمام باب الشرفة وقال:

- إن الجينات تتغير يا عزيزي، والتطور يطول كلَّ شيء الآن. وعلى عكس الفصائل الأخرى، دائمًا كنا الكائنات الوحيدة التي تهتم بماضيها... لذلك كنا أعلاها رتبةً.

- صحيح... لكننا لا نزال أعلاهم.

- صدقني... لم نعد.

استدار بينتولا ليوستينوس، لكنه لم يعد موجودًا بالغرفة...

يوستينوس فقط يقف أمام الهارمونيكا الزجاجية وحيدًا شاردًا.

ـ **تموز** أو دموز... أصل الاسم بابلي سومري، ومعناه: "الابن البار" أو "الابن الوحيد". والحقيقة الأقرب أنه يعني: "الابن الذي بُعث من جديد". وبعيدًا عن قصة تموز وعشتار الفاتنة، التي تحكي مقتله ونزول عشتار للبحث عنه حتَّى أدميت قدماها - ويقال إن فِي أثر دمائها قد نبتت شقائق النعمان - ثم وجدته أخيرًا فِي العالم السفلي، فقبلته وعاد على إثر قبلتها إلى الحياة. ولعل هذا ما قامت عليه إحدى قصص الأطفال... "الملاك النائم".

أسطورة تموز ترتكز على جوهر عبادة الإله الذي عاد من الموت... وهي القصة التي لاقت قبولًا عند جميع شعوب العالم القديم. الشخص الذي يموت ليعود بعدها منتصرًا على الموت، ويبعث من جديد لينعم بالخلود الأبدي. ولعل من هنا جاءت تسمية الشهر السابع فِي الشهور القبطية بهذا الاسم؛ فهو الذي يعيد الحياة للأرض بأشجارها ونخيلها وفيضانات الأنهار فِي ذلك الوقت. واختلفت مسميات الأسطورة باختلاف الحقب والحضارات. عُرفت عند الفراعنة والصينيين والبابليين مع اختلاف الشخصيات، لكنها تظل أسطورة رب الشفاء المسؤول عن البعث والحياة من بعد الموت.

وهذه القصيدة كتبها شاعر عراقي، وأسماها: "المسيح بعد الصلب"، وهي قصيدة طويلة تجمع بين الحكايتين.

توقفت لارا للحظات، ثم افترش وجهَها الاندهاش، وقالت:

- لكن ما لاحظته هنا أنها ليست كما كتبها "السياب" وكما أذكر أني قرأتها!

رد الغرباوي:

- ماذا؟ لا، هكذا وصلتنا.

امتصت لارا شفتيها قليلًا، ثم نطقت:

- عفوًا سيدي... لكن القصيدة الحقيقية لم تذكر أي "جدة"، ولكن كانت تتكلم عن "جيكور".

تطلع بعضهم لبعض دون أن ينطق أيٌّ منهم.

أخيرًا قالت لارا موجهةً كلامها لفاروق:

- هل قلت إن الرموز تلك مشفرة وغير مفهوم معناها أو لغتها؟

رد فاروق:

- بالفعل.

- أتذكر أن هناك رواية أو أسطورة بابلية أقدم من حكاية موت تموز وبعثه... تحكي قصة ما قبل لقائه بعشتار، ومحاولات الزواج منها. وبعض الأساطير تقول إن تموز كان راعي أغنام، أو أن هذا الراعي هو شخصٌ آخر يُدعى إنكي، وليس هو تموز نفسه، وهو من أفشى سرهما إلى أخيها أتو. ولكن لن نعرف أبدًا أي هذه القصص حقيقي؛ لكن الأسطورة الأقوى كانت تحكي عن راعي أغنام بسيط، يومًا ما قابل إينانا أو عشتار ملكة الجنس والجمال، فتملكت قلبه من أول وهلة، فما كان منه إلا أن ذهب إلى أخيها أتو "إله الشمس" ليطلب يدها. وقد كان أتو حكيمًا وعلى علم بحب عشتار لذلك الراعي. وعندما فكر، وجد أن في رفضه للأمر معاداةً لأخته، فأظهر لها موافقته، وقال لها أنه يحتاج إلى بعض التفكير... ثم بدأ في البحث عن طرق للتخلص من ذلك الراعي، لكن عشتار لم تكن فقط بالغة الجمال، لكنها كانت متقدة العقل شديدة الذكاء، وعلمت أن أخاها يراقبها ويراقب مراسَلاتها مع تموز، فاخترعت وقتها وسيلةً للاتصال بتموز دون أن يعلم أخوها. ولغضبها منه ورغبةً في السخرية من تفكيره، استعانت برموز سماوية وأجرام وشموس، وحرفت أشكالها للتواصل مع معشوقها، واختفت تلك اللغة بمقتل تموز قبل أن يعود مرة أخرى من الموت

ليعيشا سويًّا دون تشفير أو خداع؛ وأعتقد أن هذه هي الطريقة التي كُتبت بها هذه الوثيقة.

- إذًا، هل يمكنك القيام بترجمتها؟

كان هذا الغرباوي متسائلًا.

- دعني أحاول. أحتاج إلى ورقة وقلم.

أخرج فاروق من جيبه قلمًا، وأعطاها إياه، وبدأت فِي رسم جدول، وفتحت هاتفها، وبدأت فِي البحث على الإنترنت عن كتاب معين، وبدأت فِي نقل الرسمات بداخله، لتملأ الجدول الذي أمامها بتلك الرموز.



ومن بعدها بدأت فِي وضع حروف الهجاء فِي ترتيبها. وبعد أن انتهت، عادت إلى الوثيقة لتنظر إلى العنوان وتراجعه مع الحروف التي قد رتبتها. وما إن انتهت من الكتابة حتَّى قالت لهم بصوتٍ هادئٍ لم يخلُ من الحماسة والدهشة:

- حسنًا، أعتقد أن ترجمتي صحيحة.

سألها الغرباوي:

- كيف عرفتِ؟

- للكلمة المترجمة معنًى...

قالتها وابتسمت، ثم تابعت:

- **ذا لازاروس**.

كان عقل يوستينوس لا يزال مشتتًا؛ فهو لم يُنه حديثه قط مع البابا، ولم يعرف حقيقة ما رآه... لكنه كان دائمًا وأبدًا يعرف أن هناك بداخل بينتولا - على عكس معظم البشر - يدور صراع بشع... يمزق أحشاءه، وينهش فِي عقله... وذلك ليس من وقتٍ قريبٍ، بل منذ الأزل؛ فيوستينوس ما زال يذكر أول لقاء بينهما عندما قابله خارج أسوار الڤاتيكان، وكانوا وقتها فِي فلورنسا مسقط رأس بينتولا، وقد عرفهما على بعض القس أوبارتينو دي فيرينزي.

وقد قال أوبارتينو يومها أن كلًّا منهما سيستمتع بالحديث مع الآخر. وبعد تبادل التحيات والتجارب والحكايات، تطرق النقاش يومها إلى مصير الكنيسة والمسيحية على الأرض. وبدا ليوستينوس وقتها أن ماركوس لم يكن ليهتم بالمسيحية قدر اهتمامه بالإنسانية وخلاص البشرية. ولاحظ أنه يتجنب الحديث عن بعض الأمور المحورية فِي الدين، وعلم يوستينوس من كلامه أنه مشتت فِي بعض الأمور، فحول مسار الحديث بكل أدب وهدوء وقتها إلى توجهات العالم والصراع الدولي والحروب العرقية والطائفية والإرهاب الديني فِي الشرق الأوسط.

ضحك وقتها بينتولا عندما سمع فكرة الإرهاب الديني وتخصيصه لبعض الأديان عن الأخرى، وقال:

- فِي الحقيقة يا صديقي إننا ضللنا جميعًا، وأذنبنا فِي حق أنفسنا وفي حق بعضنا البعض.

- ماذا تقصد؟

- أعني أن كلامي قد يكون غريبًا وصادمًا... لكني وفي لحظة حديثي معك الآن، لا أفضل أي دين على آخر.

بانت علاماتُ الدهشة والصدمة على يوستينوس، وقال:

- كيف ذلك؟

- أعرف أنها أول مرة نقف فيها ونتحدث سويًّا، لكنها لن تكون آخر مرة، فاعذرني واستمع ولا تتعجب، ومن ثم احتفظ بكلامي لنفسك...

صمت قليلًا، ودارت عيناه فِي الغرفة، وعادت لتستقر فِي عيني يوستينوس، وقال:

- أنا كما أعشق المسيحية، فإني أحب اليهودية والإسلام، لكني أبغض ما هم عليه الآن؛ فما يتبعه المسيحيون الآن لم يكن قط من تطويبات المسيح... وما عليه اليهود لا يمت بصلةٍ لنواميس موسى... وما يفعله المسلمون الآن ليس به شيء من أخلاق محمد...

- إذًا هل تقول لي أنك تعترف بهم جميعًا؟

تنهد قليلًا ثم قال:

- انظر... الأمر ليس كذلك... إن الأديان الرسولية الثلاثة يا عزيزي دعت إلى عبادة كيان واحد؛ الرب أو يهوه أو الله... واجتمعت على مبدأ واحد، لكن الآن كلهم بلا استثناء قد ضلوا السبيل... فترى اليهود يعبدون الأرض، والمسيحيين يعبدون النفوذ، والمسلمين يعبدون المال. وما يثير السخرية أن كلًّا منهم يمتلك ما يسعى إليه ويبغيه الآخر! فاليهود يمتلكون النفوذ، والمسيحيون يمتلكون المال، والمسلمون يمتلكون الأرض.

- اعذرني فِي سؤالي يا صديقي... لمن تتلو صلواتك؟

- للصانع، الخالق، الموجِد... سمِّه كما تشاء؛ فله أسماء عديدة، ولكن وجه واحد... فأنا أسعى علَّني أصل إليه فِي النهاية.

- وعلى أي طقس تتعبد؟

ابتسم بينتولا وقال:

- على طقسي الخاص.

***

- لازاروس!

قالها شيخ الأزهر مرتين، وهو ينظر إلى لارا، ثم سألها:

- هل تقصدين ليعازر؟

قالت لارا:

- بالطبع... بالرغم من أن الأناجيل ذكرت قيام وبعث ثلاثة أشخاص بواسطة المسيح، إلا أن كلها تغاضت عن ذكره... ولم يذكره إلا يوحنا... وأعتقد أن ذلك حدث لأنه كان لا يزال حيًّا عندما كتبت تلك الأناجيل؛ فقد كان فتنةً تسير على الأرض... لكن مهما تحاكت الأساطير، لا يزال ذلك أهم وآخر ما حدث للمسيح قبل صلبه.

قال فاروق مقاطعًا:

- لا أفهم ما تتحدثون عنه.

فنظر الشيخ للدكتورة لارا وكأنه يطلب منها التوضيح... فأدارت وجهها إلى فاروق الجالس بجوارها، وبدأت تقصُّ عليهما حكاية ليعازر أو لازاروس أحد أصدقاء المسيح.

أسرة فقيرة من مدينة "عنيا" - أي العناء أو الألم - فتحت بيتها للسيد المسيح، ونشأت صداقة قوية بين ليعازر ويسوع. ويومًا ما اشتدَّ المرض بليعازر، وأرسلت أخته للمسيح ترجوه أن يأتيه ليراه... لكنه كان مسافرًا. فلما أتاه المسيح فِي اليوم الرابع كان قد مات... وحزن حزنًا شديدًا عليه، ولم يحتمل

بكاء أخته وأمه، فطلب منهما أن تقوداه إلى قبره... ولما وصل إليه، أمر رجاله أن يفتحوا القبر... فقالت الأخت وقتها:

- لقد أنتن يا أبتِ... فله ثلاث ليالٍ.

فطمأنها بمسحةٍ على رأسها، وأشار إليهم مرةً أخرى بإزالة الحجر وفتح القبر، فسمعوا كلامه على الفور.

وكان جسد ليعازر قد أنتن فعلًا، فصدرت من القبر رائحةٌ بشعةٌ، وابتعد الجميع عنه ممسكين أنوفهم، ومحاولين الوصول إلى هواء نقي... لكن المسيح اقترب منه، وأمره بالنهوض... فدبت الحياة فِي جسده، لكنه كان مقيد اليدين والقدمين، فجلس مكانه رافعًا يده طالبًا تحريره، فهرع الجميع نحوه غير آبهين بالرائحة، وارتمت أخته عن قدميه، وبدأ أحد الرجال فِي فك وثاقه، وقام من بعدها ليعازر، وسار فِي الأرض بعد حين. ويُذكر أن ليعازر هرب إلى جزيرة قبرص، ثم انتخب رئيس كهنة "مطرانًا"، وهناك توفي مرة أخرى بعد ثلاثين سنة. ولا يزال قبر ليعازر الأول لميتته الأولى موضوعًا فِي بلدته "بيت عنيا" قرب القدس التي تحمل حتَّى اليوم اسمه، وتُدعى بالعربية: "العيزرية". وقبره الثاني لميتته الثانية فِي لارنكا بقبرص. وهكذا اقترن اسم ليعازر بالبعث من الموت، والحياة بعد الفناء.

أنهت لارا حديثها. وبالرغم من تعجب فاروق واندهاشه من ذلك العنوان، إلا أن باله كان لا يزال منشغلًا بمحتوى الوثيقة، فسألها على الفور:

- إذًا هل يمكنك أن تفعلي نفس الشيء لرموز الوثيقة الآن؟

ردت لارا:

- بالطبع... لا توجد مشكلة.

لكن فاروق تذكر شيئًا هامًّا، فقال بصوت يملؤه الإحباط:

- لكن لا يزال علينا العثور على باقي الوثيقة.

لارا: - ماذا تعني؟

أخبرها فاروق أن ما بيدها ليس إلا إحدى ورقاتٍ من وثيقةٍ غير مكتملة، وأشار بيده إلى أسفل الورقة حيث يقبع حرف الـ "ص" وبجواره الرقمان 43... فنظرت لارا نحوه، وسألت:

- إذًا أين الباقي؟

رد عليها شيخ الأزهر قائلًا:

- لا نعلم. هذا ما وصلنا ولقد...

فجأةً أصابه شلل تام، واتسعت عيناه فِي رعب، واقشعرَّ بدنه وكأن صاعقة من السماء نزلت على نخاعه الشوكي، وظل فاغر الفم معقود اللسان، وبدأت صور الموتى المبعوثين تتجلى أمامه، ولاحت فِي أفق خياله نيران تضطرم فِي الأرض، وتأكل الأخضر واليابس، ولم يستطع أن يمنع عقله من التفكير فِي الأهوال التي قد تعود عليه وعلى البشرية من ترجمة هذه الوثيقة.

قال فاروق: ماذا؟ لقد ماذا؟

حاول الغرباوي استعادة هدوئه، لكن دون فائدة. فقال وقد أصاب رعبه حنجرته، فخرجت منه الحروف تائهة متبعثرة:

- لا توجد أوراق أخرى. إنها لا تعني الصفحة الثالثة والأربعين.

قالت لارا مستعجبةً:

- إذًا ماذا تعتقد أنها تعني؟

تبادل الغرباوي النظرات مع فاروق، وتابع:

- كم كنا عميانًا! كم كنا حمقى!

صمت قليلًا يفكر وينظر خارج السيارة، ثم قال:

- لكن كيف؟! كيف لنا أن نفكر فِي ذلك؟ كيف لنا أن ندري أنك تتحدث عن إحدى حكايات الكتب السماوية؟!

يا لك من عجوز ذكي يا بينتولا.

في أرض الموعد، وبين تلال الزعتر كان يعدو حاملًا سلة من الخبز والزيتون، وفي يده الأخرى صولجان ينتهي بصليب مالطا الذي اتخذه فرسان الهيكل شعارًا لهم، وهو صليب أشبه بنجمة رباعية الشكل أو زهرة متفتحة. وفرسان مالطا أو فرسان الهيكل أو فرسان المعبد مهما اختلفت مسمياتهم عبر العصور لكنها تشير إلى جماعة أو رابطة واحدة، أو فِي الحقيقة فرقة عسكرية صليبية، أو جماعة دينية محاربة شاركت بقوة وضراوة فِي الحروب الصليبية، وأصبح لها كيان متفرد فِي جزيرة رودوس، ثم احتلت طرابلس فِي ليبيا... وكانت البداية فِي جزيرة مالطة حيث تأسست تلك الجماعة، لكن لم تكن تعرف بأي من أسمائها تلك، بل كانت تسمَّى جماعة فرسان يوحنا أو فرسان القديس يوحنا - وذلك نسبة إلى يوحنا الأورشاليمي - أو فرسان الاسبتارية، أي اسبتارية يوحنا التي كانت قائمة على رعاية الحجاج. ولعل شعارهم الآن الذي تتخذه المصحات والمستشفيات عائد إلى ذلك. ولعل كلمة (أوسبيتال) دليل على البداية الجيدة لهؤلاء الفرسان. ويشاع أن فرسان ملطا أو فرسان رودوس هم فِي الأصل جماعة قد انبثقت من الجماعة الأم الكبيرة والمشهورة باسم فرسان المعبد والتي كانت لها شهرة أيام الحروب الصليبية، وهي غير منظمة مالطة ذات السيادة التي تأسست كهيئة خيرية من قبل بعض التجار الإيطاليين عام 1050 لرعاية الحجاج "المسيحيين" فِي الأراضي المقدسة.

ومع أن تنظيم الفرسان اختفى منذ العصور الاستعمارية وحروب الجياد، ولم يعد أحد يسمع عنه بعدما استقر بعضهم فِي روما والبعض الآخر فِي أمريكا، إلا أنهم عادوا بقوة فِي أوائل القرن التاسع عشر، وعقدت منظمات الفرسان الصليبية اجتماعًا فِي جزيرة مالطة فِي أوائل القرن، وقد كان ذلك الاجتماع هو

الأول من نوعه، منذ نَفْي بونابرت لهم، وبلغ عدد الحاضرين حوالي سبعمائة، معظمهم من القساوسة ورجال الدين المسيحي من جنسيات مختلفة.

واعتبر الفرسان الصليبيون المجتمعون هذا اللقاءَ شرارةَ إحياء تلك المنظمة الكاثوليكية ذات الأصول الصليبية، حتَّى إنهم قرروا بعد جولة واسعة فِي القلاع والقصور والتحصينات التي أقامها أسلافهم لتصفية الحسابات مع المسلمين فِي الماضي، التفاوضَ مع الحكومة المالطية لاستئجار واحدة من تلك القواعد فِي ميناء "فالتا" العاصمة ليتخذوا منها مركزًا لنشاطهم وقد كان.

كان يعدو وقدماه تحملانه كسيفٍ يرمح بين ثنايا أضلع صدور المحاربين، وكانت هي هناك فِي انتظاره عند البئر. أشعة الشمس تتسلل من بين سعف النخل على وجهها بحياء. جميلة كملاك متمثل فِي هيئة بشر. بياض وجهها مزين بحمرة رائعة. عيناها لا تخلوان من لمعة الحب العفيف... تكاد ترى من حولها هالة من الدفء. أنفاسها تحيي أموات النباتات، وابتساماتها تعيد للقلب دقاته وتلأم صدوعات الروح، لكنها قد تفقد العقل رجاحته. وعلى يديها يرقد طفل رضيع يحاول الوصول بيده إلى وجهها.

اقترب منهما أكثر، ونظر فِي ملامح الطفل... كان ذا وجهٍ مستديرٍ أبيض، وعيونه بندقية واسعة، وابتسامته تملأ الكون...

وما إن دنا منهما وابتسم للطفل، حتَّى ظهر الامتعاض على وجه الطفل على الفور، وبدأ فِي البكاء. حاولت الأم أن تهدئ من روعه، وتهادت بيدها يمينًا ويسارًا به، فتوقف عن البكاء، وحرك رأسه باتجاهه، وقال له بصوت يشوبه النحيب: "ملعون".

صُدم نيكولا من حديث الطفل فِي المهد، وتراجع إلى الخلف. سقطت السلة من يده، وغرق الخبز فِي الرمل، وانتشرت حبات الزيتون على الأرض

كعقد أسود. حلت الغيوم واسودت السماء واختفت الشمس وحل ضباب الغضب حاملًا معه هواء الصقيع. انتشرت من فوقهم كراغل وحشية وليليثات مجنحة وهجاريف. وعلى الأرض من حولهم، حاصرتهم لاميات وقناطير بشعة الهيئة. ومن داخل البئر بدأت أيادي كراكن عظيم تتسحب من خلفهم لتمسك بكل منهم، وسقط الطفل من يد أمه، والتقطته إحدى أيادي الكراكن، وتحول الطفل إلى رجل كهل، وظهرت له أجنحة كأنما نمت مع نموه، وطار بعيدًا نحو السماء لتختفي الغيوم، وتهرب كل المخلوقات، ومعها انخفضت أيادي الكراكن لتضع المرأة على الأرض مرة أخرى. وفجأة تحولت إلى حمامة، وطارت فِي السماء مع ابنها، وتابعها هو حتَّى علت فوقه، ثم جاء سرب كبير من الحمام، وتغوط على وجهه، فحاول اللعن والسب، لكن لم يكن له لسان، فرفع يده، لكن لم يكن له يدان أيضًا. وجد نفسه فِي غرفته وهو مشلول فِي سريره وعيناه مثبتتان برعب على سقف غرفته، وبها شبح وجه لم يره من قبل، وبالرغم من أن ذلك الوجه يبدو مألوفًا. الا انه لم يتعرف عليه! اختفى ذلك الشبح ذو الوجه المستدير والرأس الأصلع والجبهة الكبيرة والحاجبين المتداخلين، وبدأت الإشارات تتحرك من جديد من عقل نيكولا إلى أطرافه، وعاد إليه الشعور بجسده.

ذلك آخر كوابيس نيكولا قبل وفاة البابا بأسبوعين... و هى كل حين تُعكر عليه ذكراه و واقعَه، ولا يزال يطارده فِي أحلامه، لكنه يطرده بكل سهولة، وساعده فِي ذلك ضميره... ضميره الذي قد مات... أو لم يمت كما كان يقول بينتولا. إن الضمير لا يموت لكنه كرقعة القماش البيضاء تظل تشع بنورها ليلدغ الروح بمرارة، وتظل مرارة اللدغ تقل كلما تدنست الرقعة، حتَّى ولو بالأخطاء الهينة. ويظل الدنس ينتشر فيها حتَّى يختفي اللون الأبيض تحت

وطأة سواد الآثام ويتحول الضمير إلى كائن شره يقنع صاحبه بغاية خطاياه العظمى.

وها هو نيكولا الآن يستعد للخروج للجماهير، وهو مقتنع بأنه خليفة القديس بطرس فِي الأرض، وأنه يد الرب فِي الأرض وملاكه الثائر، وأن ما يفعله بغاية استئصال شر الخطاة. وردد بينه وبين نفسه أن الغاية تبرر الوسيلة؛ فمنذ أن وضع هذه النظرية نصب أعينه وهو يبرر لنفسه أفعاله مهما كانت.

خرج نيكولا ليحيي الجماهير محتضنًا الساحة بيده، وقد أصابت جسده قشعريرة إيمان زائفة ليزداد اقتناعه برسالته. قال محدثًا نفسه: عليَّ أن أحمي الهضبة مهما تطلب الأمر، وإن كانت تلك الغاية تجبرني على أن أفتح صندوق بندورا. فالدجال يجوب أروقة الكنيسة بيننا.

قالها مقنعًا نفسه ومبررًا لها أفعاله؛ فبعد شجاره الأخير مع بينتولا، توجب عليه أن يتخذ أفعالًا قاسيةً؛ فبعد خطاب بينتولا الصادم فِي حفل الأوركسترا الذي تمت إقامته داخل الكنيسة السستينية، عندما تحدث عن التشابهات الدينية بين الأديان، والعنف الديني المسيحي غير المبرر، وحروب الكنيسة مع العلم، واضطهادها للعلماء، وحماقتها فِي التعامل مع مختلف التطورات العلمية، وتحدث يومها باستفاضة عن الدور السلبي والعائق الكبير الذي لعبته المسيحية الأولية فِي التطور العلمي، وضرب مثالًا على ذلك جاليليو جاليلي الذي كان مدافعًا عن نظرية كوبرنيكوس التي نصَّت على مركزية الشمس، وحوكم وقتها واتهم بالهرطقة لأن الكنيسة تبنت وبقوة النظرية الأولية اليونانية التي وضعها أرسطو. ووضح أن الكنيسة فِي كثير من الأوقات قد تجنبت إبداء الرأي فِي أمور علمية مثبتة، وفضلت البقاء على الحياد. تابع

بينتولا بعدها الحديث مشيرًا لاحتياج الكنيسة إلى توجُّه جديد... توجُّه يتبنَّى العلم... يجعله غاية للوصول إلى الرب وليس ندًّا للإيمان المطلق.

بعد انتهاء الحفل، توجه نيكولا نحوه محاولًا إثارة حنقه قائلًا:

- لا أذكر أن المسيح كان مازحًا، ولم يردني أنه ضحك قط.

علم وقتها بينتولا أنه يستهزئ بخطابه، ويقصد أن كلامه يثير الضحك، لكنه ردَّ فِي هدوء:

- أراك تخلط بين الحق والباطل كعادتك.

- أوه... أبي... اعذرني؛ فأنا الذي أرى أنك لم تعد تميِّز بين السفسطة والكلام الموزون. وحديثك يذكرني بهزليات القدماء التي كتبها الوثنيون لتسلية الخطاة وإضحاكهم وإلهائهم عن التوبة... وكما قلت لك، أنا لا أذكر أن المسيح قد ضحك قط.

- أتريد حقًّا التطرُّق لهذا الموضوع؟

- ولم لا؟ أتعارضني فِي ذلك؟

- بعيدًا عن استهزائك بخطابي، وبالرغم من أنه من الأولى أن أحدثك عن ذلك، لكني أعجب من معارضتك لفكرة أن المسيح ضحك.

- الضحك داء الروح.

- بل دواء القلوب.

- الضحك يعبث فِي جسد الإنسان ويشوه وجهه ويهدم وقاره ويحوله لحيوان.

ابتسم البابا بشدة وقال:

- عزيزي نيكولا... الحيوانات لا تضحك... وبالرغم من أني أشاركك فِي أن كثرته داءٌ، لكن كرياكوس قال إن الضحك غير مقبول للوقار، لكنه ضروري لكي تحس أنك إنسان.

- دعنا لا نغُصْ فِي ذلك.
- أنت من طلبت.
- لكنه لم يكن اهتمامي... لا أنشغل بهزل المسيح الآن. ما يشغلني الآن هزلك وهرتلتك فِي خطابك.
تحولت ملامح البابا، وتحرك نحو نيكولا، ثم أشار بإصبعه فِي وجهه حتَّى لامس أنفه، وقال:
- نيكولاااا... لا تجعل خوفك على دينك يعميك وينسيك مكانتك أو مكانتي... لعل حلمي وصبري هما ما جعلاك لا تزال تقف أمامي الآن... لكن لا تخلق بداخلك فكرة أنك قد تخاف على الدين أكثر مني... والآن اغرب عن وجهي.

***

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّه أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (42) وَوَهَبْنَا له أَهْلَه وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (43)﴾.
أنهى الغرباوي كلامه خاتمًا بـ (صدق الله العظيم).
ارتسمت علامات الدهشة على وجه كل من فاروق ولارا... ولاحظ الغرباوي ذلك، فلاح على وجهه شبح ابتسامة، وبدأ الحديث عن النبي أيوب وابتلاء الله له.
ففي سهل حوران، وعلى بعد أميال من شواطئ بحيرة طبريا، عاش النبي أيوب. ويقال إنه لم يمتلك أحدٌ فِي الأرض مثله إلا سليمان، حيث كان يمتلك العديد من المواشي والأنعام والعبيد والأراضي الواسعة. وكما ورد فِي كتاب ابن

كثير، فقد كانت أرض الثنية فِي بلاد الشام ملكًا له، كما أنعم الله عليه بالكثير من الأبناء، إلا أن سبحانه وتعالى أراد أن يختبر صبر أيوب عليه السلام، فابتلاه بداءٍ فِي جسده أسقم كل أعضائه، ولم يبق منها شيءٌ سليمًا إلا قلبه ولسانه، كما أنه فقد أبناءه جميعًا، وخسر أمواله كلها والأراضي التي كان يمتلكها. فقدها وذهبت بلا عودة، وتحول أيوب الرجل الشديد القوي الغني إلى رجلٍ ضعيفٍ واهنٍ لا حول له ولا قوة، وهجره كل من حوله، ولم يعد لديه من الواصلين أحد لا أقارب ولا خلان. لم يبقَ له سوى زوجته التي كانت له رفيقة صالحة وامرأة بارة، عكفت على رعايته طيلة فترة مرضه، وتحملت الجوع ونقص المال، حتَّى إنها عملت فِي خدمة الناس بمقابل مادي لكي تستطيع أن تطعم نفسها وزوجها، وظل عليه السلام يعاني مع المرض وفقر الأموال طوال ثمانية عشر عامًا. وبالرغم من تلك الشدائد والمصائب التي حلت به، إلا أنه لم يتوانَ عن حمد الله، وازداد فوق الصبر صبرًا، إلى أن أصبح "أيوب" يضرب به المثل فِي الصبر ليقال "صابر صبر أيوب". ولما اشتد عليه الحال ولم يعد يقوى على شيء، تضرع إلى ربه، ودعاه كما ورد فِي سورة الأنبياء: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّه أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)، وفي سورة ص: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّه أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) صدق الله العظيم.

عندما لجأ النبي أيوب عليه السلام إلى الله سبحانه وتعالى وتضرع له طالبًا منه الرحمة، استجاب له وأمره بأن يقف فِي موضعه، ويضرب الأرض بقدمه، لتظهر له عين من تحته، ثم أمره الله أن يغتسل من المياه النابعة منها. وعندما نفذ أمر الله تعالى، خرج من بدنه كل ما ألمَّ به من أذًى طيلة تلك السنوات، ثم أمره مرة أخرى أن يضرب الأرض ثانية فِي مكان آخر، فاستمع أيوب لأمر ربه، وقام بضرب الأرض فِي المكان الذي أمر به، فأخرج من مكان الضربة نبعًا بعين

أخرى. فأمره الله هذه المرة بأن يشرب من مياهها، فخرج من باطنه كل الألم الذي كان يشعر به، فعادت له صحته وعافيته من الباطن والظاهر. ويقال إن ثروته وأولاده قد عادوا إليه أيضًا.

أنهى الغرباوي قصته، وأضاف:

- وكما كنت أقول، فقد ورد فِي الآية رقم 43 من سورة "ص" أن الله سبحانه وتعالى يقول: "ووهبنا له أهله"، وهذا ما كان يقصده بينتولا.

فاروق مقاطعًا:

- يقصد ماذا؟

الغرباوي: لو عدنا للتفسير فِي هذه الآية، فسنجد أن التأويل قد اختلف فيها بين المفسرين؛ لكن ابن كثير قد أقرَّ بأن الله قد بعث له أولاده بعدما ابتلاه بموتهم، وأعادهم من القبور، وهذا ليس على الله بعسير.

لم يرد أيٌّ من فاروق أو لارا، فتابع الغرباوي:

- ألا ترون؟ إن بداية الوثيقة تذكر ليعازر، والقصيدة تصف أسطورة تموز، وها هو يختمها بقصة أخرى من قصص البعث... أعتقد أن حدسي كان سليمًا، وقد حدث ما كنت أخشاه.

لارا: - حدسك! ماذا تعني؟

- لا يهم... ما يهم الآن عملك أنتِ والدكتور، لكي ندحض الشكوك. علينا الآن أن نجد مكانًا هادئًا بعيدًا لنجلس فيه، وتقوموا بحل هذه المعادلات والتوصل إلى ما تشير إليه.

- حسنًا، ولكن عليَّ أن اقوم أولًا باتصال هاتفي.

***

غادر نيكولا ممتعضًا، تاركًا بينتولا وقد اتخذ قراره النهائي نحو خطوته التالية.

من الڤاتيكان خرج متوجهًا إلى كنيسة سان جيوڤاني أن لا تيرنو، وهي واحدة من الكنائس الأربع الرئيسية البابوية فِي مدينة روما، والتي يقوم الڤاتيكان على حراستها وخدمتها، وليس للشرطة الإيطالية أي علاقة بها، وتعامل معاملة السفارات الأجنبية فِي روما، وتندرج تحت لائحة التراث العالمي من قبل اليونسكو. بنيت فِي القرن الرابع على أرض تعود لعائلة لا تيران، ولذلك سُميت نسبة إليهم. وقد انعقدت خمسة مجامع كنسية بها فِي قرون سابقة. عُقد فِي الكنيسة عدد كبير من المجامع الكنسية، وسميت أيضًا باسم المجمع اللاتراني. أما تصميم الكنيسة، فالواجهة الرئيسية من صنع أليساندرو غاليلي، وتتكون من طابق علوي يؤوي بداخله أقواسًا. وعلى قمتها يستقر أربعة عشر تمثالًا، يتوسطهم تمثال للمسيح يحمل صليبًا. بنيت الكنيسة فِي أواخر القرن الثالث، وعادت لترمَّم فِي عهد كليمنت الثامن. ويرى الزائر فِي وسط الجناح المذبح البابوي الذي رُمِّم حديثًا فِي خمسينيات القرن الثامن عشر. وفي نهاية أروقة الكنيسة يتوسط المكان المصلَّى بمراسم التعميد، وفي وسط ساحة كنيسة سان جيوڤاني توجد مسلة مصرية يعود تاريخها إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

دلف إلى الداخل، وأمام المذبح وجده راكعًا يتلو صلواته... شاب ثلاثيني أصلع ضخم يرتدي جلبابًا من الكتان يشبه رقعة قماش مهترئة. إنه جوليانو دي بيتزي أحد رهبان الكنيسة الذين قد تم تعيينهم هنا بتوصية من نيكولا نفسه... كان جوليانو أحد المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام... تم إيداعه سجن أليساندريا بشمال إيطاليا، ويومًا ما، وعلى غير المعتاد، استيقظ فِي

محبسه على زيارة... وقد كان ذلك غريب العهد على جوليانو؛ فقد عاش دائمًا كغصنٍ وحيدٍ منكسرٍ ألقت به الرياح فِي مهالك الدنيا... لكن عندما وصل إلى غرفة الزيارة المنعزلة التي لا تحتوي إلا على أربعة حوائط صماء يكسر لونَها الرماديَّ بابٌ حديدي، ويتوسطها منضدة وكرسيان، زالت شكوكه، وعلم أنهم قد عجلوا بموعد إعدامه؛ فقد كان الزائر قسًّا...

أشار له زائره بأن يجلس، ولاحظ وقتها الرعشة فِي يد جوليانو، فبدأ حديثه قائلًا:

- بني... هل أنت خائف؟

لم يرد جوليانو، وقد ضم يديه لبعضهما، وأراحهما على المنضدة ليخفي رعشة أصابعه التي أصابته بسبب التهابٍ مزمنٍ فِي الأعصاب.

احترم نيكولا صمته وتابع: حسنًا... أعتقد أنك لا تعرفني. أنا الكاردينال نيكولا بلاجسيوس... مدير مكتب الشؤون العامة للفاتيكان، وبالتأكيد ليس لديك أي فكرة لم أنا هنا؟ أليس كذلك؟

قالها وهو يرفع حاجبيه متسائلًا، وكأنه يتلاعب بأعصاب الفتى.

هز جوليانو رأسه نافيًا، وبدأت صورة القس تتلاشى من أمامه، وظهر من حوله المنزل الهادئ فِي أحد أرياف مقاطعة كومو لومباردي حيث نشأ جوليانو فِي كنف أمه جريتا أجنولو التي كانت متعلقة به وبدينها فقط. وقد كبر جوليانو، وصار فتًى ذا خمسة عشر عامًا متدينًا قريبًا من أمه. لم يكون أي صداقات من أي نوع... ظل متعلقا بأمه "جريتا" وبحكاياتها وقصصها له قبل النوم التي كانت دائمًا وأبدًا ما تقص له حكايا عن الثواب والعقاب وغفران الرب وابتلائه لأحبابه فِي الأرض وخلاص يسوع للصابرين... من هنا تحول البيت بالنسبة له إلى كل شيء؛ مكان جميل يبعث بداخله الطمأنينة والراحة. أما

حين يتأخر الوقت، فتتعلق عيناه رعبًا بساعة الحائط المعلقة أعلى الباب؛ فكلما اقتربت الثانية عشرة، اقترب معها حضور شياطين والده السكير الذي كان على العكس تمامًا من والدته المتدينة القريبة دائمًا إلى الله.

ظل يعمل كسائق حافلة صغيرة لنقل البضائع من فواكه وخضروات حتَّى فقد سيارته بسبب المقامرة والشراب، وأصبح يخرج من المنزل فِي الظهيرة، ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، غاضبًا ناقمًا على الحياة وعلى زوجته التي لا حول لها ولا قوة فيما فعله بنفسه؛ فهي تعمل فِي المنازل المجاورة، وتجالس الأطفال، وتصنع الطعام لتبيعه، وتحاول بقدر المستطاع أن تكفي ابنها وبيتها.

لكنه بالرغم من كل ذلك حين يصل إلى المنزل يبدأ العراك معها على الأموال، وينتهي الحال بأن يأخذ منها كل ما يستطيع أن يجده ليقامر به ويشبع رغباته الكحولية والدخانية... وكانت "جريتا" تتجنب دائمًا لقاءه بابنه؛ فما إن تسمع صوته وهو يحاول جاهدًا إيقاف رعشة يده لإيلاجه مفاتيحه فِي الباب، حتَّى تقوم مسرعة بالإشارة لجوليانو لكي يتوجه على الفور إلى غرفته، ويغلقها على نفسه، وتجعله يقسم ألا يخرج منها مهما حدث... وظلت عادة... جوليانو يدخل ويجلس بغرفته وهو يبكي مستمعًا إلى صراخهما. ينتفض جسده عندما يسمع أنينها وهي تحاول كتم أنفاسها، ووالده يضربها حتَّى لا تسمع ابنها... وكان جوليانو دوامًا يسأل والدته لماذا يحدث ذلك لنا؛ أوليس الرب معنا. كانت ترد وتقول بأن الرب لا يضيع الحقوق، ولا يهمل فِي عاقبة الأمور أبدًا، وأنه مهما طال الوقت فسيرسل ملائكة العذاب لتقتص من الآثمين... وكلما ذكرت أمه ملائكة العذاب، تخيلَهم أمامه بحجم كبير وأجنحة ضخمة وأيادٍ تحمل سلاسل وعصيًّا. وبالرغم من هيئتهم الجميلة التي كان يتخيلها، إلا أنه

كان يعلم بداخله أنهم عندما يغضبون ويحين وقت العقاب يكشرون عن وجوه الشياطين، ويحملون الرعب للنفوس بنظراتهم...

ظلت الفكرة ملتصقة بعقل جوليانو حتَّى صار فِي الخامسة عشرة من عمره.

فِي ذلك اليوم، تحولت حياته وانقلبت رأسًا على عقب، ولم تعد الدنيا هي الدنيا التي عرفها مع أمه.

عادت صورة القس لتظهر مرة أخرى أمام جوليانو وهو يتحدث معه. قام جوليانو من مكانه، واتجه إلى نهاية الغرفة، وجلس على الأرض، وانكمش صامتًا.

قام نيكولا من كرسيه، وتوجه نحوه، وركع على ركبتيه، وأمسك بوجهه، وقال:

- يا بني لا تخف. أنا هنا لأن الرب أرسلني إليك... أنا خلاصك.

لم يأته أي رد من الفتى، فتابع:

- انظر يا جوليانو... لقد رأيتك منذ أيام فِي أحلامي... حاملًا سيفك، وممتطيًا جوادًا أبيض، تطعن تنينًا هائل الحجم لتزيل بطعنتك الغيوم التي تملأ السماء، وبعد ذلك شهرت سيفك فِي السماء، وصرخت باسم المسيح لتظهر من بين السحب أشعَّةٌ من النور تلاشي ظلام حلمي.

التقط جوليانو أنفاسه التي فقدها منذ لحظات، ونظر له متعجبًا لكنه لم ينطق.

تابع القس:

- ألا ترى يا بني؟ لقد اختارك الربُّ دونًا عن سائر خلقه... إنه يعلم أن بداخلك لا يزال يقبع سراج من نور، ينتظر أن ينفُضَ أحدٌ عنه الغبار حتَّى يرى العالم ضياءه.

تنهد نيكولا ثم تابع:

- يا بني... لا تسول لك نفسك أبدًا أنك ممتلئٌ بالشرور. إن كنت كذلك فما كان للرب أن يرسلني إليك... إن العالم يحتاج إلى طواحين لتضرب الهواء حتَّى تزيل ضباب الشرور. أنت الآن يا جوليانو سهم الله فِي الأرض، وإن كنت يومًا قد سقطت وكنت سهمًا لقوس نفسك الشريرة، فالآن بيدك أن تغير راميك...

نظر له جوليانو، وابتسم ابتسامة سخرية وكأنه يقول له: لقد حُكم عليَّ بالإعدام.

فهم نيكولا على الفور، فقال:

- لا تحمل هم ذلك الآن... الآن حان وقت إزاحة تلك الغيوم التي تحجب عنك شمس الحياة، وآن لرياح التغير أن تزيل عجاج الدهر من فؤادك.

صمت جوليانو، وظل يفكر كثيرًا، وعادت به الذكريات مرة أخرى إلى ذلك اليوم... اليوم الذي أتم فيه عامه الخامس عشر. كان يشاهد مع والدته أحد البرامج الكوميدية، ويستمتعان بالفشار الذي صنعته له باهتمام بعد وجبة لذيذة وكعكة عيد ميلاد رائعة، وذلك بالرغم من يومها الشاق الذي بدأته مع إشراقة الشمس فِي تنظيف منزل جارتهم أورورا الأرملة سليطة اللسان التي يتجنبها الحي كله بسبب معاملتها، وكانت جريتا الوحيدة التي تتحمَّلها لأنها كانت من أهم موارد الرزق لها؛ فقد فقدت أورورا زوجها فِي الحرب، ولم يكن لها أولاد، وفوق ذلك كانت قد ورثت عن والدها شركةَ التبغ فِي المقاطعة...

طرقت جريتا بابها وهي مغصوبة على أمرها كالعادة، واستقبلتها العجوز بأسوأ كلمات التوبيخ، وأدخلتها وهي تشير إلى داخل المنزل، وبدأت العجوز فِي التعليق على بعض هفوات جريتا فِي التنظيف، التي يمكن أن يتغاضى عنها أي من الأناس الأسوياء أو حتَّى المتشددين العارفين بمعاناة تلك الأم المكافحة.

لم تتحدث جريتا، ودخلت لتقوم بإعادة ترتيب المنزل وتنظيفه، ثم اتجهت إلى المطبخ، ومن بعده إلى القبو لتقوم بغسل وكي ملابس العجوز، ثم مرت على باقي الحي لتلبي طلباتهم المنزلية، وتشتري احتياجاتهم، وتعود ببعض الأطفال من المدرسة لتجالسهم فِي بيتها. وبينما هي تراعيهم، كانت تطهو الطعام لتقوم بعد ذلك بتوصيل الأطفال والأطعمة إلى المنازل المجاورة، وتعود فِي نهاية اليوم لابنها.

كانت لا تبخل عليه بأي شيء، ولم تعد مرة من المرات ويداها خاليتان، ولم يشعر هو قط بالتقصير منها أو عدم الاهتمام حتَّى فِي لحظات مرضها...

يومها كانت الساعة لا تزال العاشرة، ووالده لا يعود فِي مثل هذا الوقت، لذلك كانت جلستهم سامرة ضاحكة بالرغم من الهموم التي تحملتها والدته ويشعر بها فِي عينيها، لكنها كانت تضحك معه من كل قلبها.

فجأة سمعا صوت خطوات على الباب، ومن ثم صوت المفاتيح، فأمسكت جريتا ابنها برعب، وأمرته أن يتوجه إلى غرفته ولا يخرج منها أبدًا... لم يعارضها كالعادة بالرغم من الرُّعب الظاهر فِي عينيها هذه المرة؛ فقد كان الوقت لا يزال مبكرًا لعودة ذلك السكير الأخرق.

دفعت جريتا طفلَها نحو غرفته، وبالفعل دخل جوليانو، وأغلق على نفسه كالعادة ليستمع إلى جدالهما الحاد بشأن الأموال، ووالده الذي كان يصرخ هذه المرة طالبًا المال ليعود إلى الحانة. واستمع جوليانو لوالدته وهي تصرخ بأنها لا تمتلك أيًّا من المال، وأن اليوم عيد ميلاد ابنه، وأنها لم تعد تتحمل العيش معه، وأنه عندما يعود من الحانة فِي المرة القادمة، فلن يجدها لا هي ولا ابنه... فهاج والده، وبدأ فِي الصراخ، وانهال عليها بالضرب، وسمع جوليانو تأوهات أمه وأنينها ونحيبها الهادئ. وكلما شعر بها وهي تحاول إخفاءه، بكى أكثر. وفجأةً،

سمع جوليانو آهةً اخترقت قلبه، ثم صوت ارتطام جسدها بالأرض، الذي أعقبه صمت رهيب. لم يشعر جوليانو بنفسه وهو يفتح غرفته ويجري نحو أمه الملقاة على الأرض، الغارقة فِي دمائها إثر الضربة التي ضربها لها والده فِي جمجمتها.

ومنذ تلك اللحظة التي انحنى فيها جوليانو محتضنًا والدته التي هي عالمه كله الذي لم يعرف غيره، لم ينطق بعدها بكلمة قط.

صرخ صرخةً قويةً ثم صمت للأبد.

أخيرًا وبعد أعوام وأعوام من الصمت، تحدث جوليانو إلى القس متسائلًا:

- أخبرني يا أبي... إذا كانت الولادة أعظم شيء فِي الكون... أليس كل ما يأتي بعد ذلك مخيبًا للظن؟

تطلع نيكولا فِي عيني جوليانو المحملتين بالأسى، وظل يفكر كثيرًا كيف له الرد على هذا التساؤل العظيم. وفي النهاية، لمعت فِي خياله فكرة قد تشوه تساؤل الفتى الذي لا إجابة له، فقال:

- التوبة... التوبة هي ميلاد جديد ومتجدد؛ لكنني أقصد التوبة الحقيقية وجلد الذات ومحاسبتها يوميًّا، فأنت لن تنعم بالراحة أبدًا ما لم تصارح وتصالح نفسك وتجالسها وتحدثها عن سوءاتك وعوراتك كما تحدث أقرانك عن سوءات الآخرين... تعلَّم يا بني أن تنظر فِي مرآة التوبة كل يوم، واعلم أنك إن لم تكن تمتلك وجهًا حقيقيًّا، فستظل كمصاص الدماء لا ترى انعكاسًا لك فِي مرايا التوبة.

أنهى نيكولا حديثه، وقام مغادرًا تاركًا مسبحة وكتاب... فأخذهما جوليانو معه إلى زنزانته.

الآن يقف أمامه بعد أن نصب حبرًا أعظم للڤاتيكان، وقد حان وقت إخراج السهم من كنانته.

***

خلف أحد أعمدة مسجد الحاكم بأمر الله، جلس فاروق ممسكًا ببعض الأوراق، وعلى جانبيه يجلس الغرباوي ولارا التي قد حجبت شعرها بشال كانت تلفه حول رقبتها منذ لحظات. وبسبب الزحام الشديد، لم يلاحظهم أحد، ولم يتعرف أيٌّ من الزوار على شيخ الأزهر ببذلته الرصاصية ونظارته الطبية، بالإضافة إلى خلو رأسه من عمامته التي لا تكاد تفارقه إلا وقت النوم.

بدأ فاروق يتحدث عن الوثيقة مع الغرباوي، وظلت لارا صامتةً تنقل الرموز التي خطها بينتولا فِي رسالته إلى أوراقها، وأعطت كل رمز كودًا، وبعدها بدأت فِي ترتيب الأكواد فِي جداول مرة أخرى لتكتب لكل كود نظيره فِي حروف الهجاء الإنجليزية. وقبل أن تنتهي لارا، استرقها من تركيزها حديثهم الذي ازدادت وطأته فجأةً.

الغرباوي: يا صديقي، أنت لم تفهمني حتَّى الآن... أنا مطمئن لكن الخوف واجب فِي بعض الأحيان، والشك والزعزعة من أهم أركان قيام الإيمان.

زفر فاروق ما يبدو زفيرَ استهزاء أو ضجر. لم يستطع الغرباوي التحديد.

- وهل شككت فضيلتك فِي إيمانك وتزعزعت عقيدتك من قبل؟

- بالطبع يا دكتور... أحتاج إلى ذلك كل فترة؛ فالرهبنة للضعفاء المسلوبة عقولهم. والآن فلنعد إلى تصورنا حول الوثيقة.

- اعذرني، لكني أعتقد أن ذلك غير مُجدٍ... لأنني أرى الآن أن أفكارك تناقض كلامك. فيمَ تقول لي إن الرهبنة المطلق لمسلوبي العقول ومتبعي الموروثات، وفيمَ تخشى مما تحويه الوثيقة؟

- قلت لك من قبل... العالم ليس مستعدًّا لمواجهة الدجال.

- الدجال!

قالها فاروق ضاحكًا مستهزئًا، ثم تابع:

- الفتنة التي تتحدث عنها تسير بين الناس فِي رغدٍ الآن. وأعتقد أنه إن ظهر الدجال فلا عمل له، واعذرني فضيلتك، ولكن ليس لك الحق فِي أن تقرر ما إن كان العالم مستعدًّا أم لا... وعلى الرغم من حدسك وخشيتك تلك، فإننا ما زلنا لا نعرف ما تحويه الوثيقة.

- يا فاروق لا تستفزني. لقد بدأ بينتولا عنوان وثيقته باسم مبعوثٍ، وزيَّنها بأبياتٍ عن مبعوث، وأنهاها بآيات لمبعوث... ولقد قلت إن المعادلات تشبه أساسيات المتغيرات الجينية... أتهزأ بي أم إني أراك ضيق الأفق؟

ظل الغرباوي يتحدث، لكن كان فاروق قد ضل منه، وذهب لعالم آخر، وبدأ يتذكر يوم أن كان فِي إحدى الليالي وهو فِي سريره محتضنًا كتابه الذي يتحدَّث عن مسارع الجسيمات الذي قد بدأ العمل منذ ما يقرب من عام؛ فقد شهد العالم كله ذلك الحدث التاريخي الذي فتح للعلم أبوابًا ودهاليز لم تكن فِي الحسبان، وبيَّن لنا كم نحن فقراء علميًّا. وبالرغم من بساطة فكرة عمله، إلا أن ذلك لا ينطبق على الإنجاز الذي حققه هذا النفق الدائري الذي يبلغ طوله أكثر من 26 كيلومترًا، ويمتد فِي أعماق كبيرة تحت الأرض بين جبال جورا وبحيرة جنيف مرورًا بالحدود السويسرية الفرنسية. ولعل أهم إنجازات هذا المسرع تُختصر فِي كلمتين اثنتين: "كشف الأسرار"؛ فإن الكثير من المدارك

التكوينية للأشياء هي التي دائمًا وأبدا ما تمهِّد الطريق إلى المعرفة واليقين، ولا سبيل إلى اليقين إلا بالتفكير. ولعل أصدق القول أنه ليست أعيننا دائمًا هي المصدر أو الوسيلة الموثوق بها فِي التأكد من الحقائق الخارجية. بالرغم من أن الفطرة والطبيعة الإنسانية تُملي علينا ذلك، إلا أن للعقل دائمًا وأبدًا رأيًا آخر... وعلى عكس العلماء والفيزيائيين والمفكرين، طالما وجد فاروق أنه من الصعب أن يقدر غيرهم - العلماء - الأفكار التي قد يتناولها العلم الحالي. وليس من السهل أن يجد العامَّة يسرًا فِي التعامل معها؛ فهو يتذكر أحد لقاءاته بالطلاب فِي إحدى المحاضرات، وبعد أن أنهى تلك المحاضرة، وجد العديد منهم يلحُّ عليه ليسأل، فأسعده ذلك، وفكر أنه ألهمهم بالتفكير، وأن عقولهم بدأت فِي عرض التساؤلات، ولا بد أنهم قد أجمعوا على سؤالٍ واحدٍ... ولكن فِي النهاية خيبوا آماله عندما وجدهم كلهم يتساءلون لمعرفة كم يبلغ من العمر.

وبالرغم من خوف فاروق من تلك الوثيقة؛ الخوف الذي حاول إخفاءه بشتى الطرق وساعده فِي ذلك شغفه بمعرفة الحقيقة، فإنه لا يعلم لماذا أخذه عقله إلى هناك. لكنه يشك فِي أن للأمر علاقةً بما يحدث فِي ذلك المسارع.

قال أخيرًا:

- أرى أننا لا نزال فِي أول الطريق لنحكم على الأمور.

رد الغرباوي: - أعتقد أننا فِي غنى عن أن نخوض تلك التجربة.

فاروق: - كيف؟ ولماذا إذًا استدعيتنا؟

- حقيقةً لا أعرف يا دكتور... لكن الأمر أصبح مخيفًا بعد الذي توصلنا إليه.

- نحن لم نتوصَّل إلى أيِّ شيءٍ، وكلها افتراضات.

- هذا أفضل.

- ماذا؟! علينا أن نكمل الطريق مهما كانت النهاية.

ظل الغرباوي يفكر قليلًا، ثم سأل فاروق:

- هل تتوقع يا دكتور أن يتخطى العلم حواجز الدين، ويفسر كل الموجودات، ونصل لكينونة أشياء لا يتوجب علينا أن نتساءل عنها كما فعلت أنت فِي محاضراتك؟

- لا أستبعد ذلك.

هنا لاح شبح مرعب أمام الغرباوي، وهرب الدم من عروقه، وتلاعب به عقله، ورسمت له ريشةُ نفسِهِ مستقبلًا غابرًا محطمًا مملوءًا بالمصائب والفتن والمسوخ، فقام من مجلسه، وتحدث بنبرةٍ عاليةٍ:

- انظر يا دكتور... التاريخ مليء بالأخطاء، وماركوس لم يرَ الحقيقة كاملة. هو فقط رأى ما جعله يعتقد أنها الحقيقة... أنا لا أنكر أننا ما زلنا نعيش فِي عصر "النداهة"، ولن نخرج منه... فِي الحقيقة، لكل عصر نداهته. الناس تخاف مما تجهل...

قالها، وأشار للجموع التي تملأ الساحة... منهم من يقف مع أطفاله ويلاعبهم، ومنهم من يلتقطون الصور، وفي بعض الأركان هناك من يصلُّون ومن يتعبدون، وما إلى ذلك.

تابع الغرباوي كلامه:ـ انظر إليهم... ما زال صوت النداهة يتردد بداخل قلوبهم ليصم آذانهم ويبكم أفواههم ويعمي عقولهم... إن ما فِي يدك سحر أسود يجب ألا يطلع عليه أحد من العامة.

رد فاروق غاضبًا:- أنت لا تزال تناقض نفسك... لا سحر فِي ذلك. ليس السحر إلا علمًا لم يفهمه معاصروه.

اضطربت الأجواء، وتهيأت للارا سحابة من الضباب تحوط كلًّا من فاروق والغرباوي، والبرق يضرب وجوههما من أعينهما.

• • •

الغرباوي:- لا تعتقد أني لا ألاحظ الخوف من وراء عينيك... أنا أراه أمامي عاريًا... وأفهم ما تحويه تلك الوثيقة، وقد كانت لديَّ شكوك من البداية، وقد أفضيت بها لك فِي أول لقائنا... وإن كان ما بيدك علمًا، فهو علم الدجال الذي حدثتك عنه... فالدجال طرقه دائمًا ما تتناسب مع العصر، وستظل يا فاروق كباقي إخوتك من العلماء الذين يظنون كما ظن من أتى قبلهم... أنهم يحيطون بكل شيء علمًا.

- لا، فضيلتك... أنا أومن مثلك تمامًا أن فوق كل ذي علم عليمًا، لكن...

- لا يصح أن تقول "لكن".

قاطعه فاروق:- ها أنت مرة أخرى تخالف مبادئك .

قاطعه وقد علت نبرة صوته:- دكتووور... نحن دائمًا ما نقول إن حروبنا الأكثر ضراوةً تكون مع أنفسنا، ورغم ذلك نخوضها دون أن نحفل أو نهتم ولا نشغل بالنا فِي التفريق بيننا وبين أنفسنا؛ لذلك لا نعي عدونا فيها.

حاول فاروق الرد، لكن لم يعطه الغرباوي أية فرصة.

- هذا الحديث لن يقودنا إلى شيء إلا الندم... ما يتوجَّب علينا الآن هو إحراق الوثيقة، وكأن شيئًا لم يكن.

هنا لم تستطع لارا أن تمسك لسانها، وأفلتت منها الكلمات كما تفلت الفرس البرية من مربطها.

- ماذا؟ هل جننت؟!

نظر لها الغرباوي بحدة وكاد أن ينفجر فيها هي الأخرى، لكنه تماسك وقال لها بكل برود:- حسناً... شكرًا لتعاونك يا دكتورة... مهمتكم انتهت الآن.

قالها ومد يده إليها وقال:- سلميني الوثيقة.

تحرك فاروق واختطف الورقة من بين يدي لارا، وأخفاها وراء ظهره ثم وقف أمام الغرباوي وجهًا لوجه، وقال:

- لا... يجب أن نصل إلى الحقيقة كاملة. ما نحن فيه الآن ليس إلا شكوكًا.

رد الغرباوي معنفًا:

- دكتور لن نتناقش فِي ذلك مرة أخرى... قلت لك إننا لن نصل إلى شيء. بعض الأوقات من غير المجدي البحث عن الحقيقة، لأنها ببساطة لا توجد فِي أي مكان... ألم تفهم بعد؟ أنت تسبح ضد التيار، وكلما ستتقدم فِي ذلك سيؤخرنا، وكلما اقتربنا سيبعدنا... لن نصل أبدًا إلى شيءٍ جيدٍ أو صحيحٍ ينفع البشرية... سنظل نصارع إمَّا حتَّى الموت أو فساد أرواحنا. أملنا الوحيد الآن فِي أن نترك أنفسنا للتيار، ونأمل أن يكون لنا ما هو خير من ذاك الشاطئ الذي نقصده بأبصارنا.

فاروق:- لا... هذا كلام لا يُعقل. أنت مخطئ تمامًا.

الغرباوي:- لن نعرف أبدًا.

فاروق:- إذًا لنحاول أن نصل لحل الوثيقة.

الغرباوي:- لا... لقد تمادينا بما فيه الكفاية، وقد تسرعت فِي حكمي وفي إحضاركم.

فاروق:- إذًا ستتخلى عن صديقك المقتول!

هنا تدخلت لارا قائلة:- ماذا؟

نظر إليها فاروق وهو يشير بيده نحو الغرباوي وقال:

- لقد قال لي اليوم فِي أول لقائي به إن ماركوس بينتولا قد مات مقتولًا.

تدخل الغرباوي قائلًا:- كلها افتراضات.

قالت لارا:- حسنًا وإن كانت؛ علينا البحث فِي ذلك... أأنت خائف؟

الغرباوي:- الخوف حكمة فِي وجه المخاطر.
- أنت قلت إنها افتراضات... إذن يجب أن نصل إلى الحقيقة.
- آسف، انتهت مهمتكم...
قالها، وأشار بيده من خلف فاروق ليظهر من خلف الأعمدة أربعة من الرجال بزي أسود يتحركون فِي اتجاههم.
لاحظهم فاروق، وعاد بعينيه للغرباوي راميًا له نظرةً تحمل الكثير من الغضب، فقال الغرباوي:
- آسف... لم يكن الفاتيكان قط مكانًا لإظهار الحقائق... كان فقط مخبأها وسبب تأجيلها...
أنهى كلامه، ورفع بصره إلى السماء، وهمس:
- اللهم إني أستعيذ بك من طاعون الهرطقة فِي الفعل والقول ونجر القلم.
صرخ فاروق بصوت جهوري:- أحمق...
ثم ضم الوثيقة إلى صدره فِي محاولة غريزية أخيرة لحمايتها... ونظر حوله ليرى خياراته.
وجد أنه قد تم حصاره، وانتهى مصير الوثيقة، وسوف يتم إحراقها بعد لحظات، وتختفي الحقيقة للأبد.
وقف فاروق متحسرًا يشاهدهم يقتربون. وجد أن هناك اثنين خلفه، وآخرَين يحولان بينه وبين باب الخروج، ولم يعلم فاروق ما الذي عليه أن يفعله فِي هذا الموقف؛ فقد شل جسده بالكامل. وبالرغم من صحته، إلا أنه لن يفوز فِي عراك مع أربعة من الرجال بهذا الحجم... اقترب منه الرجلان، ولمح وقتها عصفورًا يتحرك على الأرض من أمام أرجلهما، وطار ليحط على إحدى الدعامات التي تستند عليها الستائر الخضراء المحيطة بالمسجد، فتجدَّدَ الأمل

فِي قلب فاروق من جديد، وتوجه على الفور نحوهم، حتَّى ما عاد يفصل بينه وبينهم إلا عدة أمتار، فمد فاروق يده بجانبه، وانتظر حتَّى لم يعد بينهما إلا بعض أقدام، فجذب الستارة بكل قوته حتَّى سقطت الدعامة فوق أحدهم، وحجبت رأس الآخر، فهرع فاروق نحو الباب، وبدأت الأنظار تتجه نحو مكان سقوط الدعامة. واختطف حذاءه دون أن يرتديه. وما إن خرج حتَّى وجد رجلين آخرين يقفلان الطريق المؤدي إلى باب الفتوح، فغير اتجاهه بسرعة، وكاد أن يسقط، لكنه تدارك نفسه، وأكمل مسرعًا ناحية مسجد السلحدار، ولم يتوقف أو يلتفت خلفه أو حتَّى يهتم بالأعين التي تتابع ذلك الرجل حافي القدمين الذي يهرع وهو ممسك بحذائه فِي يد وورقة فِي يده الأخرى.

كل تفكيره الآن مصوب نحو إنقاذ الوثيقة، لكن استوقفته الحواجز التي تقطع الشارع مع سكة الباديستان، ومن خلفها يمتد الشارع حتَّى جوهر القائد، لكنه يكاد يخلو من المارة... لم يفكر كثيرًا. عليه أن يظل محتميًا بالزحام. فانحرف يسارًا إلى سكة الباديستان، ولكنها كانت أيضًا فارغة من المارة، لكنه استمر فِي العدو. وقد كان يعرف أنه ما زال طريدًا متبعًا من رجال الغرباوي، لكن فجأة ظهر أمامه الأمل الاخير فِي الهروب...

بعد أن كادت قواه أن تخور ويسقط أرضًا، رأى ما زاد من عزيمته وضخ فِي روحه همةً جعلته ينطلق مرةً أخرى كالريح... وصل إلى ميدان الحسين، وتعجَّب من الزحام الشديد والجموع التي تملأ الساحة أمام المسجد، وبالشوارع المجاورة، ولكن زال اندهاشه عندما تذكر أن اليوم هو "الليلة الكبيرة"، حيث امتلأ محيط المسجد بالأتباع والأولياء والمتصوفين والدراويش والمريدين وحتى الزائرين الذين جاؤوا فقط للمشاهدة، واكتسى المسجد

بالأنوار، وانتشرت قوات الأمن فِي كل ركن من أركان الحي، واختفت جميع الخدمات من محيط المسجد، وانتشرت التهاليل والزغاريد وأصوات الترتيل من كل حدب فِي المكان، وكان هذا وقت ختام الليلة الكبيرة الذي لا يخلو من إحيائها بأحد المنشدين، وداخل المسجد لا يوجد موضع لقدم؛ فقد فاز بالدخول من سبق، أما السرادق أمام المسجد فقد كان مزينًا بالأنوار والمصابيح فِي انتظار المنشد.

لاحظ فاروق مجموعة من أتباع الطريقة يرتدون جلابيب بيضاء وعماماتٍ برتقالية، ويحملون الرايات الخضراء والطبول، ويدورون حول الساحة يهتفون ويهللون، فذاب وسط الزحام، وتوقف فِي منتصف الميدان ليرتدي حذاءه ويلتقط أنفاسه، وتذكر وقتها لارا، فسبَّ نفسه، ولعن الغرباوي.

عليه الآن أن يعتمد على نفسه ويكمل طريقه لحل الأحجية... رفع نظره إلى السماء المليئة بالغيوم متسائلًا... ما هي الخطوة التالية؟

سمع صوت أحد الدراويش يصرخ من خلفه:- الغيييييث.

وبدأت الأمطار تهطل على وجهه، وقال لسانه دون أن يدرك:- هارڤارد.

لعدة ثوانٍ ظلَّ منحنيًا على وطنه وعالمه وصديقته الوحيدة فِي الحياة... تأمل وجهها وهي نائمة، وبكى كثيرًا. ظل يبكي حتَّى رآهم هناك يطوفون حول والده بأجنحتهم الهائلة، وسلاسلهم تصل إلى الأرض، وعيونهم تتطلع بغضب نحو والده... ثم ينظرون إلى جوليانو نظرةً خاويةً ليس لها أي معنى. تطلع إليهم قليلًا، ثم تحوَّلت عيناه إلى تلك السكين المعلقة بالمطبخ... قال لهم بعينيه ألا يقتربوا من والده، ثم جرى نحو المطبخ ليحضر السكين. اختطفها من مكانها، وسار بهدوء نحو والده الذي كان يعطيه ظهره، ويبحث بجنون عن المال هنا وهناك.

طعنه فِي ظهره، لتصدر صرخة قوية من والده يتردَّد صداها فِي الغرفة، ويتغير معها تردد نبضات قلب جوليانو، وينتشي جسده ويشعر بلذة غريبة لم يعهدها قط، وتعجب من الله... كيف له أن يحرم المرء من تلك المتعة؛ متعة القتل والانتقام؟ كيف له أن يخص بها ملائكة العذاب؛ والمظلومون أحق بتحقيق العقوبة على ظالميهم؟

عندما وجد أن التفكير فِي ذلك يسلب منه متعة الانتقام لوالدته، أخرج السكين من ظهر والده، ودار حوله لينظر فِي عينيه، وطعنه مرة أخرى ليسمع تألمه وصرخاته، ويرى الرعب فِي عينيه... ظل جوليانو يطعن فِي والده حتَّى أصبح جثة هامدة على الأرض... نظر حوله ليجد ملائكة العذاب ينظرون إليه مبتسمين.

الآن يقف أمام مخلصه من جديد بداخل سان جيوڤاني، واللقاء الثاني منذ جلستهم الأولى فِي أليساندريا، وقد أوكل نيكولا بلاجسيوس لجوليانو مهمة جديدة الآن. وبعد أن استمع جوليانو لتعليمات نيكولا، عاد ليركع أمام المذبح ويتابع صلواته.

• • •

أنهى نيكولا حديثه مع جوليانو. توجه عائدًا إلى الڤاتيكان، وقد أيقن أن الأمر الآن واقع على عاتقه. عليه أن يجدِّد الإيمان فِي نفوس الناس، ويحفظ الدين من الضياع. عليه أن يعيد إحياء الڤاتيكان من جديد، ولكن يجب أن تسير الأمور على النحو الصحيح والطبيعي؛ فلا بعث دون فناء، ومن أجل أن يحيا شخص، على آخر أن يموت...

لكن ذلك لن يحدث بدون استئصال المشعوذ ذي الرؤوس الثلاثة، وبعد أن شارف على قطع أحدها، أوكل لجوليانو الأخرى، ولكن الثالثة تقبع هناك داخل أروقة الكنيسة، وتسمح للشيطان بالتجول فيها ونشر الفتن بين ضحاياها المؤمنين. الأمر يتطلب الكثير من الحرص وتوخي الحذر؛ فإن فشل فِي نحر رأس الأفعى، فإنها لن تتردد فِي ابتلاعه مثلما يبتلع البازليسك ضحيته العمياء...

وهو الآن بمفرده؛ فجوليانو بعد قليل سيكون فِي طريقه إلى أمريكا. عندما وصل إلى القصر الرسولي حيث يقيم ويبيت البابا بعيدًا عن صخب أعمال الكنيسة. ويتواجد القصر على جانبي ساحة القديس بطرس، ويتكون من كتل منفصلة، وعلى جانبيه المتاحف والأرشيف السري، وفي المنتصف تستقر الكنيسة السستينية. وليس القصر مقرًّا رسميًّا للبابا فقط[1] بل يضم أيضًا المكاتب الحكومية وإدارات شؤون الدولة، ويتكون من حوالي ألف غرفة، منها شقق رافاييل الثلاثة التي أشرف على تصميمها ورسمها، وشقق ومصلَّى مايكل أنجلو، وشقة بورجيا التي يقيم فيها بينتولا الآن، ومصلَّى نيكولا الخامس.

بدأت أعصاب نيكولا تهدأ قليلًا عند دخوله للقصر، وأقنع نفسه أنه إن لم يستطع جوليانو استخلاص ومعرفة حقيقة رحلة البابا فِي جنيف، فسيقدم

حامل سرها كقربان إلى الرب ليختفي جزء من الحقيقة، وإن جوليانو لهو خير من يفعل ذلك. لكن ما إن عاد للتفكير فِي خطبة البابا الهزلية هذا الصباح حتَّى عادت هواجسه تطارده مرة أخرى. وصل نيكولا إلى مكتب الشؤون العامة؛ وأثناء غرقه فِي التفكير، لمح كاردينال أمين سر الدولة يعبر الرواق من أمام مكتبه قادمًا من مكتب الكاردينال إدسو باسكرفيل، مسؤول العلاقات الدولية بالڤاتيكان... فأسرع نيكولا ليلحق به، لكن بعدما وصل إلى نهاية الرواق، قرر أن يعود إلى إدسو ويتحدث معه... عاد ناحية مكتب إدسو، ثم دفع الباب وهو يقول:

- أووه عزيزي إدسو... لم أرك اليوم فِي الاحتفال! ألم يكن عليك التواجد وسط الوفود؟

كان إدسو رجلًا حاذقًا لماحًا لا ميالًا للمرح ولا للكمد. لم يجاوب سؤال نيكولا لأنه يعرف نواياه، وقال مغيرًا مجرى الحديث:

- نيكولا... يا له من شرف! لم أرك منذ فترة فِي مكتبي. ترى لمن أدين بذلك؟

نيكولا:- ليس لأحد إلا قلبي...

قالها باسمًا ثم تابع:- لقد كنت أتحدث مع البابا باكرًا، ومررت فِي عقلي، وتذكرت أني لم أرك حتَّى فِي الحفل، فقلت لم لا أمر لأطمئن عليك وعلى أحوال العمل.

- الأمور على ما يرام. لا تقلق.

- آها... لقد قابلت يوستينوس خارجًا من هنا، وقد كان شاردًا... هل كل شيء على ما يرام؟

- ليس أمرًا هامًّا... لكنه شخصي بيني وبينه، لا يمت للعمل بصلة...

قالها، وعاود النظر للأوراق التي أمامه متحاشيًا تلاقي أعينهم ببعضها، فعلم

نيكولا أنه يكذب، فقال:- شخصي!

- نعم... نحن نتحدث كل فترة، ولا أخفي عليك... يوستينوس يعاني من بعض الاضطرابات منذ تلك الحادثة.

كان إدسو يقصد حادثة اقتحام مؤتمره الأخير، من أربعٍ من الفتيات السحاقيات عاريات الصدور، وكل منهن قد كتبت على جسدها عبارةً مسيئةً للرب ومؤازرة للمثلية، ويحملن زجاجات المياه فِي أيديهم. وما إن اقتحمن اللقاء، حتَّى بدأن فِي السباب واللعن وإفراغ الماء فوق رأسه، وهو لم يتحرك، وأغمض عينيه، وبدا للناس أنه يصلي. وبالرغم من تماسكه يومها، إلا أنه اهتز كثيرًا مع صورته التي اهتزت أمام العالم.

ضحك نيكولا ساخرًا، وقال:- أولم ترَ ردَّ فعل البابا أو تسمع ماذا قال عنهن؟ لقد سامحهن وعفا عنهن ولم يتحدث بأي سوء.

رد إدسو:- قداسته يقول دائمًا إننا إن عرفنا تركيبة خلق الرب فلن نتعجب من شؤونهم.

- حسنًا، هذه هراء وافتراء على الرب. ويا ليتك سمعت حديثه اليوم فِي خطابه...

- لماذا؟

- لقد كان كالمهرجين و...

لم يعجب الحديث إدسو وقاطعه:- حسنًا، أعتقد أن لكل منا رؤيته، وأعتقد أيضًا أنه لم يتبقَّ وقت كثير حتَّى صلاة الستار... أنال شرف صحبتك؟

نيكولا محاولًا إخفاء حنقه:- بالطبع يا عزيزي... بالطبع.

وقف يتأمل وجه ذلك الوحش الأسطوري الذي صُمِّم من الحجر الكنسي على هيئة حيوان ضارٍ رابض بجسده، ويمتلك رأس إنسان، ليجمع بين رمزية قوة الجسد وحكمة العقل معًا. واعتراه الفضول نحو التاريخ المزور... فكم من حماقات وأكاذيب توارثناها حتَّى فِي قضية هذا الأنف!

جلس على الرصيف أمام كابينة الصرف يتأمل كل تلك التفاصيل على ظهر إحدى الورقات من فئة المائة جنيهاً التي كان قد سحبها من دقائق مع أخواتها التسع الأخريات... بالتأكيد منزله مراقب الآن، ولا يستطيع الاقتراب منه، لكن هذه ليست المشكلة الوحيدة الآن؛ فجلوسه على الأرض كان بسبب ما سمعه منذ قليل فِي اتصاله الهاتفي مع أحد أصدقائه فِي هارڤارد... فقد كان سؤاله موضوعيًّا ومحددًا بعد أن اطلع على نواتج محرك البحث عن جسيم الآلة أو الهيجز بوزون عندما كان برفقة الغرباوي ولارا فِي المسجد، وقابل وقتها أحد الأبحاث المهمة التي قام بها دكتور يُدعى ويلسون هاوارد. ومن الغريب أنه وجد وقتها أن ويلسون هاوارد اقترن اسمه باسم البابا ماركوس بينتولا، ولكن لم يستطع الوصول إلى شيءٍ من محرك البحث فِي هاتفه، ولم يكن مسموحًا له تحميل أي من الأبحاث أو الاطلاع عليها... ولم يستطع وقتها إلا قراءة ملخص البحث الذي كان يتحدث عن محاولات لفهم الوعي والإدراك وربطه بالتركيب الأساسي للحمض النووي الريبوزي، وهل للذاكرة علاقة بالتطور الطبيعي للكائنات أم لا... شعر فاروق أن أبحاث ويلسون تبتعد عن مجاله تمامًا - أي مجال فيزياء الجسيمات - وتقترب من الهندسة الوراثية أكثر... فقد كان يسير على نهج تشارلز داروين وجوردون جالوب عندما حاول الأول إعطاء مرايا لبعض من القرود، واختبر ذكاءهم فيها إذا كانوا سيعرفون أنفسهم أم لا، وبدأت القردة فِي التقبيل واللعب مع نفسها، ولم يعلم وقتها داروين إن

كانوا قد تعرفوا على أنفسهم أم لا؛ ولكن بعد فترة كبيرة جاء جوردون، وحاول مرة أخرى مع بعض القردة، وفعلوا نفس ما فعله أجدادهم، ثم خدرهم جوردون، ورسم على كل منهم بقعًا حمراءَ واضحةً فوق العين. ولما استيقظوا، قام بإعطائهم المرايا، وللمفاجأة وجدهم يتحسسون مكان البقع عندما رأوها فِي المرآة. ولكن على الرغم من أهمية هذه التجربة، إلا أنه لم يصل وقتها لأي نتيجة قد تربط الوعي بتوارث الذاكرة.

لم يعلم فاروق لماذا قد يذهب به خياله إلى التفكير فِي هذه الأبحاث فِي الوقت الحالي، لكنه لم يهتم... كان كل اهتمامه الآن فِي المصيبة التي حلَّت، وعلم بها من اتصاله الهاتفي.

فقد أجرى منذ بضع دقائق اتصالًا هاتفيًّا بأحد أساتذة الفيزياء من معارفه هناك - وهو الدكتور وولتر كريفورد - ولكن جاءه الرد المفجع بأن ويلسون قد وُجد مقتولًا فِي شقته منذ شهر أو أكثر!

صدم فاروق، وجلس أرضًا أمام الكابينة لا يعرف أين يذهب ولا من أين يبدأ... لقد وصل إلى حائط سد، وعليه أن يفكر فِي وجهته القادمة.

شعر بالحنق الشديد من البابا ومن شيخ الأزهر ومن كل شيء حوله ... هو يحمل فِي حياته ما يكفيه من الهموم... فتح محفظته، ووضع بها الأموال، ثم أخرج صورتها، وبدأ فِي تأملها، ثم قبَّلها وأعادها إلى المحفظة.

بعد تفكُّر طويل، علم أنه عليه الآن التوجه إلى مكان هادئ، وفي نفس الوقت يدعم خدمة الإنترنت لأن هاتفه على وشك الموت كهربيًّا... لمعت فِي عقله الفكرة فورًا... لن يتوقع أحد أنه قد يتوجه إلى هناك... المكتبة المركزية لجامعة القاهرة. ابتسم فاروق لنفسه وحاول تشجيع نفسه وخلق الأمل من جديد بداخلها، لكنه قفز فزعًا عندما رن هاتفه المحمول... أخرجه من جيبه

سريعًا ليجد أن المتصل مجهول، ولم يتطرق عقله لأن يكون هذا الاتصال محاولةً لتعقبه، فردَّ سريعًا بعفوية، وكان الصوت أنثويًّا ناعمًا.

- دكتور فاروق!

عرف صوتها على الفور، فرد قائلًا:- دكتورة لارا!

- نعم... أعتذر عن اتصالي، لكن بعد أن هربت أنت، تركني شيخ الأزهر، وقال لي أن مهمتي انتهت وعليَّ العودة إلى منزلي وكأن شيئًا لم يكن... لكن اسمح لي، لا أعتقد أن الأمور يجب أن تنتهي كذلك.

صمتت قليلًا، ولم تتحدث لبرهة؛ فقد كانت تشعر هي الأخرى بغضب شديد؛ فبالرغم من أن الصراع بداخلها يشتعل فيما بين البحث فِي الأمر أو أن تتخلى عنه الآن، إلا أن التساؤلات فِي عقلها أفقدتها عقلانيتها...

أخيرًا قالت:- أنت ذكرت أن هناك جريمة قتل حدثت، والمقتول ليس شخصًا عاديًّا كما تعرف.

رد فاروق متجاهلًا طريقتها الفظة:- نعم.

بالرغم من غضبها الظاهر فِي طريقة كلامها، إلا أن صوتها كان ناعمًا دافئًا يثير شغفًا غريبًا بداخل فاروق، وكأنه يسمع معزوفة ملائكية تتملك روح وقلب الإنسان بمجرد أن تلامس طبلتي أذنيه... جعله صوتها يفكر فِي ذكراه الأولى مع تلك الطالبة ذات الوجه الطفولي الصغير والملامح الغانية والشامة الصغيرة فِي يمين وجهها والعينين الواسعتين والقوام اللطيف الممشوق. اختطفت قلبه لحظة دخولها مكتبه، وبدأ جسده فِي التعرُّق عندما وجدها متجهةً نحوه. وقبل أن يتوقف قلبه، تحدثت إلى زميله الجالس بجواره. وبعد أن أنهت معه، خرجت دون أن تنظر له، أو حتَّى تلاحظ وجوده... ظل عقله يفكر فيها

أيامًا وأسابيع وشهورًا. وما زاد جنونه بها جنونًا أنها اختفت من أمام عينيه لمدة عام كامل، وكأنها كانت حلمًا جميلًا مر على مكتبه.

و يومًا ما مرض صديق له، فاعتذر عن محاضرته، وحل فاروق محله. وبعد أن دخل، وجدها أمامه هناك تتطلع إليه بعينيها القاتلتين... فلم يستطع السيطرة على نفسه، وظهر فاروق الرجل المتماسك القوي مهزوزًا أمامها... فالرجل يولد من بطن أمه وهو مثال أمثل فِي معاملته مع كل النساء، ويولد بفطرة طبيعية وجينات وراثية تمنحه القوة والوجاهة والحبكة لإيقاع أي منهن. ثم تأتي اللحظة التي يقع فيها فِي الغرام، فيتحول إلى معتوه مغفل الهيئة، وتصبح معاملاته كمعاملات غول أحمق لا يجيد التفوه بالكلمات، ويخرج منه الحديث على شكل غمغمات وترَّهات لا معنى لها، وأفعاله الصبيانية التي لا تفسير لها تفقده جاذبيته ووجاهته فِي الوقت الوحيد الذي يكون فِي أشد الاحتياج إليها.

كانت المحاضرة غريبة بها بعد الترّهات والنكات السخيفة التي لا يعلم فاروق لماذا قالها، وخرج وهو متأكد أنهم جميعًا - وهي بالأخص - قد لعنوه وسبوه.

- دكتور، هل أنت معي؟ دكتور.

انتبه فاروق أنه لا يزال يحدث لارا على الهاتف، فقال:- قطار الأنفاق فِي الدقي... سأكون فِي انتظارك هناك.

بعد الانتهاء من صلاة الستار، انتهز نيكولا الفرصة، وتوجه إلى يوستينوس ليتجاذب معه أطراف الحديث لمعرفة سر الساعة التي سقطت من جدول الزيارات البابوية؛ لأنه كان أمين سر بينتولا دائمًا وأبدًا، وإن كان هناك شيء حدث فِي جنيف، فلن يعرفه إلا يوستينوس. جلس نيكولا بجواره، وقد لاحظه يوستينوس، لكنه لم ينظر له؛ فقد كان نيكولا مكروهًا من الجميع بسبب تسلطه وكبريائه غير المبرر وتدخله فِي شؤون الآخرين بدون علم ودراية، وكان معروفًا بجداله الكثير وتشدده وتعنته فِي كل نقاشاته التي لا تنتهي منتهى محمودًا أبدًا.

أخيرا ربت نيكولا على فخذ يوستينوس، وقال:

- كيف حالك اليوم يا صديقي؟

استدار برأسه نحوه فِي بطءٍ شديدٍ، وقال:

- بأفضل حال يا نيكولا... لا أعتقد أنك تنتظر بعد الصلاة لتسأل عن الأحوال!

ابتسم نيكولا ابتسامة سمجة، وقال:

- فِي الحقيقة يا عزيزي... أنا هنا لأتحدث معك فِي أمر هام يؤرقني.

يوستينوس: ماذا؟

نيكولا: أنا كنت أتساءل بخصوص رحلات البابا الأخيرة... وأعتقد أن بها شيئًا من الخلل.

اكفهر وجه يوستينوس، وردَّ بعصبية واضحة:

- ماذا تقصد بكلامك؟

- لا شيء يا عزيزي... لا شيء أبدًا... لا تحنق هكذا. أنا أعول فِي كلامي على عدم اكتمال أوراقي، وأنت تعرف أن رياريو حازم فِي هذه الأمور.

ـ عزيزي نيكولا... إن رياريو قائد للحرس، وليس له أن يعدل على البابا.
- لكن لديه الحق فِي الاطلاع على الأوراق الرسمية فِي أي وقت.
- والبابا أيضًا لديه الحق فِي أن يحتفظ ببعض الخصوصية... قل لي يا نيكولا لم تشغل بالك دائمًا؟ لم تبحث خلف الآخرين دائمًا؟
- أنا لا أبحث عن شيءٍ معين أو أثير المشاكل أو حتَّى تعتريني خطيئة الفضول. أنا فقط أريد أن أكمل بياناتي وأوراقي، وحتى الآن ليس عندي أي دليل عن رحلة جنيف وعن أسباب تأخر الطائرة البابوية لساعات.
- يمكنك أن تسأل البابا بنفسك.
- وهل تعتقد أني لم أحاول.
- إذًا الأمر يخصه. ولمعلوماتك، ليس عندي أي فكرة عن مكانه وقتها إذا كنت تحاول أن تستخلص مني أي شيء... فهي كما قلت لك خصوصيات الحبر الأعظم، ولا دخل لي فيما لا يطلعني عليه.
- حسنًا يا عزيزي... لكن قل لي... ألا تلاحظ تغيُّره فِي الآونة الأخيرة؟
- إن كنت تعرفه حقًّا، فستعرف أنه دائمًا وأبدًا ما يكون على هذه الشاكلة.
- وهل أعجبك حديثه الأخير؟ وهل رحبت أنت أيضًا بالأوركسترا داخل أسوارنا؟ وهل أيضًا يخفى عليك عزفه على تلك الآلة؟
- انظر يا نيكولا... حتَّى وإن كان للبابا بعض الأفعال الغريبة، فإنه لمن البلاهة أن تبادره بالعداوة.
- إذًا أنت تعترف أن هناك شيئًا ما يحدث... هل تريدني أن أظل صامتًا؟
رد يوستينوس متهكمًا:
- أنا أثق أنك لست صامتًا... صحيح؟
نظر له نيكولا للحظات، ثم تركه وغادر؛ ومنذ ذلك الحين لم يتحدث معه إلا

اليوم، عندما سأله يوستينوس منذ لحظات قائلًا:

- هل تقبل بانتخابك حبرًا أعظم؟

والآن، ها هو نيكولا فِي موضع يسمح له بالاطلاع على كل شيء، فتنهد طويلًا، وزفر زفيرَ اطمئنان، وخرج ليحيِّي الجماهير التي تنتظره فِي ساحة القديس بطرس. وبعد أن أنهى خطابه، دخل غرفته، وطلب على الفور إحضار هاتفه الذي كان قد تركه فِي أمانة الكنيسة مثل باقي كرادلة المجمع، واختار من الأسماء اسمًا لم يتصل به منذ أن تركه من شهر وهو متوجه إلى أمريكا.

جوليلانو دي باتزي...

وصلت لارا إلى الدقي كما طلب منها فاروق، وقد اتصل بها وهي فِي الطريق ليخبرها بتغيير مكان اللقاء... توجهت إلى المطعم الذي حدده فاروق، واتبعت تعليماته، وجلست بعيدًا عن زجاج الواجهة، وطلبت وجبتين، وجلست تنتظره فِي هدوء مصطنع...

بعد عدة دقائق، وجدت لارا أحد الأشخاص يقترب من طاولتها، وسحب كرسيًّا وجلس معها وأعطى ظهره للباب.قال لها دون أي افتتاحيات:

- تحركي الآن إلى المرحاض، وعند عودتك اخرجي من الباب الخلفي...

قالها، وأشار برأسه من فوق كتفها، فلاحظت أن المطعم له مدخلان مختلفان.

ظلت تفكر حتَّى جاءها صوته مرة أخرى...

- الآن.

قامت لارا على الفور، واتبعت التعليمات، فدخلت المرحاض دقائق ثم خرجت. وبدلًا من العودة إلى طاولتها، انحرفت يمينًا متوجهةً إلى المخرج الخلفي للمطعم...

ضرب الهواء وجهها بمجرد أن فتحت الباب، وفي نفس التوقيت بدأ هاتفها فِي الرنين. نظرت إلى الشاشة، فوجدت أنه فاروق.

فاروق: لارا، الآن توجهي إلى نهاية الشارع، إلى أول تقاطع، واعبري الطريق إلى الناحية الأخرى، واجعلي السور على يمينك، وسيري معه حتَّى تصلي إلى جامعة القاهرة ولا تتوقفي مهما حدث...

سمعت لارا الكلام، وبدأت فِي التحرك حتَّى وصلت إلى السور. نظرت حولها قبل أن تكمل المسير، فبدأ هاتفها فِي الرنين مرة أخرى.

- آلوو.

- لارا... الآن استديري وعودي إلى المحطة مرة أخرى.

- ماذا؟!

- نعم... استمعي إليَّ فقط، وستفهمين فِي النهاية. الآن ارجعي إلى المحطة، وعندما تصلين هناك اتصلي بي.

- كما تشاء.

قالتها لارا فِي نبرة تنم عن الامتعاض والملل، وعادت مرة أخرى تشق طريقها فِي الشارع الذي لا يخلو من المارة على أقدامهم أو بداخل سياراتهم. وعندما وصلت إلى المحطة، اتصلت بفاروق لتخبره بأنها هناك.

فاروق: الآن... اركبي الاتجاه العائد إلى شبرا، وكوني بجوار الباب، وفي المحطة القادمة "العتبة" اخرجي على الفور، واجري ناحية السلم، واصعدي منه ثم اهبطي من السلم المقابل له، واركبي فِي نفس القطار.

- مستحيل... هل جننت؟ لن ألحق به.

- لا تقلقي... ثقي بي.

دقائق ووجدت لارا نفسها أمام باب القطار، وتستند بيدها على الزجاج منتظرة أن يتحرك قليلًا حتَّى تنسلَّ منه متجهة نحو السلالم... وبالفعل وصل القطار، وهرعت نحو اتجاه الخروج قبل أي أحد، وصعدت السلالم الكهربائية جريًا، واتخذت السلم المقابل وهي لا تزال مسرعة نحو نفس المترو، وقد أيقنت أنها لن تستطيع اللحاق به... وفي آخر درجة من درجات السلم ألقت عينيها على أقرب باب لها، واتجهت له، لكنه كان قد بدأ فِي الانغلاق... لكن فجأة حدث كل شيء بسرعة، حتَّى إنها لم تنتبه إلى أي من ذلك.

أمسك أحدهم بالباب من الخارج ودفعها ودخل خلفها، ودفع بقدمه شخصًا آخر كان يجري نحو الباب، وأفلت الباب من يده لينغلق دون أن يدخل

ذلك الثالث، ليزمجر ويضرب بيده على الباب عدة مرات... ابتسم له فاروق من خلف الزجاج، وأشار له بيده مودعًا...

ظلت أطراف أصابعه تطرق على يد الكرسي كأنه يحاول إرسال رسالة مشفرة بأكواد مورس... لكنها لم تكن ذات معنى... كانت فقط حركة لا إرادية لتنفيس اضطرابه وهو جالس فِي مكتبه فِي انتظار جوليانو دي باتزي، وأخذته أفكاره بعيدًا نحو جولات ماركوس ولقائه مع الدكتور ويلسون الأستاذ فِي جامعة هارڤارد الذي لم يستطع جوليانو الوصول معه إلى شيء، وقد مات فِي يده من فرط التعذيب... وقتها حزن جوليانو حزنًا شديدًا؛ فالدكتور ويلسون لم تكن الملائكة تطوف من حوله... لكنه أقنع نفسه وقتها أنها غاية وإرادة الرب العليا، وتذكر أنه قد دفع ثمنها فِي ذلك اليوم الذي جاءت فيه الشرطة بعد أن أبلغ أحد الجيران عن سماع أصوات صراخ أتت من منزل آل ريجيني. وعندما وصلت الشرطة، وجدت الأم والأب غارقين فِي دمائهما، والفتى يجلس بينهما على الأرض قريبًا من أمه ممسكًا بسكين، غارقًا فِي الدماء، لا يحرك ساكنًا كأبويه.

قبض على الفتى. وبعد التحقيقات والاستجوابات التي لم ينطق فيها بأي كلمة، أغلقت القضية باتهام جوليانو بقتل والده وتم إيداعه مصحة "أوستريكا دي بادوفا" النفسية، ولسانه لم يتحرك منذ لحظة رؤيته لوالدته مقتولة.

أخيرًا، وبعد انتظار دام لساعة أو أكثر، وصل جوليانو إلى القصر، وقد كان الحرس على علمٍ بانتظار البابا له... دخل جوليانو مكتب البابا، وانحنى أمامه، ثم تقدم نحوه وانحنى مرة أخرى، وقبل خاتمه البابوي... فأنهضه نيكولا، واحتضنه قائلًا:

- عزيزي جوليانو... كم رأينا أهوالًا من أجل هذه اللحظة...

تركه نيكولا، واستدار سائرًا فِي الغرفة تجاه النافذة، وتابع:

- لكن ما زال أمامنا طريق طويل... اجلس يا بني.

توجه جوليانو إلى أقرب كرسي، وجلس فِي خضوع وخشوع لا يليقان بأعماله وهيئته، لكن ينبعان من تقديره للبابا؛ فقبل كل شيء هو من أعطاه حياة على حياته... هو من انتشله من أليساندريا بعد أن حُكم عليه بالإعدام... بسبب جريمته الأخيرة.

فقد ظل جوليانو على عهده طيلة عشر سنوات لا ينطق بكلمة، يتابع الناس من حوله بالمصحة فقط. يرى منهم الآثمين وملائكة العذاب يطوفون من حولهم ينتظرون منه تنفيذ القصاص بنفسه... ولكنه بالرغم من ذلك لم يحرك ساكنًا.

فها هي ريتا الممرضة التي تغش دواء المرضى، وتضع لهم السكاكر بدلًا منها لتبيعها بمعرفة أحد رجال الأمن بالمصحة، الذي يشاركها سريرها ليلًا من وراء زوجته... وها هو الطبيب الزاني الذي يتلاعب بمرضاه من الإناث ويخدرهن ليغتصبهن... وعلى شاكلتهم الكثير والكثير؛ حتَّى المرضى... بهم من يمتلك من العلاقات القوية ولديه رصيد من الرشاوى والمجاملات لدى من فِي مكتب النائب العام وبعض من القضاة... ليرتكب الجرائم ويقتل ثم يحاكم ويودع فِي المصحة لفترة من الوقت ثم يعود مرة أخرى ليقضي حياته كما كانت، وكأن شيئًا لم يكن...

كبر جوليانو فِي هذا الوسط، وظل يتأملهم من حوله قرابة العشر سنوات لا يتحدث ولا ينطق...

وفي أحد الأيام كان يتناول غداءه، حين لاحظ ريتا وهي تضحك مع رجل الأمن ويداعبها، ثم تعطيه حقيبة صغيرة بها حصيلة اليوم من الأدوية؛ وعندما همت بأن تتركه وتدخل صالة التريض، تأكد أن لا أحد يتابعهما، ثم

ضربها على مؤخرتها مازحًا، لتصدر منها ضحكة تصل له من خلف الزجاج.

دخلت ريتا وبيدها علب الدواء المغشوشة، وأخرجت منها حبوب السكاكر لتعطيها لمرضاها الذين لا يتحسنون.

وضعت الدواء فِي فم بولسكي العجوز المقعد، وساعدته فِي بلعه بالماء، ورآهم جوليانو مرة أخرى من حولها يطوفون وسلاسلهم تزحف على الأرض من خلفهم، وتنظر له فِي غضب أن تحرَّك الآن، وإلا كنت من الآثمين مثلهم.

فِي هذه اللحظة، دخل الدكتور دويني الطبيب المغتصب الصالة للاطمئنان على إحدى مريضاته والتحدث معها قليلًا لينتهي الحديث كالعادة باصطحابه لها فِي غرفته وتخديرها واغتصابها. لم يستطع جوليانو أن يتمالك نفسه؛ فقد بدأت تخرج للملائكة أصوات، وبدأ صراخهم به يزعجه، فقام من مجلسه دون أن يدري، وتوجه نحو الممرضة، وأمسك بوجهها. وقبل أن تصرخ، أدار رأسها فِي يده، وكسر رقبتها. صرخ الطبيب عندما شاهده، وبدأ فِي العراك فورًا... تلقى جوليانو ضربة فِي وجهه أسقطته. وعندما حاول الطبيب أن يلقي نفسه عليه، دفعه جوليانو بقدمه، وقام وأمسك ملعقته التي كان يأكل بها، وبكل ما أوتي من قوة غرس يدها فِي رقبته. وقبل أن يخرجها ليطعنه مرة أخرى، أفقدته هراوة الحارس وعيه ليجد نفسه بعدها مكبلًا مصحوبًا إلى خارج المصحة.

دون أي محاكمات، أخذ جوليانو إلى أليساندريا، وهناك علم أنهم سينفذون به حكم الإعدام... فقد كان الطبيب دويني أيضًا من أقرباء النائب العام.

قاطع نيكولا ذكريات جوليانو قائلًا:

- لقد جاءني اتصال من صديقنا فِي القاهرة، وأعتقد أننا لو تحركنا سريعًا فلن تخرج الأمور عن سيطرتنا... لكن إن لم نحصل عليها...

صمت نيكولا قليلًا، وشعر وقتها جوليانو أن الأمر أخطر مما يمكن أن يتخيله، وأحس بقشعريرة فِي جسده، وكأن يد الرب تمسح عليه لتباركه فِي حربه... نعم، من أسلوب البابا، هي حرب على المسيحية. ويعتقد جوليانو أن الكنيسة لم تشهد شيئًا بهذه الضراوة من قبل، بالرغم من جهله بما يواجهه... تساءل أخيرًا:

- ما الذي تريدني قداستك أن أحصل عليه من القاهرة؟

- لقد علمت منه أن بينتولا قد أرسل وثيقةً إلى الأزهر مختومةً بالختم البابوي وشعار الڤاتيكان، لكنهم حتَّى الآن لم يستطيعوا ترجمتها لأنها مشفرة بطريقة ما... وقد لجؤوا إلى أحد أساتذة الفيزياء لفك - كما يقول صديقنا - طلاسم الوثيقة.

- أبي... إني أستشعر القلق مثلك تمامًا... لكن هل لي أن أتساءل عن دوام خوفك من هذا الأمر... بالرغم من أنك الآن تمتلك القوة المطلقة؟

- انظر يا جوليانو، هناك دائمًا خوف عقلاني وخوف غير... وبالرغم من أنه علينا ألا نخشى ما لا نعلمه، إلا أن الخوف فِي بعض الأوقات يكون حكمة فِي وجه المخاطر.

- ومن أين للكنيسة بتلك المخاطر الآن؟

- من أفعال ماركوس وتوجهاته... أنت لا تعلم شيئًا يا بني، لكن أي أحمق يعرفه ويعرف تفكيره قبل رحيله، ستصيبه الهواجس... بالإضافة لمحاولاته تجميع الأديان تحت رايةٍ واحدةٍ... وأنا لا أخفي عليك أنني استشعرت أن هناك شيئًا كبيرًا قد تغير وتبدل بداخله. وبالرغم من عهدي بغرابة أطواره

الدائمة، إلا أني لم أعهده كذلك من قبل.

- إذًا ماذا عليَّ أن أفعل الآن؟

- وجهتك القادمة القاهرة... وأنا سأتولى أمر القساوسة.

- أي قساوسة؟

- لا تشغل بالك الآن. عليك أن تكون فِي القاهرة غدًا، وسيأتيك اتصال من صديقنا هناك. مهمتك وغايتك أن تحصل على الوثيقة مهما كلفك الأمر وإن لزم فلا تتردد فِي قتل حاملها، ولكن أنت تعلم أن سرية الأمر لا تقتضي أن أناقشك فيها... وإن تم القبض عليك فأنت تعلم ما عليك فعله...

أخرج نيكولا من جيبه شيئًا صغيرًا للغاية لم يظهر حتَّى لجوليانو، ووضعه فِي يده. وعندما تحسسه جوليانو، علم ما هو، فأخذه ووضعه فِي جيبه، وقبل يد البابا، وقال له:- أمر قداستك.

قبله نيكولا فِي جبهته، وقال له:

- الآن اذهب واتركني لأهتم ببعض الشؤون.

خرج جوليانو تاركًا الباب خلفه، ولكن فِي طريقه فِي الطرقة قابل رياريو رئيس الحرس يتوجه نحو مكتب البابا، وقد كان يحاول جاهدًا أن يظهر بوجه غاضب، ودخل دون استئذان، فالتفت له البابا غاضبًا، لكن رياريو تكلم على الفور:

- اعذرني قداستك... لكن هل قرأت الصحف البارحة؟

- كيف لي وأنا كنت فِي المجمع؟ ماذا بها؟

أعطاه رياريو الجريدة ليقرأ العنوان:

غموضٌ حول وفاة البابا وآخر وصاياه

- ما هذه التخاريف؟

رد رياريو:- إن المقال يتحدَّث عن مقتل البابا، وأيضًا ذكر...

صمت رياريو ولم يكمل، فصرخ نيكولا:

- ماذا أيضًا؟ ما الذي تتحدث عنه؟

- لقد تحدث الخطاة عن أن قداسته ليس مدفونًا هنا.

ارتمى نيكولا على كرسيه... وقد فاض به.

عاد رياريو وكرر:

- إنهم يدَّعون أن جثمان قداسته ليس هنا...

- اللعنة يا رياريو... وهل تصدق تلك الترهات؟

- لا، قداستك... لكن أنت تعلم... حتَّى المؤامرات والاشاعات بها جزء من الحقيقة... وإن لم يكن، فعلينا أن نتدارك الموقف.

قام نيكولا، وأمسك بكتفي رياريو، وقال:

- لقد كنا على خلاف دائم طوال الوقت... لكن حان الوقت لكي ننحِّي خلافاتنا جانبًا الآن من أجل مصلحة الكنيسة... أنا الآن لن أحدثك حديث الحبر الأعظم لقائد الحرس، بل حديث أخ خائف على دينه لأخ آخر يغار عليه... ألست كذلك؟ ألا تغار على دينك؟

- لا تسأل...

أظهر نيكولا حزمًا مفاجئًا وقال:

- حسنًا يا عزيزي... أنت أقسمت على خدمة الكنيسة وأسقفها.

- بالطبع.

- إذًا أولًا عليك أن تحضر لي بريستلي وسوزيني، ومعهما يوستينوس أيضًا.

- حسنًا.

- ثانيًا.. عليك إجراء بعض الاتصالات، وتقديم بعض الرشى، لكن سريعًا.

اندهش رياريو على الفور، ورد قائلًا:

- ماذا؟ لمن؟

- هل تذكر ما قامت به "تشارلي إبدو" العام الماضي؟

- لقد قاموا بالكثير قداستك!

- فقط اتصل بمارك واترسون، وأخبره أن البابا يريد منك تكرار الأمر؛ فهو يعرف ما أقصد... وقل له أن ينشرها مرة أخرى ولكن على نطاق أوسع... واجعله يرسلها للصحف الألمانية والنرويجية والبريطانية.

- فهمت، قداستك. لكن ما لا أفهمه أمر القساوسة.

- ستفهم فِي النهاية... أحضرهم الآن، لكن ليس هنا.

- أين؟

- فِي الأرشيف.

همَّ ريايو بالمغادرة، لكن نيكولا ناداه مرة أخرى:

-آه... ريايو يا عزيزي... هناك شيء آخر.

- نعم.

- مكبلين.

شعر ريايو بالأسى وقتها، لكن كان عليه أن يتبع تعليمات نيكولا كما أمر منذ اسابيع.

***

علي بعد كيلومترات من محطة العتبة، رن هاتف الغرباوي.

- آلو.

- لقد فقدنا أثرها فِي قطار الأنفاق، فضيلتك.

اشتعل الغرباوي، وصاح بغضبٍ فِي محدثه:- أحمق.
أما أسفل الأرض، وبداخل القطار، فقد جلست لارا لتلتقط أنفاسها وهي تنظر إلى فاروق الواقف أمامها مبتسمًا منتصرًا.
سألته:- ماذا حدث؟ ولم كل هذا؟
قال فاروق مبتسمًا:- أولًا... كان يجب أن أتأكد أن لا أحد يتبعك... لذلك عندما أرسلت أحدهم ليجلس مكاني فِي المطعم، وطلبت منك الخروج من الباب الخلفي، كنت أنا فِي انتظارك هناك، وتأكدت أنهم يتبعونك كظلك، لذلك كان عليَّ أن أضللهم... فهذا الرجل الذي فقدناه للتو عند باب القطار كان دائمًا فِي ظلك...
وتابع فاروق ضاحكًا:- وكنت أنا أيضًا فِي ظله.
ابتسمت لارا قائلةً:- وجه وسيم ورأس عبقري... قلَّما نجد ذلك فِي الرجال.
ارتبك فاروق للحظة، لكنه تدارك نفسه وقال فِي ثقة:- ستجدين أني مليء بالمفاجآت.
وحاول تغيير الموضوع سريعًا، فقال لها:- أعطيني هاتفك.
- لماذا؟
- سيتتبعوننا به.
فقالت لارا:- لا تقلق؛ فأنا أعرف ما يتوجب عليَّ فعله.
أخرجت من حقيبتها علبة صغيرة، وفتحت هاتفها، وأخرجت منه شريحة الاتصال، وألقت بها على الأرض، ودهستها بحذائها، ووضعت الشريحة الأخرى التي كانت اشترتها بطلب من "المخلص"، أو هكذا لقب نفسه عندما اتصل بها وأخبرها أنها سوف تستقبل اتصالًا من شيخ الأزهر قريبًا، وعليها أن تشتري خطًّا آخر وتعطيه الرقم لأنها ستحتاج أن تستعملها

فِي وقتٍ من الأوقات... بالطبع لم تخبر فاروق، ولم تجد أن من الضروري إخباره الآن.

قالت أخيرًا:- ستجدني أنا أيضًا مليئة بالمفاجآت... ماذا الآن؟

- علينا الآن أن نتوجه إلى جامعة القاهرة... أحتاج أن أدرس المعادلات بتأنٍّ... ما زلت أشك فِي أنها تعبر عن النشوء أو البعث.

- فيم تشك؟

- لا أعرف... نحن لم نتعمَّق فِي الأمر... لقد بنينا افتراضات وهمية دون النظر إلى الصورة كاملة.

- حسنًا... لكن لماذا جامعة القاهرة؟

- المكتبة... نحتاج إلى الدخول إلى شبكة مرخصة لتحميل ما نريده من الأبحاث.

في هذه اللحظة، توقف القطار، وخرج منه كلاهما نحو المكتبة... لم يتحدث أي منهما حتَّى وصلا إلى داخل المكتبة، وتوجه فاروق لاستخدام أحد الحواسيب، وبدأ فِي تحميل بعض الأبحاث، أما لارا فشرعت تقلب فِي الأوراق التي قد بعثرتها للتو أمامها، وعادت لقراءة القصيدة، حتَّى فزعت فجأة، وتحولت الأنظار كلها نحو فاروق الذي كان يضرب بيده على المنضدة أمامه فِي حماسة! ونظر حوله، فلاحظ الأعين المحدقة نحوه فأشار بيده رادًّا على نظراتهم معتذرًا بضحكة سمجة، ثم عاد للارا قائلًا:

- انظري آخر أبحاث ويلسون زوستاك... لقد كان مع أحد أساتذة البرمجيات والـ VR.

- الماذا؟

- الـ VR... أو Virtual Reality... وأيضًا مع الدكتور ألبرت كوامن عالم الجينات... لكن البحث لم ينشر قط.

هزت لارا رأسها أنها لا تفهم ما يعني، فقال فاروق فِي حماسة:

- هندسة وراثية وبرمجيات وواقع افتراضي أو وهمي... هذا لا يعني إلا شيئًا واحدًا.

صمت للحظة، وابتسم وشعر أن حرارة جسده ترتفع. وتذكَّر عندما تحدث مع الدكتور حسن بدر صديقه بجامعة عين شمس عن تخليق الوعي أو الوعي الافتراضي، وأن هناك محاولات لجعله عالمًا واقعيًّا ملموسًا، وذلك عن طريق رسم الواقع الافتراضي، ومن ثم تخليق جسيمات للمادة تشكِّل ما تم رسمه.

أخيرًا قالت لارا:- ماذا يعني يا فاروق؟

رد فاروق:- إذا صح كلامي، فنحن الآن على أعتاب طفرة رهيبة...

داخل أسوار الڤاتيكان، وتحديدًا فِي غرفة البابا، بدأ هاتف نيكولا بلاجسيوس فِي الرنين، فتوجه إليه، وردَّ بعد نظرة خاطفة على اسم المتصل، وجاءه الصوت عبر الهاتف:

- لقد فقدنا أثره، لكن هذا لن يطول. لا تقلق.

رد نيكولا:- لست قلقًا. لقد أرسلت إليك صديقًا سيساعدك فِي الأمر. أتمنى أن توفر له كلَّ السبل.

- حسنًا.

لم يستمر الحديث طويلًا، إذ عاد بعده نيكولا إلى هواجسه حول ما يهدد بإضعاف الكنيسة وسقوطها. وبدأ من جديد فِي لعن ماركوس... هذا الأحمق الذي خاطر بالعالم المسيحي بأكمله، وأقحم نفسه فِي صراع العلم والدين معتقدًا أنه يمكنه أن يحلِّق بعيدًا فِي الأفق... ولكن نهايته لن تكون سقوطه بمفرده... سيسقط ويسقط معه الدين... الدين الذي أحياه وانتشله من فلورنسا، وجعله خليفة القديس بطرس.

- أبي، إنهم بالأسفل كما طلبت...

كان هذا رياريو جابريلي قائد الحرس.

تحرك نيكولا إلى أحد المكاتب، وأخرج حقيبة جلدية صغيرة كان قد طلب من جوليانو إحضارها له... بعدها أشار رياريو لقداسته بالتفضل، فقال له نيكولا:

- لا يا عزيزي. تقدمني واصطحبني إلى هناك.

تحرك رياريو ومن خلفه نيكولا حتَّى وصلا إلى نهاية الردهة، حيث جسر يمر بين مبنيين متجهًا نحو الأرشيف السري للڤاتيكان.

كان يوستينوس على الأرض، مكبل اليدين، وبجانبه القس بريستلي، وعلى الناحية الأخرى القس سوزيني، وثلاثتهم ينظرون لنيكولا بدهشة يمتزج بها الاحتقار.

حدق فيهم نيكولا لفترة طويلة ساد بها صمتٌ مطبقٌ على المكان، ولم يمل من النظر إلى أعينهم... ظل يتنقل من عين إلى عين حتَّى يكسر جمودهم، ويثبط من عزيمتهم، ويفتت شجاعتَهم المؤقتة... وقد كان نيكولا ماهرًا فِي ذلك دائمًا. لديه عينُ صقرٍ لا تميِّز الكاذب من الصادق فقط، لكنها تجعل كل مخطئ يفصح ويفضح بما أثم.

أخيرًا تحدث يوستينوس قائلًا:

- لقد زين لك الشيطان أفعالك يا نيكولا... ولعلك تعتقد أنك تسير فِي طريق الحق، ولكن هواجسك قد أعمتك. ومهما حدث لنا فستظل حيًّا طريد ذكرياتك، وصدقني هذا مصير أسوأ من الموت الذي ينتظرنا نحن.

- أووه عزيزي يوستينوس... حتَّى الفأر يكشر عن أنيابه قبل أن يتم سحقه... لكن صدقني أنت... حتَّى الآن، أنا لست هنا كي أوذيكم... أنا هنا فقط لحماية العالم من شرور صديقك.

- عن أي شر تتحدث يا نيكولا؟ إنه لمن الغباء أن تختزل الصراع بين الخير والشر فِي صراع بين اثنين.

- كل مجهول هو شر حتَّى يثبت غير ذلك.

- ومن أنت لتحكم بذلك؟

هنا صاح نيكولا وتردد صدى صوته فِي المكان:

- أنا الحبر الأعظم أيها الملعون. أنا يد الله العليا فِي الأرض... أنا من يعلن الحرب حتَّى يعم الأمان، ثم أعلن وقتها السلام.

رد يوستينوس فِي هدوء ساخر:

- نعم... عندما تنتهي حربك بالتأكيد سيعم السلام... فالأموات دائمًا ما يكونون مسالمين.

- أموات مهرطقون.

- قلت لك إن الأمر ليس بهذه البساطة... الأمر أكبر من ذلك.

- إذًا أخبرني ماذا حدث فِي جنيف؟

ضحك يوستينوس ثم قال:

- ألم أقل لك إن الأمر أكبر منك... ولا يمكن اختزاله فِي صراعك مع بينتولا.

- ليس لي صراع معه الآن.

- حسنًا، هو ميت، لكنك أحمق... فإن الأمر الآن ليس فيما إذا كنت تؤمن بما تفعله ام لا . مكيافيللي أخطأ عندما لم يوضح نواياه... كان يجب أن يقول إن الغاية الشريفة تبرر الوسائل الملتوية... أنت الآن تتبع منهجه تمامًا بتقييدنا هنا رغمًا عنا... لكن بحكم طبيعتك وبحكم نشأته، فأغراضكم مغايرة تمامًا لما نبحث عنه.

- من أنتم؟ أخبرني... ماذا حدث فِي جنيف؟

بدأت نبرة نيكولا تعلو مرة أخرى...

- ما الذي أرسله ماركوس إلى القاهرة؟

قال يوستينوس:

- نيكولا... لن تجد منا شيئًا يشبع شغفك ويطفئ لهيب تساؤلاتك.

هنا أشار نيكولا لرياريو أن يتركهما، فحاول رياريو أن يتحدث، فأشار له مرة أخرى بيده ألا يتحدث، ثم هز أصابعه فِي إشارة منه لكي يغادر.

انتظر نيكولا رياريو حتَّى غادر، وسحب إحدى الطاولات الصغيرة التي كانت ملاصقةً للحائط الأيمن، وأخرج حقيبة جلدية من جيبه وفتحها أمامهم لتلمع بما تحويه من أدوات معدنية حادة، ثم قال:- أنت أحمق يا يوستينوس.

- أنا مؤمن.

ضحك نيكولا، وسحب أداة تشبه كماشة الأسنان، وقال مبتسمًا:

- لا... لا... شتان بين أن تكون شجاعًا وأن تكون أحمقَ لا يعي ما يتوجب عليه الخوف منه.

زورق صغير لا يعرف الهدوء عصفت به الرياح الهوجاء فِي الظلام، يحمل بداخله رجلًا سبعينيًّا متقد العقل، ولكن اختُطف على غفلة... رفعته الأمواج مراتٍ عديدةً، وألقت به بين ظلمات وأعاصير... هكذا ظن فاروق، أو هكذا آمن بما حدث؛ فقلبه المكلوم لا حول له ولا قوة من بعدها... فمن يوم فراقها، وذهنه لم يحضر كاملًا كما هو الآن... يوم أن اجتمعت شجاعته، وقرر أن يعود إلى بلدته ليفاتح والده فِي أمر زواجه.

فبالرغم من أنه مدرس مساعد الآن، ويستطيع أن يقوم بنفسه وببيته، إلا أن الأعراف والعادات تحكم أنه يجب أن يعود فِي كل الأمور إلى والده بحكم ولايته، وبحكم أنه لا يزال حتَّى هذه اللحظة عمدة القرية، بالرغم من سنه الكبيرة.

ولكن هنا كانت الطامة الكبرى؛ فقد رفض الريفي العجوز بنت المدينة دون إبداء الأسباب، وأغلق النقاش الذي لم يبدأ... ولم يستطع فاروق أن يتماسك، فصرخ فيه أنه ظالم، ولا يعرف عن العدل شيئًا، ولا يسمح لعقله بسماع الآخرين، ولا يعطي قلبه فرصة ليفكر فِي مشاعرهم... فقام بركات الديب من مجلسه، وصفعه صفعة قوية، وطرده من المنزل كالعادة، وخرج فاروق مقررًا عدم العودة مرة أخرى.

اختطفته الأحداث الأخيرة، واقتلعت روحه من جذورها منذ صبيحة هذا اليوم... عندما التقى مبعوثي شيخ الأزهر... حتَّى هذه اللحظة التي يجلس فيها الآن فِي لين ويسر مصطنعين، وبجواره الدكتورة لارا أليكساندر... ألقى نظره على وجهها الصغير وعينيها الزرقاوين وملامحها المتناسقة وشعرها البني بأطرافه الذهبية، وتعجب مرةً أخرى من حالها... وأشفق عليها لوقوعها فِي تلك المتاهة معه، ولكن ها هو الآن يعود لمشاعر الحنق؛ فهو يسخط على

رجل كان يقدسه طوال حياته، ويعتقد أنه قامة من قامات الإسلام، ولكن بسبب حماقة هذا الرجل، أحاطت بفاروق أكداس وأكداس من المؤامرات والمكائد. ولن يعرف فاروق من الآن أيَّ سلام أو راحة... وما ذنب تلك المرأة فِي كل ذلك؟ وما حكمة الله فِي أن يسقط كلاهما بسرعة البرق فِي صراع بين قوتين تكاد كل منهما تفتك بالأخرى؟ ويا لسخرية الأقدار! كل منهما قلبه معلق على ضفة غير الآخر.

تحدثت لارا لتعيد فاروق من خياله الأليم إلى واقعه الأكثر إيلامًا:

- ماذا الآن؟

- للأسف حتَّى هذه اللحظة ليس لديَّ أي حلول... حتَّى بعد فك شفرة الوثيقة، ما زلنا عاجزين عن فهم معادلاتها دون مساعدة مفكرة أو كتيب الدكتور ويلسون.

- أي كتيب؟

- بالتأكيد لديه مفكرة صغيرة بها شرح كامل لهذه المعلومات.

- إذًا ماذا تقترح؟

- أمامنا العديد من الخيارات... يمكننا أن نلقي بالأمر خلف ظهورنا، وكأن شيئًا لم يكن، أو يمكننا الاتصال بأحد فِي الڤاتيكان أو من أقرباء ويلسون، وأعتقد أن فِي ذلك خطورةً... أو يمكننا العودة للوثيقة.

- دكتور فاروق... ليس بعد كل هذا العناء تريد أن نلقي بالأمر بسهولة هكذا... أنا واثقة أن هذا الكلام لم يخرج من فؤادك...

ثم تابعت محاولةً تجنب النظر إلى عينيه:

- وأعتقد أن الاتصال بالڤاتيكان به خطورة شديدة. فلِمَ أرسل البابا الوثيقة فِي سرية تامة من البداية؟

- إذًا العودة للوثيقة.

قالت لارا فِي حماسة مصطنعة:- نعم، العودة للوثيقة.

سلمها فاروق الوثيقة لتضمها للأوراق التي كانت أمامها، وعاد لحاسوبه، وبدأ يبحث عن أي شيء له علاقة بأبحاث ويلسون زوستاك.

وبعد فترة صمت طويلة دون أي تقدم، تأملت لارا فاروق وهو منهمك فِي القراءة، وعيناه تتحركان ذهابًا وإيابًا أمام شاشة الحاسوب. سرحت بخيالها فيه، وتعجبت لِمَ لَمْ يتزوج رجل وسيم وذكي مثله حتَّى الآن. وقاومت نفسها لتمنعها من السؤال، ولكن أخيرًا قالت دون أن تشعر:

- دكتور فاروق... لم لم تتزوج إلى الآن؟

لم يرد فاروق، وظل ينظر إلى الشاشة أمامه، لكن دون أن يحرك عينيه، أو يرى بهما. لاحت أمامه وتذكرها حين ضاقت به الدنيا مع والده ولم يدرك ما فعله حتَّى وجد نفسه أمامها يعترف لها بحبه وبرغبته فِي الزواج بها... وكانت المفاجأة أنها كانت تكنُّ له المشاعر. وظلا يعيشان قصة حب ملهمة للكتاب والروائيين، لكنها بعد خمسة أشهر اكتشفت أنه لا يستطيع الزواج بها دون موافقة والده، فاضطربت العلاقة سريعًا كما اشتعلت سريعًا... وقرر فاروق أن يعود لوالده مرة أخرى وأخيرة ليقنعه أو يبلغه بأنه سيتزوجها.

لكن عندما دخل الدوار القديم بعد تجديده، وجد والده يجلس على كرسيه فِي نفس الغرفة التي كانت تفوح منها رائحة الدهان الجديد ومعسل عباس. تعجب بركات، ولم يتمالك نفسه عند رؤية فاروق، فصرخ به وقال:

- ما الذي أتى بك إلى هنا يا فاسد.

لم يرد فاروق، وتوجه وركع أمامه ليقبل قدميه، ويطلب العفو والغفران على غيابه الطويل.

لم يتأثر قلب العمدة المصنوع من الحجر، وقال:- ماذا تريد؟
- أريد أن نتحدث قليلًا.
- لا حديث بيننا يلزمني.
فاروق: يلزمني أنا.
لم يرد بركات، وأشاح بنظره، فتحدث فاروق بأنه ما زال مغرمًا بالفتاة ولا يستطيع أن يخرجها من عقله وأنه لا يزال يريد الزواج منها، ويريد مباركته وموافقته لأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك دونهما.
قام العمدة من كرسيه، وألقى الـ "لي" من يده، وقال:
- قلت إنه لا زواج منها؛ وإن صممت فاذهب وافعلها، لكن اعلم أن ليس لي أولاد، وأني تبرأت منك إلى يوم الدين.
خرج فاروق تائهًا لا يعلم ما العمل. حبه لها أم ولاؤه لوالده؟ ضاقت الدنيا من حوله، وكاد أن يفقد وعيه... الأمر الآن يتلخَّص فِي إما أن يخرج من تحت طوع والده ويفوز بحب عمره أو يتركها ليفوز برضا والده وآخرته، ويضحي بحياته وأحلامه ويظل على عهده ووعده لحبها ما استطاع، ويموت ألف مرة ومرة قبل أن يغادر دنياه.
سألت لارا مرة أخرى فاروق الذي بدا أنه قد سافر بذكرياته بعيدًا:
- ألم تحب؟
أطلق فاروق زفيرًا معبئًا برماد سنين من الألم، وصمت لفترة قصيرة ثم قال:
- أعتقد أنه لم يوجد على الأرض من أحب مثلي.
لارا: كيف؟
- يمكنك أن تقولي أني كنت مثل إيكاروس؛ ما إن حلقت نحو الشمس حتَّى أذابت الشمع وتقطعت أجنحتي، فسقطت دون أن أهنأ بشيء من نعيمه.

- لِمَ لم تتزوجا؟

- لقد كان أبي عمدة قريته، لكنه كان ذا عقل ضحل، ورفض أن أتزوج من فتيات المدينة... وكان ديكتاتوريًّا لا يقبل حتَّى فرضية وجود نقاش بيننا.

- وماذا بعد؟

- لقد فضلت أن أعيش فِي ظلال حبِّها على أن أعيش مع غيرها...

- وهل ما زلت تذكرها.

- كل يوم... من بزوغ الفجر حتَّى سبات الأرض.

- وهي؟

- لا أعلم...

- ألم تحاول أن تتواصل معها؟ حتَّى بعد رحيله؟

- لم أستطع... ماذا لو كانت حظيت بحياة مع غيري؟

- ماذا لو لم تكن؟!

- لا أعرف... أظن أني كنت أجبن من أن أحاول اكتشاف ذلك.

- حدثني عن حبك لها... هل أحببتها بجنون.

- لا، عشقتها.

- وما الفرق؟

تطلع فاروق إلى السماء من النافذة، وقال بلغةٍ ثابتةٍ وصوت رزين، وكأنه يقرأ من كتاب:

- ما بين الحب والعشق كمثل برزخ يفصل بين متشابهين غير متماثلين ليس لهما أن يختلطا؛ فالعشق درجة أقصى وأقوى. ويقولون دومًا إن الروح من حديد لا تخرج مع حبيب؛ لكن العشق مرتبة أخرى صعب الوصول إليها، والسقوط منها مميت؛ فالحب أعمى لكن العشق فاقد لكل الحواس. يجعلك

لا تسمع ولا ترى ولا تشعر دون المعشوق.

تنهَّد قليلًا ثم تابع:- الحب... لهوٌ ممتع على أديم تلال القلوب... لكن العشق كغرس ألوف النباتات فِي تلك التلال... فإن اقتلعتِهم، ما عاد شيء ليملأ فراغها، أو يحل مكانها.

قالت متعجبة من أسلوبه فِي وصف عشقه:- ما أروع ذلك!

- لا، ليس بروعة مشاعري نحوها؛ فأنا لا أستطيع أن أصف لكِ شغفي وعشقي لها، لكن كل ما أستطيع قوله أنه بعد ضياعها مني، أصبحت كالموارق، فقط عالم معتم بدون نجم يهديه. أسبح فِي ليل سرمدي دون هدف، منبوذًا يتيمًا... لا أجد بين الشموس ما يؤويني. حلمت بعائلة وأولاد معها، لكن حظي كان كحظ جرم لم يجد مجموعة تؤويه ولا شمسًا تجذبه ولا نظامًا يحتويه... كويكب وحيد لم يأخذ نصيبه وسط ميلاد هذا الكون النظامي المتكامل المليء بالفوضى...

- تشبيهك مؤلم.

- ما رأيته فِي حياتي أكثر إيلامًا... وكنت دائمًا أعتقد أن الطريق إلى أعالي الفردوس يبدأ من أدني مكان بالجحيم ولا يخلو من بحور الظلمات، وبالفعل بدأت من الجحيم، لكنني خرجت إلى جحيم أخرى.

لم يستطع فاروق أن يكمل حديثه، وتحرك ناحية النافذة ليتطلع إلى أكثر النجوم لمعانًا الليلة... كما يفعل دائمًا. ففي آخر لقاء لهما، قال لها إن لم يساعدهما القدر فِي أن يجتمعا، فسيحدث السماء عنها كل ليلة، وسيخرج ليحدث أكثر النجوم لمعانًا عنها. وأينما كانت فِي أي وقت من الليل، إن خرجت وتطلعت إلى السماء، فلتنظر إلى أكثر النجوم لمعانًا، وستجده على الناحية الأخرى منها يدعو لها أوقاتًا، ويتغزل بها أوقاتًا، ويشكو لها كثيرًا، ويحن لها دائمًا... فقد كانت

هي وطنه، وكان هو جنسيتها، لكن احتلال الزمان قد غدر بهما وفرَّقهما دون أن يدريا...

لكنه لم يستسلم حتَّى الآن... فلا يوجد فِي الطبيعة شيء أخطر من رجل محبط فِي مهمة مستحيلة، وحبه لها كان مهمة مستحيلة، لكنه فضل أن يعيش فِي الظلال على أن يؤرق حياتها... أو على الاقل هو يعتقد ذلك.

شعر فاروق بيد لارا على كتفه.

- هل ستصدقني إذا قلت لك إني أشعر بك تمامًا، وإن كان جرحي أشد إيلاما، فقد حصلت على حبي، وفزت به لسبع سنوات ثم فارقني.

استدار فاروق، وقاوم رغبة شديدة بداخله أن يحتضنها، ثم قال:

- أتعلمين؟ دائمًا ما كانت والدتي تقول لي إن القلوب ثمرات علقها الله فِي أرواح عباده؛ إن لم تُقطف سقطت، وإن لم تُجمع ذبلت. وأوقاتًا يكون القاطف أو الجامع أسوأ عليها من الدهر؛ فالرحمة بقلوب الآخرين من أسمي وأنبل الأعمال وأقربها إلى قلبي... لكننا لم نجد من يرحم قلوبنا.

بدأت الذكريات تداعب لارا، وأوشكت على البكاء، وأوشك فاروق على أن يحتضنها ليطفئ لهيب وحدتهم... فالوحدة والهم وضيق الحال أشياء من الممكن بسهولة أن تحول الملائكة إلى مسوخ... استجمع فاروق قواه، وتحرك بعيدًا، وقال:

- علينا العودة للوثيقة...

فكر فاروق وهو ينظر إليها فِي أحلامهما التي لن تسعها إلا القبور، وكلماتها التي لن يسمعها إلا رماد الموت، وآمن أنهما لن يجدا أحن من الموت.

تساءلت لارا:- سؤال أخير فقط.

فاروق: تفضلي.

– اعذرني، لكن بالرغم من حبك وعشقك لها، هل كان أسمى وأرقى من أن تشتهيها وتنظر لجسدها.

– هل تقصدين شهوتي أم شهيتي لها؟

– وما الفارق؟

– هل تريدين فعلًا الخوض فِي ذلك؟

– بالتأكيد.

– انظري يا دكتورة... لقد أكد التحليل النفسي دائمًا على هيمنة الشهوة على الشهية؛ فالشهية أرقى لكن الشهوانية أقسى. والشهية مباشرة وصريحة، أما الشهوانية فهي بخلافها، تستوجب الأفكار المطولة والمشاريع المديدة والصبر لكي تنالي مبتغاكِ؛ فالعاشق يمكنه أن يكون صبورًا كالعالم؛ فشهوانية غرامه تنطفئ عند معدة عضوه الملأى. لكن شهيته ما تكاد تخمد حتَّى تتجدد وتتأجج نارها من جديد... لكن أنا لم أظفر بأيٍّ منهما... فظلت هي كفاكهة محرمة لم أذق لها طعمًا... وظللت أنا كعبد مخلص لا يرتكب الآثام. وأرجوكِ، هلَّا عدنا إلى ما يجب أن يشغلنا؟

– حسنًا... آسفة.

عاد كلاهما إلى الطاولة، وإن لم يفعلا شيئًا مفيدًا غير التقليب فِي الأوراق دون التركيز أو الاهتمام، حتَّى تحركت لارا حركة مفاجئة، وقالت:– ما هذا؟

نظر لها فاروق. كانت تحمل الوثيقة بالقرب من أنفها وكأنها تشمها، فسألها:

– ماذا؟

أعطته الوثيقة فِي يده لكي يفعل مثلها... وما إن وضعها بالقرب من أنفه حتَّى شم رائحة الليمون النفاذة، فقال لها: ليمون.

ردت فِي حماسة شديدة:– بالطبع...

سألها:- بالطبع ماذا؟

لم ترد لارا، لكنها تذكرت دراساتها للاضطهاد المسيحي فِي مختلف العصور، وبالأخص الاضطهاد الذي طالهم من قبل الإمبراطورية الرومانية، والذي بدأ منذ صدور مرسوم طرد المسيحيين فِي عام 58، ولم ينتهِ إلا بعدما أصدر قسطنطين مرسوم ميلانو عام 312... وما بين المرسومين، عانى المسيحيون ما عاناه المسلمون فِي محاكم التفتيش، وأذاقهم نيرون ما أذاقه هتلر لليهود، ومن بعد نيرون جاء دوميتيان الذي أحرق كل من رفض تأليهه أو الخدمة فِي جيش الإمبراطورية. وفي ذلك الوقت، بدأ التقويم القبطي الذي كان فِي الأساس التقويم المصري أو الشمسي الذي وضعه قدماء المصريين لتقسيم السنة؛ وكان التقويم الشمسي يعتبر أول تقويم عُرف للبشرية، وقد اعتمد على دورة الشمس، وتعرض للتغير عدة مرات، منها أيضًا ما تم فِي عهد بطليموس الثالث. وفي خضم كل ذلك، كان الرهبان والكهنة مختبئين تحت الأرض وخارج المدن، ولم يجدوا وسائل اتصال إلا عصير الليمون... وقد اكتشفت هذه الوسيلة بالصدفة على يد الراهب بييترو داسانتيالو عندما سكب عصيرًا على إحدى الرسائل، واختفى بعدها أثره، وعندما وصلت الرسالة إلى صديقه أدالمو فِي روما واطلع عليها، هم بإحراقها، فظهرت آثار على الورقة عند الاحتراق. وعندما أخبره بذلك، فهم بييترو فورًا، وبدأ بعدها فِي محاولة كتابة رسائله بالليمون، وإن كان قد أخبر رفقاءه بإحراقها وقراءتها سريعًا، لكنهم فشلوا فِي ذلك، حتَّى تنبه ذات يوم بعد عدة محاولات أنه بحرارة النيران فقط وليس بلهيبها يمكن إظهار ما كُتب بالليمون.

قالت لارا:- أحسنت اختيار الطريقة يا بينتولا.

فقد أُعجبت ببساطتها وارتباطها بالاضطهاد الديني لرفقائه.

أخرجت لارا قداحتها وهي تشرح لفاروق الأمر الذي قد فهمه على الفور، وأشار لها ألا تكمل حديثها، وأن تتابع تسخين الورقة بحرص.

بدأت لارا بتعريض أطراف الوثيقة للهب حتَّى ظهرت فعلًا حروفٌ على طرف الورقة الأيمن، فنظر فاروق من فوق يديها ليجد أرقامًا لاتينيةً.

XXI XVIII VIII XIII N
XXXV XXXVI XXIX LVI E

تساءل فاروق:- ما هذا؟

ردت لارا:- لا أعرف. بعض الأرقام اللاتينية.

تابع:- الطرف الآخر!

بدأت فِي تسخين الطرف الآخر من الوثيقة حتَّى ظهرت لهما كلمات... قرأتها لارا بصوتٍ عالٍ:

- fra dentifil et seilf.

تابعت:- أظن أنها إيطالية.

- ماذا تعني؟

- بين دنتيفيل وسيلف.

- ليس هذا ما أقصده... أقصد المغزى.

- أنا مثلك تمامًا لا أعرف ما المقصود بدنتيفيل أو سيلف.

- هل هما أماكن؟

- احتمال...

بدأ فاروق فِي البحث عن أماكن تحمل الاسمين لكن دون فائدة.

- ليس هناك مكان بهذا الاسم... اللعنة... حاولي مرة أخرى مع باقي الأطراف.

حاولت لارا بالفعل، لكنها لم تجد شيئًا... يبدو أن الوثيقة قد أفضت بكل

أسرارها.

-لا شيء...

قالتها لارا فِي يأس.

زفر فاروق، وارتفع صوته قائلًا:- اللعنة... اللعنة عليك يا بينتولا أنت والغرباوي.

- اهدأ يا فاروق... بالتأكيد سنجد الحل.

- لا لن أهدأ... ألا ترين؟ نحن ندور فِي دائرة مفرغة منذ الصباح، ولا أمل فِي الوصول إلى شيء. لقد كان بينتولا رجلًا خرفًا، وكذلك الغرباوي.

ردت لارا فِي هدوء:

- انتظر قليلًا وفكر بعقلانية، ولنفترض أن بينتولا كان عبقريًّا... فمن المحتمل أن دنتيفيل وسليف ليسا مكانين... من المحتمل أنهما أسماء لأشياء أو أشخاص، وعلينا العثور على ما بينهما. من الممكن رابط أو شيء من هذا القبيل.

- هل تريدين مني أن أبحث؟

- لا، اتركني أنا أبحث هذه المرة، وخذ هذه، وحاول أن تهدئ من روعك قليلًا.

- لا... لا أدخن.

- حسنًا، هذا يفسر.

- ماذا؟

- مزاجك المتقلب.

ابتسم فاروق، ومد يده، وأخذ السيجارة، وترك لها الحاسوب، وقام متجهًا للنافذة، ليجد أن الظلام قد استحلك، وازدادت النجوم لمعانًا، فعاد ليحدثها،

ويتأسف لها على ذكراهما الأخيرة عندما فضل أن يبتعد عنها على أن يظل معذبًا لها معه.

يومها قال لها أنه تعب من المحاولة، وعليه أن يستسلم، وعليها هي أيضًا أن تذهب لتهتمَّ بحياتها، وأن الدنيا لن تقف عليه.

حتى هذه اللحظة لم يعرف فاروق إن كانت هذه الخطوة هي الصحيحة أم لا. لم يحب أن يرى الدموع فِي عينيها وقتها، ولم يستطع تمالك مشاعره، فلبس نظارته الشمسية فِي محاولة فاشلة لإخفاء دموعه، وتركها وغادر، ولم يحاول التواصل معها منذ ذلك.

بحث وسط النجوم حتَّى وجدها... النجمة الأكثر لمعانًا... ثم بدأ يحدثها عن همومه، وما وقع بها، وكم يشتاق إليها، وكم تتوق نفسه لرؤياها حتَّى يطمئن قلبه وسط هذه الحرب... أخرج صورتها من محفظته ونظر إليها طويلًا متأملًا عينيها دون حديث.

فجأة نادته لارا فِي حماسة وهي تتطلع إلى شيء ما فِي شاشة الحاسوب، فأعاد الصورة إلى محرابها، وذهب إليها. وقف خلفها، فأدارت كرسيها باتجاهه، وقالت مبتسمة:- كم كنت حمقاء!

- ماذا؟

- أسمعت من قبل عن الدبلوماسي والأسقف؟

- لا.

- حسنًا... فِي أثناء دراستي لعصر النهضة، كانت هناك دائمًا لوحة من أكثر اللوحات إثارة للجدل. كانت هذه اللوحة تُدعى لوحة السفيرين لهانز هولبيان، وهي تعتبر شاهدًا حيًّا على العديد من إنجازات ذاك العصر.

تحركت لارا قليلًا بعيدًا عن الشاشة، لتظهر أمام فاروق اللوحة التي تحدثت

عنها. كانت اللوحة عبارة عن وصف تفصيلي دقيق لرجلين يقفان فِي شموخ وثقة، ولا تخلو أعينهما من نظرة ثاقبة باردة. وتظهر اللوحة أن كليهما رجلٌ ذو شأن وعلم، فكان الأول يرتدي زي أسقف، والثاني يرتدي رداءً فاخرًا مزينًا بالفرو، وقلادة ذهبية على صدره؛ لكن روعة وجمال اللوحة كانا فِي ما بين الرجلين...

منضدة تعرض أدوات وأشياء متناثرة على كلا رفيها العلوي والسفلي... فأما السفلي فكان يحمل عودًا وتريًّا قُطع أحد أوتاره، وجرابًا لآلات الفلوت، ومثلثًا وفرجارين، ومجسمًا لكرة أرضية وكتابين أحدهما كتاب الترانيم لمارتن لوثر، والآخر كتاب رياضيات أو (الحساب للتجار) كما كان يطلق عليه وقتها.

أما الرف العلوي، فيضم كرة سماوية ومزاول وجهاز ربعية. ولعل كلًّا من هذه الأدوات وترتيبها كان له غاية معينة عند هولبيان. وفي أسفل اللوحة شكل مشوه غير واضح... أمال فاروق رأسه قليلًا، ثم سألها:

- هل هذه راهبة؟

قالت لارا بصوتٍ عالٍ:

- رائع... إن لديك نظرة ثاقبة. فِي الحقيقة لا أحد يستطيع رؤيتها، وكل من ينظر فِي الصورة يرى أنها جمجمة، ولكن ما لا يعرفه العامة أنك إذا أملت رأسك لليمين قليلًا فستجد أن هناك راهبة تقف بخشوع أمام مذبح... ولكن ما يهمنا الآن هما هذان الرجلان.

تساءل فاروق:- من هما؟

- السفير الفرنسي لدى البلاط الملكي الإنجليزي (جان دي دنتيفيل)، وأسقف لافور (جورجدي سيلف)... دنتيفيل وسيلف.

- إذًا عمَّ نبحث هنا؟

- عن شيءٍ بينهما... لكن ما أكثر الأشياء التي بينهما! فهذه الأشياء ترمز عمومًا إلى الفنون السبعة الحرة. ولعل دنتيفيل وسليف نفسيهما يمثلان ثلاثي المقدمات، أي النحو والمنطق والبلاغة؛ فأحدهما سفير والآخر أسقف. وما على المنضدة يرمز إلى الرباعي العلمي، ولا أستطيع أن أجزم بما يقصده بينتولا بتلك الأيقونات.

اقترب فاروق من الشاشة ليتأمل اللوحة ويسأل:- إذًا ماذا؟

اقتربت لارا هي الأخرى من الشاشة، وبعد لحظات من التدقيق قالت:

- انظر لهذا الكتاب... إنه كتاب الترانيم لمارتن لوثر، والأرقام التي وجدناها من المحتمل أن تعود على شيء فِي هذا الكتاب.

- هل تعتقدين أن علينا العثور على نسخةٍ منه؟

- لا... أعتقد أن علينا العثور على النسخة الأصلية منه.

- ماذا؟ هذا احتمال بعيد، ويمكن أن يكون بدون جدوى. ولم هذا الكتاب دونًا عن كل ما فِي اللوحة؟

- أنا متأكدة... انظر... إن اختيار بينتولا للوحة لم يكن قط عشوائيًّا، وكذلك اختيار هولبيان للكتب... لو دققت فِي اللوحة، فستجد أن كتاب الترانيم كان مطبوعًا... وفي ذلك الوقت كانت الطباعة نادرة، وكان النصيب الأكبر للنمنمة والنقش. وبالرغم من أن الطباعة كانت قد ظهرت فِي ذلك التوقيت بالفعل وبدأت الكتب المطبوعة فِي الانتشار، إلا أن الطباعة كانت من أكبر هواجس الكنيسة... فكان من النادر أن تجد كتابًا دينيًّا مطبوعًا... لكن هيهات. لم تكن الكنيسة لتسيطر على ذلك... فحتى إن كان باستطاعتها قتل المنمنمين، فمن المستحيل أن تطارد أدوات الطباعة وتدمرها. وقتها كانت الطباعة عن طريق تجميع الصفحات وتنظيم ترتيب حروفها على ألواح خشبية بحجم

الورق لتكون الكلمات بارزة عن اللوح بطريقة معكوسة ويتم وضع الأوراق بينها وبين ضاغط أصم ممتلئ بالحبر لتظهر الحروف على الأوراق، ويتم عمل ذلك عشرات المرات على نفس الصفحة، ثم تترك وتتم إعادة الأمر على الصفحة التالية، وفي النهاية يتم تجميع الكتاب وخياطته.

- إذًا أين يوجد الكتاب؟

لم ترد لارا، فكرر فاروق:

- لارا... أين يوجد الكتاب؟

نظرت له فِي حيرة، وقالت:

- أعتقد أن النسخة الأصلية موجودة فِي أرشيف الڤاتيكان.

***

هدوء تام... سماء صافية من الغيوم. لا صوت إلا هدير بعض الحمامات التي تداعب الهواء بأجنحتها مبتعدةً عن نوافذ غرفة البابا.

جلس بينتولا يتأمل السماء الصافية، وقلبه يختلج بمشاعر متناقضة لا يعرف لها منبعًا ولا مصبًّا. دخل يوستينوس الذي قد وصل إليه منذ لحظات طلب البابا ورغبته فِي لقائه، فوجد بينتولا محركًا كرسيه بالقرب من الشرفة، وقد وضع كرسيًّا آخر بجواره فِي انتظار يوستينوس.

تحدث الأخير فِي هدوء:- هل طلبتني قداستك!

قال بينتولا دون أن يلتفت، وقد ظل متأملًا السماء:- تعالَ يا بني... اجلس بجواري.

جلس يوستينوس بجواره فِي هدوء، ولاحظ أن عينَيْ بينتولا لا تزالان معلقتين بالسماء، فلم يتحدث هو الآخر، واحترم صمت بينتولا الذي استمر لثلاث دقائق... ثم بعدها قال بينتولا:

- نعم... كان براكوس شجاعًا، وخلص الإمبراطورية من أحمق طاغية.

قال يوستينوس دون تردد:ـ بالفعل، معك حق تما...

توقفت الكلمات فِي حلقه، ونظر إلى البابا، وقال له:- كيف؟

ابتسم البابا، ولم يقل شيئًا، فعاد يوستينوس يردد:- كيف عرفت فيم أفكر؟

فقال له البابا:- اهدأ يا عزيزي... لا أحتاج لمعجزة لأعرفك أو أعرف كيف تسري الأفكار فِي عقلك.

وأردف:- أعتقد أنك الآن لا تستهين بي أو بمعرفتي وقدرتي على الاستنتاج والوصول إلى الحقائق المبهمة.

- بالطبع... لكن كيف علمت؟

- ستعرف... الأهم الآن أن تصارحني... هل ستتبعني فِي دربي؟

لم يسأل يوستينوس عن قصده، لكن إيمانه ببينتولا جعله يرد على الفور بالإيجاب، فعاود بينتولا حديثه قائلًا:

- حسنًا، أعرف أنك لن تسأل... ولذلك لن أجيب... فعليك أن تصل بمفردك، أو على الأقل تساعد من سيحتاجك.

- كما تريد قداستك.

تابع بينتولا:- انظر... ستحدث أمور شنيعة الأيام القادمة... فالشيطان يحوم الآن حولي، ولا أستطيع أن أتحرك... كنت أعتقد أنني المنارة التي ستضيء للعالم أذهانهم، لكن لم يكتب لي ذلك... منذ أسابيع وأنا أحاول، لكن علمت أن مهمتي هي الصمت وتسليم الرسالة لأحد من بعدي حتَّى لا أهدم ما كان من قوتنا وعراقتنا.

- لا أعي ما تقصد.

- سيأتي الوقت وتعرف... كما قلت لك، الأيام القادمة ستشهد حدثًا شنيعًا.

- ما هو؟

- سوف يتم قتلي.

صرخ يوستينوس:- ماذا؟

- اهدأ يا عزيزي... عليك أن تتماسك... فذلك سيحدث عاجلًا أو آجلًا.

تنهد بينتولا طويلًا، ثم تابع:

- أولًا عليكم أن تتكتَّموا على الأمر، وأعلِنوا أنها سكتة قلبية؛ وهنا ستبدأ مهمتك.

- كيف؟

- أريدك أولًا أن تعلم أنه سيكون هناك تلاعبٌ فِي الانتخابات من بعدي، وفي الغالب سيكون نيكولا هو الخليفة.

- مستحيل... لا يمكن أن أترك هذا يحدث.

- بالعكس... عليك أن تفعل؛ وبعد الإعلان ستخرج بعض الشائعات، ولن تجدوا جثماني، وسيتحرك نيكولا وسيفعل أي شيء لدرء تلك الشائعات، وسيقوم بأفعال رهيبة... وسيكون تكبيلك وسجنك أنت وبريستلي وسوزيني أحدَها.

- بريستلي وسوزيني؟!

- نعم، بحكم أنهم كانوا معي فِي جنيف.

تردد يوستينوس قليلًا، لكن فِي النهاية سأل:

- ماذا حدث فِي جنيف؟

- ستعرف فِي الوقت المناسب... هم لا يعلمون أيَّ شيء، فلا خوف منهم ولا خوف منك أنت أيضًا. الخوف عليكم... لكن مهما حدث يا عزيزي، عليك الالتزام بخطتنا.

- كما تريد قداستك.

ابتسم بينتولا، وتأمل وجه يوستينوس، وقال:

- ماذا بك؟ هل أنت خائف؟

- قليلًا... لكن يا أبتِ إني لأعجب من قوتك وشجاعتك.

- صدقني يا يوستينوس، لقد عانيت بشدة حتَّى أكون بهذا الثبات أمام الجميع.

- حسنًا... أنا تحت طوعك.

بدأ بينتولا يشرح ليوستينوس ما عليه فعله، وما يتوجب عليه تجنبه، حتَّى غابت الشمس، وقام الأخير لإعداد الشاي قبل الصلاة، وجلسا معًا فِي صمت يحتسيان الشاي فِي هدوء حتَّى استجمع قواه، وطاف بعيدًا عن كل تلك الأهوال التي سمعها منذ قليل من بينتولا... وقال أخيرًا:

- ما زلت أتعجب!

فسأل بينتولا وهو يعلم:- ممَّ يا عزيزي؟

- من ردك على أفكاري عندما قلتَ لي إن براكوس كان حقًّا شجاعًا.

- حسنًا، أعتقد أنك لن تهدأ حتَّى تعرف.

- بالطبع.

- سأقول لك... عندما دخلت عليَّ احترمت صمتي، وجلست بجواري، ورأيتني أتطلع إلى السماء، ففعلت مثلما أفعل... وعلمت وقتها أن عقلك بدأ فِي رحلته عبر عجائب الخالق، ثم نزلت عيناك ونظرت إلى المسلة القائمة فِي منتصف الساحة، وظلت عيناك لا تتحركان لمدة دقيقة. كانت هذه الدقيقة كفيلة أن تأخذك فِي رحلة مع الإمبراطور كاليغولا الذي جاء بتلك المسلة من مصر ووضعها فِي المسرح الروماني... ثم وجدت الامتعاض يظهر على وجهك، وذلك بالتأكيد لأنك تذكرت كم كان طاغية وصاحب تاريخ وحشي، واعتقدت بينك وبين نفسك أن هذه المسلة لا يجب أن تكون موجودة هنا... بعدها رأيتك وقد توجَّهت ببصرك نحو الغرب، ولاح على وجهك شبحُ ابتسامة شماتة... فعلمت أنك تفكر فِي كسرته وقهره عندما لم يستطع بسلطانه وجبروته أن يأتي بالشمس من مغربها... ثم اتسعت ابتسامتك... عندها عرفت أنك بالتأكيد تفكر فِي المأدبة التي أقامها لتعيين جواده عضوًا فِي مجلس الشيوخ... وذهب إليه سادة القوم والأعضاء محملين بالهدايا ومرتدين أفخر ما عندهم، وفوجئوا أنه ليس بالمأدبة غير الشعير والقمح... ثم بانت عليك الحماسة مختلطةً بالضيق، وبعدها أظهرت ارتياحًا شديدًا لما فعله براكوس فِي المأدبة، وقد أنهى وقتها حياة ذلك الطاغية.

- هذا... لا أعرف... إنه... مبهر!

- لا يا بنيّ... إنه المنطق... المنطق الذي يحل معظم المعضلات.

- معظمها؟

- نعم... المنطق نتاج عجز الفلسفة عن تفسير أشياء كثيرة، والدين نتاج عجزهما معًا عن تفسير أشياء أكثر.

لم ينطق يوستينوس، وظل يتطلع إلى بينتولا مبهورًا ومصدومًا فِي آنٍ واحدٍ... قام بينتولا من مجلسه، وتوجه ناحية الشرفة، وأشار ليوستينوس بيده أن يتبعه... ففعل.

***

سمع يوستينوس صرخات زملائه، وفتح عينيه على ظلام الغرفة الذي لا يكسره إلا بصيص نور يأتي من مصباح فِي نهاية الرواق المؤدي إليهم. كان قد فقد العديد من أظافره، وسال منه الكثير من الدماء، وفقد وعيه لفترة طويلة، قام فيها نيكولا بتكرار ما فعله به فِي زميله.

بدأ نيكولا يفقد أعصابه، وعاد نحو يوستينوس وفي يده سكين صغير، وقال له بصوت يشبه فحيح الثعبان:

- مرحبًا... يا عزيزي... قُل لي... هل تؤمن بالرب؟

لم يرد يوستينوس، فصرخ نيكولا، وتردَّد صدى صوته بين جدران المكان:

- هل تؤمن بالرب؟

لم يأته رد فتابع:- هل تريد أن تقابله؟ هل أنت مستعد؟

قالها، ثم أمسك وجهه، ورفعه إلى الأعلى، ليتعلق نظر يوستينوس بالسقف الذي رُسمت عليه صورة هائلة الحجم تتسع للسقف بأكمله، وتصوِّر معاناة المسيح أثناء صلبه. أحس يوستينوس بالمعدن البارد على رقبته، وشعر بشفتَيْ نيكولا تلامسان أذنه.

- ستقابله الآن إن لم تتحدث.

قال يوستينوس:- حسنًا حسنًا...

ثم ردد بعض الأرقام.

- ما هذا؟

حاول يوستينوس التقاط أنفاسه، وقال بهدوء تعب:

- إنه رقم هاتف فِي القاهرة... لقد أرسل بينتولا وثيقةً إلى هناك، وهم فِي انتظار اتصال مني كي يأتوا إلى هنا لأنه قد خبأ لهم شيئًا هنا فِي الأرشيف... هم فقط على دراية به.

ابتسم نيكولا، وأخرج هاتفه، وأمر يوستينوس أن يكرر الرقم، وبدأ فِي الكتابة، واتصل به على الفور. وقبل أن يأتيه صوت الرنين، نظر إلى يوستينوس وسأله: - هل قلت إنهم يجب أن يأتوا إلى هنا؟

- ليس بعد... لكن أعتقد أنهم يعرفون.

- هل يعرفون أنك ستتصل بهم؟

- نعم... هي تعرفني باسم المخلص.

- حسنًا، هذا يكفي.

قال فاروق:- هذا جنون يا لارا... كيف لنا أن نصل إلى الڤاتيكان؟ وحتى إن استطعنا ذلك، فمستحيل أن ندخل الأرشيف.

- انتظر فقط. ألم أقل لك إني أيضًا مليئة بالمفاجآت؟

- ماذا تقصدين؟

- أعتقد أنه لا داعي لأن أخفي عنك... أنا لم أتبعك وأتصل بك لأني أريد أن أصل لقاتل البابا فقط... أنا تبعتك لأن أحدهم اتصل بي منذ شهر أو أكثر، وأعتقد أنه البابا نفسه قبل أن يموت، لكنه لقب نفسه بالمخلص، وقال لي أنه سيأتيني اتصال من شيخ الأزهر قريبًا، وأنه سيكون بحاجة إليَّ. وقال لي أيضًا أني سوف أضطر لأن أواجه بعض العوائق حتَّى أنجح فِي مهمتي.

فاروق: وكيف عرف أن الغرباوي سيحتاج إليك؟

- لا أعلم... هذه هي الحلقة المفقودة... من الممكن أن يكون قد خمن وعرف إلى من سيلجأ الغرباوي، وانتظر أن يلعب الحظ دوره...

- هكذا إذًا؟

- لا، لقد طلب مني أن أشتري رقمًا آخرَ غير مسجَّل، وقال لي أن أشتريه فِي اليوم الذي يتصل بي فيه شيخ الأزهر. ولم أصدقه وقتها، ولم أدرك أنه من الممكن أن يتصل بي شيخ الأزهر فِي يومٍ من الأيام، ولكنه فعل. وقد فعلت أنا أيضًا ذلك، واشتريت الخط قبل أن أستقل سيارة الأجرة وآتي إليكم، وأخبرني أن أرسل له الرقم.

توقف عقل فاروق تمامًا، ولم يعرف ماذا يقول، فقالت لارا:

- لا جدال فِي أن بينتولا كان عجوزًا عبقريًّا.

في هذه اللحظة، جاء صوت هاتفها المحمول كنداء خلاص للمنبوذين، فهرعت لترد، فسمعت على الناحية الأخرى:- E 'la scelta... è che si

Sì... Lara -

Sto aspettandotu -

أغلقت لارا الهاتف، وقالت:

– إنه بانتظارنا... علينا التحرك الآن فِي أول طائرة إلى مطار ليوناردو داڤنشي.

انتزعت رنة الهاتف جوليانو من ذكرياته... كان قد وصل منذ ساعات إلى مطار القاهرة، وظل منتظرًا الاتصال الذي قد أخبره به البابا... أجاب الهاتف... محدثه على الناحية الأخرى ذو صوت عميق ودافئ، ويتحدث الإنجليزية.

- جوليانو.

- نعم سيدي...

- للأسف يا عزيزي لقد فقدت أثرهم... عليك أن تنتظر قليلًا؛ فنحن لم نكن نتوقع هروب حامل الوثيقة.

قام جوليانو من مكانه غاضبًا، وأغلق الهاتف، وهم بالاتصال بالبابا وهو يحاول أن يهدئ من غضبه... فقد اعتاد النجاح فِي أيٍّ من المهام التي يوكلها إليه قداسته.

ظل يقطع صالة الانتظار الخارجية ذهابًا وإيابًا دون أن يرى أمامه... وأثناء محاولته الاتصال بالبابا، اصطدم بأحدهم، وأسقط هاتفه وحقيبته... التقط الهاتف، واعتذر للرجل الذي قد جرح فِي يده من أثر أحد الأجزاء المعدنية فِي الحقيبة، وظل يكرر اعتذاره... فتمتم الرجل بكلمات عربية غير مفهومة، وتركه وذهب هو ومن معه.

كان هاتف البابا لا يزال خارج الخدمة... عاد جوليانو ليجلس فِي هدوءٍ منتظرًا... لا يعلم ماذا ينتظر، لكن ليس أمامه خيار آخر.

- **هل** أنت بخير؟

كانت هذه لارا ممسكةً بساعد فاروق، وتحاول الاطمئنان عليه بعد أن أصابه جزء معدني من حقيبة أحد المسافرين.

- إنه خدش فقط.

- أنت تنزف.

- صدقيني هذا ليس نزيفًا... أنتِ لم تريْ إصاباتي السابقة.

ابتسمت لارا، وأخرجت منديلًا من حقيبتها، ووضعته على يد فاروق، فبادلها الابتسام، وتابعا سيرهما.

بعد أن استقلا الطائرة، ظلَّا يتحدثان. وعندما جاء الطعام، عم صمت مطبق؛ فقد كانت بطونهما تصرخ وتتلوى من الجوع... ثم غلبهما النوم، لكن كالعادة لم ينم فاروق إلا أقل من ساعة؛ والرحلة تستغرق من مطار القاهرة إلى مطار ليوناردو داڤنشي أكثر من ثلاث ساعات. نظر فاروق من نافذة الطائرة للنجوم، وبدأ فِي البحث عن أكثرها لمعانًا... وعاد ليحدثها ويسألها عن أحوالها...

لم تكن المسافة بين المطار والڤاتيكان تستغرق أكثر من أربعين دقيقة، وفي خلالها لم يتحدث أيٌّ منهما مع الآخر. ظلا فقط يتأملان بونتي غاليريا، والطرق الجانبية، والمنازل التي تحمل علامات من مختلف العصور، بدايةً من كلاسيكيات العصر الروماني واليوناني والإتروسكاني.

وداخل سيارة الأجرة أتى لارا اتصالٌ هاتفيٌّ ممن كانت تعتقد أنه البابا... واستعلم منها عن مرافقها، وأجل لقاءَهما إلى الغد، وطلب منها تغيير وجهتهما إلى أحد الفنادق القريبة من أسوار الڤاتيكان، وهو ديلا كونسيليازيون، وستأتي سيارة فِي الصباح لتقلهما داخل أسوار الڤاتيكان.

وصل فاروق ولارا إلى الفندق ليجدا غرفة محجوزة باسم لارا أليكساندر... فطلبا غرفةً أخرى، لكن لم يكن هناك أي أماكن شاغرة، فنظرا إلى بعضهما، واقترح فاروق أن يقضي الليلة فِي شوارع إيطاليا، أو يبحث عن فندق آخر، فقالت لارا:- لا تكن ضحل العقل. نحن بالغون...

- هذه هي المشكلة.

ضحكت لارا، وأعطته مفتاح الغرفة، وقالت:- من بعدك.

بعد أن أنهى نيكولا اتصاله بلارا، تذكر جوليانو الذي أرسله إلى القاهرة، فخرج واتصل به على الفور، وأخبره أن يعود... فحَمَلة الوثيقة قد جاؤوا إليه بإرادتهم.

وبعد أن أغلق معه، أمر رياريو أن يتخلص من بريستلي وسوزيني، وبعدها يساعد يوستينوس فِي تنظيف نفسه، وتضميد جراحه، والتعديل من هيئته لأنه غدًا سيذهب لمقابلة أتباع المهرطق بينتولا، وسوف ينتهي هذا الأمر نهائيًّا.

في صبيحة اليوم التالي، توجه رياريو ويوستينوس الذي لم يستطع إخفاء كل جروحه؛ فقد ظهر على جبينه جرح غائر، وتم تضميد بعض من أصابع يده التي انتزعت أظافرها، ولكنه قد أخفاها تحت جبيرة بيضاء. وعندما وصلا، كان فاروق ولارا فِي انتظارهما فِي رواق الفندق، فرحبا ببعضهما، وتحدث يوستينوس:

- لا أعرف كيف أشكركم... بالتأكيد لقد عانيتم من أجل مقابلتي.

سألت لارا:- هل أنت من كنا نتحدث معه على الهاتف؟

- بالطبع يا عزيزتي... لقد كلفني البابا بالاتصال بكِ من البداية... فقد كان قداسته يعرف أن الشيخ فِي النهاية سيلجأ إليكِ، لكننا لم نستطع تحديد من هو خياره الأول.

قالها، ونظر إلى فاروق.

لم يشعر فاروق بالارتياح، وبدأ يتأمَّل الجرح الذي فِي وجهه، ولاحظ يوستينوس ذلك، فقال له: - أنت بالتأكيد الدكتور فاروق.

فردت لارا:- إنه لا يتحدث الإيطالية.

فقال يوستينوس بالإنجليزية:

- إذًا من الأفضل أن نتفق على لغة حوار واحدة... مرحبًا بك يا دكتور... أعرِّفكم... هذا رياريو قائد الحرس، وأكثر من آتَمَنُهم على حياتي...
قال فاروق مقاطعًا الترحيبات والتعريفات:- هل عندكم فكرة عمَّ نبحث؟
رد يوستينوس:- نحن هنا طوع إشاراتكم... كنا نأخذ أوامرنا من بينتولا، والآن نعتقد أنه ورثكم كل معرفته.
ضحك فاروق وقال:- هذا مثير للسخرية... نحن لا نملك أكثر مما تملكون.
- والوثيقة... كان هذا رياريو.
نظر ثلاثتهم إليه، فقطع يوستينوس عليهم الحوار:
- ما هي الخطوة التالية باعتقادك يا دكتورة؟
ظلت لارا تنظر لرياريو لحظات، ثم فِي النهاية قالت:
- نحن نبحث عن كتاب الترانيم اللوثري. نعتقد أن البابا قد خبأ رسالةً بداخله. هل عندك أي فكرة عن مكانه؟

هنا لمعت ذكرى يوستينوس الأخيرة مع البابا، عندما أمره أن يلتزم بالخطة مهما حدث. ووقتها أكمل البابا حديثه الصادم، وأرسل يوستينوس لإحضار القائمين على خدمة الحبر الأعظم لنقل بعض الأدوات والأثاث إلى إحدى غرف الأرشيف السرية، وكان بجوارها مجموعة من الكتب، بينها كتاب الترانيم، فطلبه البابا وقتها، وأجَّل حفظه ليوم آخر، ثم أمر يوستينوس بعدها بأيام بحفظ الكتاب فِي إحدى الغرف أسفل الڤاتيكان.
ضحك يوستينوس وقال:- بالطبع... فأنا آخر من لمس هذا الكتاب، وقد خبأته فِي المكان الذي أمرني به البابا.
قال رياريو:- إذًا لماذا ننتظر؟ علينا التحرك الآن.
نظرت لارا لفاروق، وقد أبديا عدم ارتياحِهما لرياريو، ولكن لا خيار أمامهما

الآن، ولم يستطيعا أن يتبادلا الحديث إلا بعد أن وصلا إلى ساحة القديس بطرس، وتعلق وقتها نظر فاروق بكل ما فيها، فلم يستطع أن يملي عينيه بجمالها، والتأمل فِي معمارها.

كان المنظر أمام فاروق مهيبًا. الأعمدة التي تُحيط بالساحة والتماثيل من أعلاها بالتأكيد تزيد عن المائة... هكذا فكر فاروق. وبالرغم من شعوره بالضيق لوجود تلك المسلة المصرية الموضوعة فِي المنتصف، إلا أنه شعر بطاقة روحية هائلة تلتف حوله من كل مكان.

دلفا إلى داخل الكاتدرائية، ومنها اتجها إلى اليمين متخذين رواقًا واسعًا يُفضي إلى آخرين أضيق منه... أحدهما تصعد سلالمه، والآخر يهبط... فاتخذا الأخير، وبعدها دخلا إلى غرفة صغيرة يتوسطها سلم دائري يهبط أسفل الڤاتيكان.

كان السلم يفضي إلى طريق صخري طويل ممتلئ بالغرف يمينًا ويسارًا. كانت أبوابها من الحديد الصلب، وكانت تشبه الزنازين إلا أنها لم تكن تحتجز سجناء، بل لوحات وصناديق ومخطوطات وتماثيل وغيرها من الكنوز التي جمعتها الكنيسة على مر العصور. وفي نهاية الرواق، يقف باب حديدي كبير شُكِّل حديده على هيئة شجرة كبيرة تقف فِي المنتصف، وتنتهي فروعها على كلا جانبَي الباب، وتصل إلى نهايته العليا.

توجه يوستينوس ناحية الباب، وتبعه ثلاثتهم. كان يوستينوس يحمل مفتاح الباب بجيبه دائمًا منذ أن سلمه له بينتولا. فتح لهم، وأضاء الغرفة. كانت تعتبر غرفة ملحقة بمكتبة الڤاتيكان، لكن يبدو أنها تم إفراغها من كل محتوياتها إلا طاولة فِي المنتصف تحمل كتاب الترانيم، وستارة تغطي الجدار المواجه للباب تمامًا.

سمعا صوت أقدام آتية من نهاية الرواق، فتطلعا إلى الظل القادم نحوهما... لحظات وخرجت من لارا شهقة مرتفعة إثر صدمتها لرؤية وجه البابا.

كان نيكولا مرتديًا زيه وتاجه، وخلفه أحد الرهبان، وقد أخفى وجهه بزي الكهنة الذي يرتديه، ولم يظهر منه غير ذقنه المدبب الأملس.

ظل الجميع يحدقون فِي بعضهم البعض، ولم يستطع فاروق أن يفسر مشاعره فِي تلك اللحظة أو أفكاره، وكأنه قد شل تمامًا.

قال نيكولا:

- لا داعي للخوف يا أصدقائي... أنتم هنا فِي ضيافتي، ووجب عليَّ أن أرحب بكما وأساعدكما... مرحبًا بكِ دكتورة لارا... أظن أننا تحدثنا فِي الهاتف مرتين.

صُدمت لارا، ونظرت إلى يوستينوس... ثم قالت:

- كيف؟ من منكما تحدث معي؟ هل أنت المخلص؟ هل أنت من وكله بينتولا من بعده.

- بالطبع يا عزيزتي... وإلا لما أصبحت الحبر الأعظم...

أنهى جملته، وابتسم لها، فظهر عليها شيءٌ من الارتياح، وردت له الابتسامة... لكن لم يكن فاروق يفهم أيًّا من كلامهم، وكانت عيناه لا تزالان معلقتين على مُرافق البابا المختفي فِي الظلام.

قالت لارا:- هلّا تابعنا ما كنا نفعله؟

رد نيكولا:- بالتأكيد... لا أريد أن أعطلكم.

أنهى حديثه، ونظر إلى يوستينوس الذي تردَّد ولم يعد أمامه خيار، فتوجه إلى المنضدة، وعاد نحو لارا حاملًا بيده كتابًا ضخمًا ذا غلاف جلدي أملس أصم إلا من نقش غائر لصليب فِي منتصفه.

سلمه إلى لارا التي ما إن فتحته حتَّى سقطت منه ورقة صغيرة... انحنى يوستينوس والتقطها، ثم نظر بها ليجد أنها تحوي جملة واحدة... أعطاها يوستينوس إلى لارا التي نظرت بها بدورها ثم قالت:

- حسنًا، أعتقد أن بينتولا لم يكتفِ من ألاعيبه.

نظرت لارا إلى الورقة، ثم ترجمتها بصوت جهوري:

"يقبع السر أينما يرقد الحذاء الصغير الذي يشعر بالوحدة إن لم يَقتل".

تعجب فاروق قائلًا:- الحذاء الصغير!

نظرت له لارا، ورفعت حاجبيها هي أيضًا فِي إشارة أنها لا تفهم ما يقصده بينتولا.

هنا تساءل يوستينوس:- من الذي يشعر بالوحدة إن لم يَقتل؟

قال فاروق:- أي شيء قد أعد للقتل، إن لم يقم بواجبه فقد يشعر بالوحدة.

لارا: لا أعتقد... إن المعنى أعمق من ذلك بكثير.

في هذه اللحظة، أتاهم صوت الرجل المختفي فِي الظلام خلف البابا قائلًا:

- كاليجولا.

حاولت لارا أن تحدد ملامح وجهه، لكنها لم تستطع، ثم تساءلت:- ماذا؟!

فكرر كلمته متجنبًا الشرح والتوضيح:- كاليجولا...

ارتفع حاجبا لارا أكثر، فقال:

- نعم... جايوس... أو كاليجولا كما أطلق عليه والده، وتعني بالرومانية (الحذاء الصغير)، وقد كان إمبراطورًا رومانيًّا مثالًا للسادية والعنف، واشتهر بالكثير من المواقف الوحشية. ومن أشهر أقواله: "غريب أني إن لم أقتل أشعر بأني وحيد".

أنهت لارا حديثها، فقال نيكولا:

- حسنًا... إذًا وجهتنا القادمة هي ضريح أوغسطس... حيث دفن كاليجولا.
ثم أشار لمرافقه أن يتوجه نحو لارا، وقال له:
- أحضر الكتاب؟
لم تشعر لارا بالارتياح لذلك المرافق، بكانوتته التي تمتد بغطاء رأس يُخفي ملامح وجهه العليا. تراجعت وأخفت الكتاب وراءها، ومدت يدها وكشفت عن وجهه، لتجد أنه نفس الرجل الذي قد اصطدم بفاروق فِي المطار.

لقد كان يتتبعهم، ويبحث عنهم... فنظرت إلى فاروق فِي رعب، ولكن جوليانو لم يعطها الفرصة، فأمسكها من رقبتها، ودفعها فِي الحائط لتسقط أرضًا، فهجم فاروق عليه بلكمةٍ فِي وجهه طرحته أرضًا هو الآخر... فعاد جوليانو على قدمه، وأخرج خنجرًا من عباءته، ودفع نفسه على فاروق بكل ما أوتي من قوة ليطعنه فِي قلبه، فصدرت صرخة دوت فِي المكان... ولم يشعر فاروق بجسده إلا وهو يرتمي على الحائط ليصطدم رأسه فِي أحد الأحجار البارزة، ويسقط مغشيًّا عليه.

رأت لارا الدماء تسيل على الأرض أمامها وفاروق قد سقط هو الآخر، فلم تحتمل المشهد، فصرخت هي الأخرى، وبدأت الغرفة تدور من حولها، ثم غابت عن الوعي...

لم يعر نيكولا أي اهتمام لذلك، بل تركهم على الأرض، وأمر جوليانو أن يحضر الكتاب والورقة، ويأخذ مفتاح الغرفة من يوستينوس الساقط هو أيضًا أرضًا ويغلق عليهم الباب هنا حتَّى يتوجَّها للضريح ويريا ماذا هناك.
نظر نيكولا إلى رياريو قائلًا:
- رياريو... حضر السيارة وأخلِ الطريق إلى ضريح أوغسطس، ولا تعلن الأسباب. وقم أيضًا بإخراج كل السياح منه.

- أمر قداستك...

سبقه رياريو خارجًا، وسلم جوليانو الكتابَ والورقةَ للبابا، فأخذهما وخرج على الفور، ثم استدار وقال له:

- أغلق الباب واتبعني.

***

بدأت لارا تستعيد وعيها، ونظرت نحو الدماء السائلة على الأرض، وفاروق الذي تكوم بجوار الحائط... لكن بعد لحظات، أدركت أن الدماء لم تكن دماءه؛ فقد تحرك يوستينوس، وألقى نفسه أمام فاروق ليستقبل الطعنة مكانه... ويسكن السكين فِي صدره.

جرت لارا نحوه، ورفعته من على الأرض، وحاولت أن تهدئ من أنفاسه المتسارعة وتحدثه، لكنه لم يرد عليها. كانت ذكرياته تداعبه لآخر مرة فِي حياته قبل أن تظلم الدنيا من حوله.

رأى سربًا من الحمام يغير اتجاهه ويعود ليدور من حول الساحة ويختفي خلف السحب. وسمع صوت بينتولا يقول:

- لا خوف منهم ولا خوف منك أنت أيضًا. الخوف عليكم... لكن مهما حدث فعليك الالتزام بالخطة... إن الغرباوي سيلجأ فِي النهاية إلى لارا، وكما قلت لك إن نيكولا سيقوم بسجنك وتعذيبكم... عليك فِي النهاية أن تعترف له بكل شيء حتَّى يساعدها فِي الوصول إلى هنا، لكن لا تعترف إلا بعد أن تفقد قواك... حتَّى لا يشك فِي الأمر. وعندما تصلان إلى هنا سينصب لكما كمينًا فِي الأرشيف، لكن عليك أن تخرجهم ما إن يترككم هنا... وهو بالتأكيد سيبقي عليكم أحياء حتَّى يتأكد من وجود مسعاه، ثم يعود لينهي عليكم. الآن خذ

هذا الكتاب... إنه كتاب الترانيم. سيأتون للبحث عنه... وستضعه مع باقي الأشياء... أما هذه النسخة، فستضعها كما فِي هذه اللوحة... وستخرج لهم النسخة الأولى...

- وماذا بعد ذلك؟

- لا تقلق؛ فهنا سيتسلم منك أحد بيادقي المجهولين المهمة.

- بيادق؟

- نعم يا بني... هنا تكمن الخدعة... الحياة كالشطرنج... وسر النجاح فِي هذه اللعبة هو ألا تلعب بقطعك وتغامر بها طوال الوقت، بل أن تتلاعب بقطع خصمك... وهكذا سأجعل نيكولا يساعدكم رغمًا عن إرادته.

شعر يوستينوس أن الغرفة تهتز من حوله، لكن كانت لارا هي من تمسك بأكتافه وتهزه ليعود إلى الوعي... لكن قواه قد خارت وأصابه الوهن، ولم يعد هناك دمٌ يتدفق إلى رأسه، ولا يستطيع أن يحرك يده ليشير إليهم لطريق الخروج، فنظر بعينه إلى نهاية الغرفة، وحاول الحديث:

- الستـ... الستـ... الـ... تا... تا... رة.

- ماذا؟

- الستا...

تجمدت شفتاه، وتعلقت عيناه بالسقف، وغاب الضوء عنهما، فبدأت لارا فِي البكاء بشدة، ولم تتوقف حتَّى سمعت فاروق يتحرك فِي مكانه. لقد استعاد وعيه.

- فاروق...

صرخت به، وجرت نحوه، وارتمت بين يديه.

- كنت أعتقد أنك مت.

لم يرد فاروق، وأمسك رأسه متألمًا من ارتطامه بالحائط الذي أفقده وعيه، لكن ظلت عيناه على يوستينوس الراقد فِي سلام...

قالت لارا وهي تبكي:

- لقد مات... كان يحاول إخباري بشيء... قبل أن يموت...

فاروق: من المفترض أن أكون أنا الراقد هناك.

لارا: فاروق أرجوك... نحن محتجزان هنا.

أمسك فاروق رأسه مرة أخرى، ثم أخفى وجهه بين يديه... كيف يحدث كل ذلك؟ كيف يتورط فِي صراع كهذا وهو الذي لم يتعارك مع أحد منذ عامه الثالث فِي الجامعة؟

لارا: فاروق... هل تسمعني؟ نحن محتجزان هنا.

استعاد فاروق هدوءه، وسألها:

- قلتِ أنه حاول إخبارك بشيء.

- نعم، لقد تمتم بكلماتٍ غير مفهومة.

- هل تستطيعين تذكرها؟

- نعم، كان يقول الستـ... الستـ... و... لا أعلم. لم يكمل.

نظر فاروق حوله، ووقعت عيناه على الستارة السوداء التي تخفي جزءًا من الغرفة... تتبعت لارا عينيه، وقالت:

- الستارة... كان يحاول أن يقول الستارة.

تحرك كلاهما سريعًا، وأزاح فاروق الستارة ليصيبهما الذهول، وينظر كلاهما إلى الآخر فِي عجز.

ـ "إنها هي"، قالت لارا.

- حسنًا بالتأكيد هي... تمام.

كانا يقفان أمام منضدة السفيرين بكل تفاصيلها دون أن ينقصها شيءٌ، فكان كلُّ شيءٍ فِي مكانه الصحيح، حتَّى كتاب الترانيم كان موجودًا فِي مكانه.

فاروق: انظري... إن كتاب الترانيم لا يزال هنا.

نظرت لارا إليه، ثم توجهت نحو المنضدة.

- بالفعل إنه هو... لكن ما الذي كنت أحمله فِي يدي منذ دقائق؟

قال فاروق:

- أعتقد أننا اتفقنا على أن ذكاء بينتولا قد فاق الحدَّ فعلًا...

اقترب فاروق، وأخذ الكتاب، ونظر بداخله... لكنه لم يكن كتاب ترانيم على الإطلاق! صحيح أن الغلاف كان يقول ذلك، لكن ما بداخله كان أعظم...

أخذ فاروق نفسًا عميقًا ثم ابتسم وهو يقول:

- إنها مفكرة الدكتور ويلسون.

قالت لارا:- ماذا؟

ألقى فاروق نظرة خاطفة على بعض الصفحات، ثم قال:

- انظري... إن بها تفسيرًا للرموز وترجمة للمعادلات ومخططات لرسومات، وهذا الجهاز الذي يشبه التابوت... لقد كتب تحته: لازاروس.

- حسنًا، ليس الآن...

أخذت لارا الكتاب لتضعه فِي الحقيبة، لكن فاروق قال:

- انتظري... الأرقام التي كانت فِي الوثيقة...

قلبت لارا فِي المفكرة حتَّى وصلت إلى ورقةٍ مطويةٍ بداخلها كُتبت باللغة الإيطالية، فبدأت فِي القراءة بصوت مرتفع:

Sotto gli alberi di tilia.

ثم قالت:- أحجية أخرى.
أخذ فاروق الورقة من لارا، ونظر بها قليلًا، ثم وضعها فِي جيبه وقال:
- لاحقًا... كما قلتِ.
أومأت لارا برأسها، ثم عادت تبحث حولها عن حلٍّ أو مخرجٍ.
حاول فاروق أن يساعدَها، وبدأ فِي تحسُّس الحوائط بحثًا عن بابٍ سريٍّ أو شيء من هذا القبيل.
بعد دقائق، ربتت لارا على كتفه، وأشارت إلى المنضدة.
-انظر... هذا غريب.
- ماذا؟
- هذه العلبة لم تكن فِي اللوحة!
توجه فاروق فورًا إلى منضدة السفيرين، والتقط العلبة، وفتحها دون تردُّد، ليجد بها مفتاحًا... نظر للارا وقال مبتسمًا:
- بدأت أحب بينتولا فعلًا.

فِي شوارع روما، كانت سيارات سوداء تنطلق دون توقف حتَّى وصلت أمام الضريح القابع فِي ساحة الإمبراطور أوغسطس التي قد بناها بعد أن هزم أنطونيوس وكليوباترا فِي معركة أكتيوم، وبهذا فقد سيطر على مصر. وعندما اطلع أغسطس وقتها على قبر الإسكندر المقدوني فِي مدينة الإسكندرية، أُعجب بما رآه، وعاد إلى روما ليأمر ببناء صرح ضخم يحاكي ذلك الموجود فِي الإسكندرية.

وداخل الضريح الذي تم تصميمه على شكل دائري مفرغ من الداخل تَحوطه الأشجار من جميع الاتجاهات، وخلف الأسوار الدائرية الضخمة يتوسط الفراغ مبنى أسطواني مصمت، حيث يرقد العشرات من الأشخاص المهمة، أشهرهم أوغسطس وفليبيانوس وتيبيريوس وكلاوديا أنتونيا وآخرهم الموسيقار والمايسترو فرانسيسكو ماندر الذي مات منذ عامين فقط.

عندما وصل نيكولا إلى قبر كاليغولا، تقدم نحوه دون تردد... وأمر رياريو وجوليانو بفتحه.. وبعد جهد كبير، تم فتح القبر، ليجد ورقةً وحيدةً موضوعة بداخله... فالتقطها، وبدأ فِي القراءة.

Ci vediamo all'inferno

وتعني: أراك فِي الجحيم.

دوت صرخة رهيبة داخل الضريح...

- لاااااااااااااااااااااااااااااااا... بينتولا أيها الأحمق...

ثم صرخ فِي أتباعه:- رياريو، جوليانو... بسرعة إلى الڤاتيكان.

***

خرج فاروق ولارا، واتخذا طريق العودة حتَّى وصلا إلى ساحة القديس بطرس، فوجدا حركةً غريبةً فِي الساحة... كان الحراس من كل مكان يتحركون لإغلاقها، ومنع أي شخص من الخروج، فحاولا النظر حولهما بحثًا عن أي مكان للخروج، لكن دون فائدة...

رن هاتف لارا، وظهر اسم (المخلص) على الهاتف... كان صوت البابا حانقًا هذه المرة...

- لا يمكنكم الهروب يا دكتورة... لقد تم إغلاق كل الطرق المؤدية من وإلى الڤاتيكان.

ردت لارا دون تردد:- هذا إن كنا لا نزال فِي الڤاتيكان.

ظهر الرعب على نيكولا لوهلةٍ، لكنه عاد يتحدث بنبرة هادئة:

- لا يمكن أن تكونوا قد عبرتم أسوار الڤاتيكان... وحتى إن استطعتم، فلن تعبروا حدود إيطاليا أحياء.

أغلقت لارا الهاتف، وألقته فِي صندوق القمامة المجاور لها...

ـ "ماذا الآن؟"، سأل فاروق.

لارا: لا أعرف! إنهم يغلقون جميع المخارج.

ظل فاروق ينظر حوله، فوجد فوجًا سياحيًّا يتحرك خارجًا من أحد الحواجز، وقد سمح لهم أحد أفراد الأمن... فأمسك يد لارا، وجرى نحوهم، لكن ما إن خرج آخر فرد فِي الفوج حتَّى أغلق الحاجز، ووقف أمامه الرجل...

نظر فاروق للارا كي تتحدث، فقالت للرجل بإيطالية متقنة:

- نحن معهم.

- عفوًا سيدتي... بالتأكيد هؤلاء ليسوا رفقاءك... هؤلاء لم يكونوا سياحًا... إنهم فريق الترميم... وقد أنهوا عملهم للتو.

يا للحماقة!

نظرت لارا نحوهم، فوجدت بالفعل أنهم ليسوا سياحًا. إنهم مجموعة من العمال.

- سيدتي... أرجوكِ أن تتراجعي... الأوامر لدينا الآن ألا نسمح لأحد بالخروج.

- لماذا؟

- لقد تعرض الأرشيف للسرقة.

نظرت لارا إلى فاروق، ووضعت يدها على حقيبتها فِي حركة لا إرادية.

بدأ الرجل يشك فيهما، فاقترب منها وقال:

- هل تسمحين أن أرى هويتيكما؟

نظرت حولها لترى إمكانية الهروب، فوجدت أنه قد تمت محاصرتها...

***

تحركت السيارات مسرعةً نحو الڤاتيكان مرةً أخرى، ولم يكن نيكولا يشعر بالأمان؛ فربما هناك فعلًا من ساعد الدكتورة ورفيقها على الهرب من الأرشيف الآن، وأنها لم تكن تخادع عندما قالت أنهما قد غادرا بالفعل. لكن عليه أن يحاول ويظل يطارد أفاعي بينتولا التي تركها خلفه حتَّى ولو ذهبوا به إلى نهاية الكون.

في هذه اللحظة، رن هاتفه، وبدأ نيكولا فِي الحديث عن الدكتورة مع محدثه على الطرف الآخر من الهاتف... وهنا تطلع رياريو إليه، وبدأ يشك فيمن يحدثه نيكولا، وتساءل: ترى من يعرف بالأمر غيرهما؟

بدأ رياريو يفكر هل كان بينتولا محقًّا عندما قال له إن أحد البيادق سيكون خائنًا وواليًا لنيكولا... كان ذلك قبل أسبوع من الوفاة... عندما طلب بينتولا مقابلة رياريو على انفراد، ويومها تحدثا فِي أمور عديدة لا يتذكرها ريايو، لكنه يذكر أن البابا جعله يغادر البلاد فِي اليوم التالي متجهًا إلى برلين... لتتغير يومها حياته تمامًا، وتنقلب معتقداته رأسًا على عقب... ظل أيامًا غير مصدق لما رآه... لكنه الآن أصبح أمين سر الجماعة.

***

- أعتقد أنك حارس بدرجة أحمق... أنا الدكتورة لارا أليكساندر عالمة الآثار ومبعوثة اليونسكو...

- آسف سيدتي... لكن لن يسمح لكِ بالمرور...هذه هي التعليمات.

- حسنًا، هيا بنا... أمسكت لارا يد فاروق، وابتعدت عن الحارس لتختفي وسط أفواج السياح التي قد تم احتجازها مؤقتًا داخل الساحة.

سأل فاروق:- ماذا الآن؟

- لا أعرف... نحن داخل ثكنة عسكرية. لا يمكننا الخروج.

- بالتأكيد هناك وسيلة.

قالت لارا:- أحتاج إلى خريطة.

نظرا حولهما قليلًا حتَّى لمحت لارا إحدى الفتيات تحمل خريطةً بيدها، فهرعت نحوها، وطلبت منها الخريطة، فأعطتها لها الفتاة وانتظرت، فسألتها لارا:- هل تريدينها مرةً أخرى؟

شعرت الفتاة بالإحراج وقالت:- يمكنك الحصول عليها.

تركتها لارا على الفور، وعادت لفاروق.

ابتسم فاروق للفتاة وهي تتمتم بكلمات حنق، ثم تبع لارا مبتعدًا عنها.

توقفت لارا، فقال لها فاروق:

- لا أعرف... لكن أشعر أنك لست محاضِرةً عاديةً.

بادلته الابتسام، ثم فتحت الخريطة، ونظر معها فاروق.

ظهر فِي الخريطة خط أحمر سميك يطوف حول الڤاتيكان من الجهات الأربع عدا الجزء الشرقي الذي كانوا يقفون فيه الآن... ساحة القديس بطرس. لكن فاروق لمح فِي شمال الخريطة انقطاعًا صغيرًا فِي هذا السور كتب عليه musei، فسأل لارا:

- ماذا تعني؟

ردت:- musei del vaticano... إنه متحف الڤاتيكان.

- حسنًا، بالتأكيد أغلقوه.

- لا أعرف. لكنه بعيدٌ عن هنا.

- ما هذا؟

قالها فاروق وهو يشير إلى خط أسود مزدوج يأتي من جنوب الڤاتيكان، متقاطعًا مع السور المحيط، ومنحنيًا للشرق قليلًا ليقطع مسافة داخل الڤاتيكان ليست بالقصيرة.

ذُهلت لارا للحظات، ثم قالت:- هذا طريق خروجنا.

- ما هو؟

- إنه أحد خطوط القطارات القديمة والأثرية التي تعبر من وإلى الڤاتيكان... إنها متوقفة منذ زمن، لكن أعتقد أن القطارات لا تزال تعمل بشكل جيد، وتتم صيانتها وعرضها للجمهور.

- كيف سنصل إلى هناك؟

- اترك هذا الأمر لي.

أخذت لارا بيد فاروق، وتوجها عائدَين إلى الكنيسة، لكنها انحرفت يمينًا، وتوقفت أسفل الساعة. وجدا اثنين من الحرس السويسري يقفان فِي طريقهما... لم تتردد لارا، وأخرجت هويتها، ولم تتحدث أو تحاول الوقوف، وتعجب فاروق من رد فعل الحراس، فقالت له مبتسمة:

- إنهم منشغلون بمنع الناس من الخروج... لا يهمهم الآن من يدخل.

بعد أن عبرا، توجَّها إلى الناحية الجنوبية الغربية. عبرا الحدائق قاطعين شوطًا كبيرًا من السير.

سمعا وقع أقدام آتيًا من الأشجار، فقالت لارا:- هيا... علينا أن نسرع.

بدؤوا فِي الجري بعيدًا حتَّى وقفا أمام القوس المجوف بداخل السور، والمعد خصيصًا لمرور القطارات عبره... من وإلى الفاتيكان... لكن كانت الصدمة شديدة بالنسبة للارا، فلم تتحمل وخرت على ركبتيها، وأمسكت بوجهها، وبدأت فِي البكاء.

ظل فاروق ينظر برعبٍ إلى التجويف الذي قد تم إغلاقه بالخرسانة المسلحة.

قال وقد أصيب جسده بالشلل:- نحن فِي عداد الموتى لا محالة.

عاد وقع الأقدام يهز بلطفٍ طبلةَ أذنه، فعلم أنهم يقتربون... اقترب من لارا، وارتكز أمامها. أمسكها من كتفها وقال:- علينا أن نتحرك.

- إلى أين؟

- لا أعرف... لكن يجب ألا نستسلم... بعد كل ما عانيناه لا يجب أن نستسلم الآن... انظري حولك. السماء لا تزال فوقنا... منذ دقائق كنا داخل الأرشيف بانتظار الموت... وانفتحت لنا متاريسه من حيث لا ندري...

قالت لارا وهي تبكي:

- إنهم خلفنا... أنا سمعتهم... لقد علموا من الحراس أننا دخلنا الحدائق، وبالتأكيد خمنوا أننا سنتوجه إلى هنا...

تابعت وهي تنهار:- سيقتلوننا.

- انظري... إذا كانت حياتي قد خذلتني فِي العديد من المرات، لكني تعلمت شيئًا واحدًا...

نظرت له لارا باكية دون أن ترد، فقال لها:

- تعلمت أنه عندما يصل الألم إلى منتهاه وتخور قواكِ... عندما يصبح للاستسلام والراحة لذة... عندما تشعرين أنك أعطيتِ كل ما تملكين، وتؤمنين بأنها النهاية، فليس عليك إلا اتخاذ خطوة واحدة فقط، وصدقيني لارا... هذه الخطوة هي التي تفصلنا دائمًا عن التحرُّر من هواجسنا.

تطلعت لارا إلى وجهه بعينين تزينهما الدموع، وابتسمت للحظةٍ ثم... لمعت عيناها، وتحولت بسمتها إلى ضحكة هستيرية... وقالت:

- هل قلت خطوة واحدة؟

سألها فاروق:- ماذا؟

- هل قلت إن ما يفصلنا عن التحرر خطوة واحدة؟

ابتسم فاروق وقال:- حسنًا... هذا أمر نسبي.

- انظر...

أشارت لارا من فوق كتف فاروق إلى الخط المجاور لهم الذي يحمل فوقه رافعة ضخمة تستقر بعجلاتها على أحد القضبان، وعليها ما يشبه سلمًا كهربيًّا... يبدو أنه كان معدًّا لصيانة وترميم أعمدة الإنارة...

عاد فاروق لينظر إلى لارا، وقال مبتسمًا:- خطوتان إذًا.

صعد فاروق على الرافعة، وحاول إدارتها، لكن دون فائدة... من المحتمل أنه لم يعمل منذ فترة... فبحث حوله عن أي شيء ليحاول أن يفتح علبة التحكم التي أمامه... ظل ينظر حوله، وقال للارا:

- ساعديني... أريد شيئًا معدنيًّا لأفتح هذه العلبة.

لم تستطع لارا تمالك أعصابها، وظلت تنظر حولها كالمهووسة دون أن ترى... كان العالم يدور من حولها، وكادت رؤيتها أن تنعدم... وسمعت حفيف الأشجار من الناحية الشرقية، فعلمت أنهم سيكونون هنا فِي أقل من دقيقة.

- حسنًا، وجدتها...

كان هذا فاروق.

ضرب فاروق الجزء المعدني بجانب العلبة، وفتحها على الفور، وأخرج مجموعة من الأسلاك، وبدأ فِي تصنيفها... لم تفهم لارا ما يفعله، ولم تأبه لذلك، وظلت تنظر نحو الأشجار، وانحنت فوجدت أقدام أكثر من خمس رجال يتوجهون نحوهما، فصرخت فِي فاروق أن يسرع فيما يفعله... فجاءها صوت المحرك الدائر كصوت ترانيم تطهير تغنت بها ملائكة الخلاص لإثم ملعون، وقد جاءته كي تخرجه من جحيمه إلى نعيم أبدي...

أدار فاروق الرافعة، وحرك إحدى الأيادي، فارتفع السلم من مكانه، فقال:

- اللعنة.

لكنه وجد يدًا أخرى أسفل منه، فحركها للأمام فتحركت.

صرخ فاروق مهللًا، ثم تابع فِي زيادة السرعة حتَّى وصلت إلى أقصاها... انتظر حتَّى اقتربت من السور، وقفز مصطدمًا بالأرض جارحًا ركبته.

من خلف الأشجار، ظهر رياريو ومعه مجموعة من الحرَّاس وخلفهم جوليانو... أوقفتهم الدهشة، وظلت أعينهم تتابع القطار الذي قفز منه فاروق حتَّى احتضنه الحائط، وخرج عن مساره تاركًا فجوة بداخل السور. جرت لارا نحو فاروق وساعدته على النهوض. صرخ رياريو نحوهم أن يتوقفا... لكنهما لم يستديرا حتَّى لينظرا إليه وتوجها ناحية الفجوة لكي يعبرا منها، وتسلقا ركام الأحجار الذي خلّفه الاصطدام...

تحرك جوليانو، ودفع رياريو جانبًا، وصوب مسدسه نحوهما، وأطلق دون تردُّد...

دوى صوت الرصاصة فِي الهواء دويًّا شديدًا، ولكنه لم يمنع فاروق من أن يسمع آهةً خافتةً تصدر من لارا... نظر إليها، فوجدها تتمسك بذراعه وتنظر له فِي رعب، ثم نظرت لصدرها لتجد لونه قد تحول إلى الأحمر فِي لحظات، وبه ثقب صغير تتسع من حوله الدماء فِي قميصها كموجات خلفها سقوط حجر صغير فِي بحيرة هادئة فِي يوم ربيعي مشمس... لقد اخترقت الرصاصة ظهرها، ومرت خلال جسدها لتقطع ما تقابله، وتهتك معها روحها السائرة بين ضلوعها، وتخرج ومعها آخر أمل فِي الحياة.

لم يصدق فاروق ما يحدث. نظر إليها، ولا يعرف لماذا؟

لكنه رآها أمامه فتاة أحلامه التي لم يحلم بها من قبل... حبيبته التي لم يتسنَّ له ملاقاة حبها. ضمَّها وبكى... بكى كثيرًا وبحرقة. نظر إلى رياريو وجوليانو وهما واقفان على بعدٍ يتابعان، ولم يأبه. ظل يضمها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة.

تحركت لارا، وحاولت أن تمسك حقيبتها التي سقطت، لكنها رأتها تبتعد، ورأت فاروق هو الآخر يبتعد. ما زالت بين يديه لكنه يبتعد. العالم كله يتلاشى من حولها...

كانت تكرهه بشدة؛ لكنه هو دونًا عن غيره قد أتاها فِي لحظاتها الأخيرة...

قالت له بصوت شابه الوهن:- لقد نسيتك...

ابتسم وقال لها:

- صحيح، لكنك نسيتِني بداخل قلبك، وتناسيتِ بعقلك، حتَّى تكملي حياتك، لكن لم تستطيعي.

- أنا أحبك.

- لا يا قرة عيني... لم يكن حبًّا... أنتِ لم ترَي السعادة مع غيري... كان ضعف قلبك فقط هو ما سمح لي بالدخول إليه... البشر حمقى.

- سيئون.

- ليسوا سيئين، لكنهم أحمق من أن يتعلموا فِي حياة واحدة... لا يعرفون متى يتمسكون بأحلامهم، ومتى يتخلون عنها.

- لماذا تخليت عني؟

- لأنكِ لم تكوني شجاعةً كي تتخلَّيْ أنتِ عني.

- لكني كنت أحبك حبًّا لم أعرف له مثيلًا.

- ألم أقل لك؟ إنكِ بلهاء حمقاء عبثية مغفلة... أنتِ لم تعرفي إلا قدرًا قليلًا من الأمان فِي حياتك... عرفتِه معي... لذلك تظنين أنها السعادة المطلقة... إنه كمثل من يحب فاكهةً حبًّا جمًّا، ولم يذق غيرها... فإذا زالت، ظن أن العالم كله تركه، وأنه لا سعادة ولا طعم فِي أي من خيرات الأرض. ولو أنك تذوقتِ غيرها لعلمتِ أن السعادة الحقيقية لا تُدرك إلا بالتخلي عن سعادة الأمان.

- الأمان... أنا لم أعرف قط الأمان من بعدك.

- وأنا بعدك ما عرفت غير الأمان... أحمد الرب يومًا بعد يوم منذ فراقنا.

- ألم تحبني؟ ألم أكن أنا حياتك؟

- كنتِ كلَّ حياتي... لكن عندما كنتِ معي كان الأمان رفيقي. وفي حضرة الأمان يا محبوبتي، يختفي كل شيء ذي معنى... اختفت أحاسيسي وفقدت مشاعري... غيابك حطمني، لكن حرَّك أمواجًا من المشاعر كانت تتهادى فِي قلبي خامدةً أسفل برك حبك الراكدة... من بعدك بدأت أشعر... أكره وأحب... أخاف وأثور... أملّ وأبتهج. كم كنت غريقًا فِي نعيم جنتك... لكن أتعلمين ما كان يدور بخلدي؟ كنت أخشى نعيم الرب وجنته... فِي حضرتك كان فزعي من الجنة أشد من خوفي من الجحيم. خشيت أن يقتلني بذخها كما قتلني حبك. خشيت أن أطلب من الرب أن يُميتني بعد أن أملّ من الخلود فِي نعيمه. لكن ها أنا الآن حر طليق، وتعلمت من الدنيا ما ينفعني حين أمل من النعيم... التخلي. تعلمت أن فِي التخلي عن السعادة سعادةً أخرى لم تكن لتدرك.

انهمرت لارا فِي البكاء، وسألت:- لماذا؟ لماذا أنت؟

- أما زلتِ لا تعرفين لماذا أنا؟ أولم تتعلمي؟ قلت لك إن البشر أغبى من أن يتعلموا فِي حياة واحدة. تتساءلين لماذا أنا جئتك الآن دونًا عن أي شخص؟ جئتك الآن لكي أقول لكِ إن الأوان قد فات أن تتعلمي... مرَّ على فراقنا عمر، وأنتِ لا تزالين تُغذين روحك ببقايا ذكريات متعفنة لا تسمن ولا تغني من جوع. وها هي روحك تغادر خاوية كما دخلت جسدك... دون أن تعرفي السعادة.

ارتفع صوت بكاء لارا بشدة، فصرخ فاروق باسمها وهو يبكي بحرقة... لم يكن يفهم حديثها... لكنه شعر بقلبه يؤلمه بشدة... ليس ألمًا فيزيائيًّا طبيعيًّا... كان ألمًا مميتًا.

ظل يصرخ بها حتَّى عادت له لثوانٍ... أمسكت حقيبتها، وضمتها إلى صدره، وقالت له:

- لا تستسلم... إنها خطوة واحدة.

أنهت جملتها، وعلقت نظرها نحو السماء، فاشتد بكاء فاروق، ولم يعد قادرًا على الحركة أو التفكير فِي أي شيء. مرت بجوار أذنه رصاصة جوليانو الثانية التي جعلته ينتفض... لكنه لم يتركها. ظل متمسكًا بها... رفع نظره نحوهم، فوجدهم يتحركون نحوه، وأصبح فِي مدى لا يمكن أن تخطئه رصاصات هذا الراهب الملعون، فأغلق عينيها، وقبلها فِي رأسها، ثم أمسك بالحقيبة وقال:

- ليس هذا وداعنا... سأراكِ من جديد.

❋❋❋

حول جثة لارا اجتمع الحراس ورياريو يتوسطهم، ناظرًا لها غير مصدق أنها قد ماتت... أما جوليانو الذي كان بعيدًا عنهم فرمقه بنظرة تحدٍّ، وعاد متجهًا نحو الكاتدرائية.

في داخل الكنيسة، كان نيكولا فِي انتظار خبر القبض على لارا وفاروق بعد أن علم من رياريو أنهما عبرا إلى الجهة الشرقية، وخمن رياريو أنهما سيحاولان الوصول إلى مهبط الطائرات، واقترح البحث عنهم هناك، لكن نيكولا اعترض وقتها، وأمره بإرسال مجموعة لتأمين متحف الڤاتيكان،

وإغلاق مخارجه، وأن يتوجه هو وجوليانو إلى معبر القطارات القديم.

الآن، وصل جوليانو لغرفة البابا، وطرق بابها، ثم دخل واقترب منه، وانحنى أمامه دون أن يتفوه بشيء.

قال البابا:- تكلم.

- لقد ماتت الفتاة.

- والرجل؟

- هرب.

- ماذا؟ كيف ذلك؟

- لقد حطم السور بإحدى عربات القطار.

- اذهب ولا تعد بدون جثته.

***

ظل فاروق يجري ويجري دون توقف... لا يعرف وجهةً ولا يقصد هدفًا ولا يدري إلى أي مكان سوف تحمله أرجله. ظل يغير من اتجاهه مرات كثيرة ظنًّا منه أن هناك من يتبعه. فِي النهاية، دخل إلى زقاق ضيق، ولكنه توقف عندما شعر بالدوار... نظر إلى الأعلى فوجد أن الحوائط تقترب من بعضها، وتضغط على جسده لتفتك به. حاول أن يرفع يده ليبعدها عنه، لكنه لم يستطع أن يلمسها. كانت قريبة من عينيه لكنها بعيدة عنه. رأى لارا أمامه فِي نهاية الزقاق، فحاول أن يعاود الجري نحوها، لكن دون فائدة...

سقط أرضًا، وخارت كل قواه. دارت الدنيا من حوله، وبدأ العالم فِي التضخُّم... عرف أنه يعاني من حمّى عصبية بسبب صدمته... ها هي كوابيسه تطارده مرة أخرى... ظل يتضاءل ويتضاءل، ودخل فِي رحلة الآتومية... اختفى العالم للحظاتٍ، ورأى نفسه خارج المجرة. نجوم وكواكب عملاقة

تسبح بسرعة رهيبة... وكلما تضاءل حجمه تباطأت حركتها... وفي منتصف الكون، كانت تقبع هناك... بشكلها الدائري، ولكن لم يكن لها لهيب أو حرارة... بدأ فِي السقوط نحوها، لكن عندما وصل، لم تكن شمسًا... كانت كرة مفرغة بداخلها كواكب أخرى تسير وتدور بشكل منتظم... بدأ ضغطه فِي الارتفاع. شعر أن جسده لم يعد يسع هذا الكون... سينفجر الآن لا محالة... لم يعد الأمر يشبه الكوابيس إطلاقًا... بدأ الدم يتلبد، وعروقه تضغط على جلده... شعر بغصةٍ فِي حلقه وانسداد فِي أذنه، وبدأت عيناه فِي الخروج من محجريهما فِي محاولة لتخفيف الضغط بداخل جسده... سينفجر لا محالة... وصل إلى منتهاه... وفي لحظة، ودون أي تنبيه... اختفى كل شيء... ليس هدوءًا ولا حتَّى ظلامًا... بل عدم... حيث لا وجود للنور ولا للظلام... لا ضجيج ولا صمت... لا شعور ولا حتَّى وجود لصاحب الشعور.

أخيرًا، وبعد وقت، لم يعلم إن كانت مرت ساعات أم أيام أم حتَّى سنوات... استيقظ فاروق فِي غرفة ذات ثلاثة حوائط سكرية اللون، والحائط المواجه له مكون من زجاج حجبت الستائر جزءًا كبيرًا منه... نظر فِي يده ليجد خرطومًا ممتدًّا من يده إلى محلول معلَّق بجواره. رفع يده الأخرى ليحاول البحث عن حقيبة لارا التي كانت بيده والتي تحوي الوثيقة الأخيرة، لكنه وجد يده مكبلةً بقيود حديدية فِي السرير. حاول بجهد أن ينتزعها، لكن دون فائدة...

فُتح الباب، ودخلت ممرضة تهرول نحوه وتدفعه كي يعيد ظهره مرة أخرى إلى أحضان السرير، لكنه رفض وصرخ فيها: - أين أنا؟

نظرت له ولم ترد، فتذكر على الفور أنه لا يزال فِي إيطاليا، فسألها مرة أخرى لكن بالإنجليزية، فقالت له:

- Ospedale Oftalmico.

عاد يتحدث بالعربية مرة أخرى:

- أوسبيدالي... أنا أعرف أني فِي المستشفى أيتها الحمقاء...

تنبه أنه هو من سألها عن المكان بالرغم من معرفته... وقال لنفسه أن هذا لم يكن هو السؤال الذي ينبغي عليه أن يسأله، فأشار لها نحو القيود، فتمتمت بكلماتٍ غير مفهمومة لم يلتقط منها إلا: "كوماندانو رياريو".

- اللعنة...

سمع فاروق وقع أقدام فِي الردهة، وعلم أنهم علموا أنه أفاق، وهم الآن قادمون إلى غرفته... ظلت أعين فاروق والممرضة معلقةً بباب الغرفة، حتَّى ظهر أمامهما ظل ضخم، ثم تبعه رياريو، لكنه لم يكن بمفرده... كان معه جوليانو واثنان آخران.

تحدث رياريو مع الممرضة، ثم نظر إلى فاروق دون أن تُظهر ملامح وجهه أي انطباع، وعاد لجوليانو، وقال له شيئًا. بدا أنه يطلب منه الانتظار بالخارج هو ورفاقه... لأنهم عادوا إلى الرواق على الفور، ومعهم الممرضة، وتركوا رياريو مع فاروق وحدهما.

سحب رياريو أحد الكراسي، ووضعه بجانب فاروق، ثم ذهب يتأكد أن الستائر مسدلة تمامًا، وعاد ليجلس على كرسيه، ثم سأله. لكن هذه المرة لم يتحدث الإيطالية بل الإنجليزية.

رياريو هامسًا:- هل تتحدث الإنجليزية؟

لم يرد فاروق، فعاد رياريو ليكمل: - انظر... ليس هناك وقت للمماطلة... لقد وعدت بينتولا أن أفديك أنت وهي بحياتي، وقد خسرتها لكني لن أخسرك... ساعدني حتَّى أستطيع أن أخرجك من هنا لتجد وجهتك القادمة.

ظل فاروق يفكر فيما قاله ياريو الآن... هل هو حقًّا مثل ذلك الكاردينال الذي أخرجهم من الڤاتيكان أم يتلاعب به من أجل نيكولا... لكن فاروق لم يجد أي حل آخر أمامه، فردَّ أخيرًا:

- بالطبع... أفضل منك...

قالها ساخرًا من لكنة ياريو فِي نطق الإنجليزية.

- إذًا عليك أن تتبع تعليماتي بالحرف... أنا لا أستطيع أن أخسرك، وفي نفس الوقت لا أستطيع أن أخسر وظيفتي أو أظهر لنيكولا حقيقة ولائي لبينتولا... لكنني قد صليت من أجل الرشد، وأعرف أن قداسته كان حكيمًا وقريبًا من الله قبل وفاته... وكنت دائمًا واثقًا فِي حكمته مؤمنًا، لكي أطيعه طاعة عمياء حتَّى بعد رحيله... لكنه عطف عليَّ، وجعلني أرى ما رآه..

- حسنًا، ماذا الآن؟

- هل تعلم وجهتك التالية؟

ضحك فاروق، وردَّ فِي استهزاء:

- أعتقد أنك قلت أن مهمتك هي إخراجي من هنا فقط... فلا شأن لك بوجهتي الآن.

- حسنًا... حسنًا... ربما لديك كل الحق ألا تثق فيَّ، لكن اعلم أن نيكولا قد طلب من كلبه المخلص "جوليانو" أن يحضرك إليه بعد أن بحثنا عنك لمدة يومين كاملين، وفي النهاية علمنا أنك هنا... وصلنا إليك أمس، وقد طلب البابا نقلك إلى مستشفى فيلا لويسا الخاصة... وهنا قالوا إن عملية النقل لن تتم إلا بعد أن يطمئنوا عليك تمامًا... الآن، وبعد أن يعلم البابا أنك قد استفقت، سيصدر القرار... وصدقني... عندما تصل إلى فيلا لويسا سيقتلك نيكولا بدون تردد.

- هل تعني أني فاقد الوعي منذ يومين؟

- لا... أعني أنه سيتم قتلك خلال ساعات.

- ماذا تريد إذًا؟

- أن أساعدك.

- حسنًا، أريد الحقيبة...

نظر له ياريو فِي رعب، وقال:- أتعني أنك لم تخبئها؟

فاروق: بالطبع لا... لقد فقدت الوعي، وقد كانت فِي يدي.

رياريو: اللعنة.

لم يعرف فاروق لماذا لم يهتم بما فيها، لكنه شعر بالأسى والحسرة على آخر شيء كان من لارا... تابع متسائلًا:- ألم يجدوها معي؟

- لا... لقد أبلغ أحدهم فقط بوجود شخص فاقد الوعي بأحد الأزقة... من المحتمل أنه واحد من المشردين، وقد سرقها.

- وما الحل الآن؟

- لا أعلم. لكن يجب أن أخرجك من هنا.

- كيف؟

- استمع إلى كل كلمة لأني سأتحدث مرة واحدة فقط... فالوقت لم يعد فِي صالحنا.

داخل القصر الرسولي، البابا ينتظر الاتصال الهاتفي الذي سيؤكد انتقال فاروق إلى مستشفى فيلا لويسا، لكن عندما رن الهاتف، كان معلنًا عن اتصال دولي... نظر له نيكولا قليلًا، ثم قرر أنه لن يرد لأنه لا يعلم ماذا سيقول... لقد ماتت الباحثة، وهو على وشك قتل الدكتور، ولا يريد أن يكون للمتصل رأيٌ فِي ذلك... فحوله للوضع الصامت، وقام من مجلسه، وظل يقطع الغرفة ذهابًا وإيابًا مفكرًا بالخطوة التالية بعد التخلُّص من الدكتور... هل يكون الأمر هكذا انتهى أم لا يزال هناك جنود آخرون قد جندهم بينتولا دون علمه؟ بدأت الهواجس تتلاعب به مرة أخرى؛ فهو يعرف بينتولا حق المعرفة، ويعرف أن اللعبة لن تنتهي الآن على هذه الشاكلة... ليس ماركوس ممن يرضون بالخسارة... حتَّى فِي الأمور الهينة... فنيكولا يتذكر ذلك اليوم عندما كانا سويًّا فِي المكتبة، والكل منكب على القراءة، والهدوء يعم المكان، ويومها بينتولا كان يحمل كتاب المطهر للأب لويس برسوم، الذي يتحدث عمومًا عن الدينونة، وخصوصًا عن بعض الأمور الجدلية مثل حالة النفس فِي ساعتها الأخيرة، والحياة بعد الموت، والعقاب الزمني، وما إلى ذلك... كان بينتولا وقتها يفضِّل أن يجلس بكتابه وسط الكتب على أن يصطحبه معه إلى غرفته... فتحرك إلى الجزء الشمالي من المكتبة، وجلس هناك على إحدى المناضد التي تغطيها أشعَّة الشمس الشتوية الممتعة.

وعندما لمحه نيكولا، تحرك نحوه، وجلس بجواره دون أن يتكلم، وظل يتابع الصفحة التي كان يقرؤها بينتولا، والتي كانت تتحدث عن التفاوت بين الخطايا والعدالة الإلهية... وعندما هم بينتولا بأن يقلب الصفحة، قال نيكولا:

– إنه لشيء مثير للسخرية حقًّا.

توقف بينتولا، وأعاد الصفحة لمستقرها، ونظر بها لثوانٍ، ثم هم بأن يقول شيئًا ما، لكنه ابتسم وصمت، وقلب الصفحة مرة أخرى، وأكمل متظاهرًا بتجاهل رأي نيكولا فِي العدل الإلهي.

تضايق نيكولا ثم قال:- إذًا أنت توافقني على أنه شيء مثير للسخرية!

نظر له بينتولا مبتسمًا متسائلًا، وهو يعلم ما سيقوله نيكولا، ولكن بالرغم من ذلك قال له:- ماذا؟ ما هو المثير للسخرية؟

قال نيكولا:- لا ينفكّ البشر يعلمون أبناءَهم مصطلحات كالعدالة والغفران والرحمة والخلاص، وتظل تلك المعاني تسمو بروح المرء حتَّى يبلغ مطلع الدنيا ويرى الحياة على حقيقتها، وهنا يتشتت عقله بين هذا وذاك... يتساءل بينه وبين نفسه هل كانوا يكذبون عليه، أم يتركون له الخيار أن يكتشف، أم هم فِي الحقيقة سذج لهذه الدرجة ولا يستطيعون أن يعوا الحقيقة؟

قال بينتولا:- وما هي الحقيقة فِي رأيك؟

نيكولا: الحقيقة يا أبي أن فِي هذه الدنيا لا عدالة تتحقق بدون انتقام، ولا رحمة تهبط دون غضب، ولا غفران يعلو دون قربان، ولا خلاص يُنجي دون تضحية... هذه هي الحقيقة شئنا أم أبينا.

بينتولا: الأمر ليس كذلك يا عزيزي... إن غفران الرب أوسع وأكبر من أن تدركه عقولنا، ولا يستوجب غفرانه قرابين... ولا خلاصه يستوجب تضحية؛ فالقرابين والأضاحي ليست إلا للآلهة الأسطورية... وبالرغم من أن العدالة والانتقام أمر شائك، لكن مهما طالت حلكة الليل فإن النهار آتٍ لا محالة، والعدل سيتحقق مهما تأخر؛ فالليل زائل والنهار أبدي، حتَّى وإن كان ضوؤه غيرَ كافٍ لأن يصل إلى كل الربوع.

- لا قداستك... إن ظلامًا دامسًا خير من سهير ضوء لا يجلب إلا الذباب.

قال بينتولا فِي هدوء:

- نيكولا يا عزيزي... إني أرى فِي عينيك سخطًا دائمًا... لا أعلم سببه، ولا أعلم على أيٍّ منهم تسخط... الخالق أم المخلوق؟ وإني ليحزنني أن أعجز عن إصلاح ما بداخلك.

قال نيكولا:- لا تشغلك أفكاري قداستك...

هنا رن هاتف نيكولا ليعيده من ذكرياته... كان المتصل هو جوليانو...

- نحن فِي الطريق. لقد تحركنا من المستشفى.

تحركت السيارة من أمام المستشفى، وبداخلها اثنان من الحراس فِي الخلف، ويتوسطهما فاروق، وفي الأمام جوليانو، وبجواره رياريو يقود... ابتعدت عن المستشفى... ولم تتوقف إلا فِي أحد التقاطعات التي لا يعرفها فاروق بالتأكيد.

ظلت دقيقة أو أقل، ثم قبل أن تتلون الإشارة أمام رياريو باللون الأخضر ببضع ثوانٍ، تطلع إلى يمينه، وأخذ نفسًا عميقًا، ثم تحرك...

سمع جوليانو صوت احتكاك عجلات السيارة فِي الأرض بشدة... لكن ما جذب نظره هو صوت محركات قوي يأتي من يمينه. وعندما نظر من النافذة، وجد شاحنة ضخمة تسرع نحوهم فِي سرعة جنونية. وبحركة لا إرادية دفاعية، رفع ذراعيه فِي مواجهة الزجاج، فِي محاولة واهنة لحماية نفسه...

انحرفت الشاحنة قليلًا، لكنها اصطدمت بمقدمة سيارتهم، فدارت عدة دورات، قبل أن تنقلب على ظهرها، وينضغط السقف على من فيها. كان فاروق يعرف أن ذلك جنون من رياريو، لكن لم يكن هناك خيار... فقد قال له رياريو من دقائق أنهم فِي انتظار وصوله إلى المشفى الخاص لكي يتم قتله فورًا...

فاروق: حسنًا... ماذا تقترح؟ أنا أسمعك.

رياريو: سوف يدخل جوليانو الآن، وسيتم اصطحابك إلى مشفى آخر كما قلت، وسأقود أنا السيارة، وستجلس بين الحارسين؛ وعندما تجلس ثبت أنظارك على عينيَّ، ولا تشِحْ بعينيك عن المرآة... وعندما أشير لك بعيني، انخفض دون تردد، واحتمِ بقدر الإمكان.

- لماذا؟

- سوف نقوم بافتعال حادث سير.

- ماذا؟! بالتأكيد هذا جنون.

- قل لي يا دكتور... هل حدث لك أي شيء لا يمت للجنون بصلة منذ دخولك فِي هذه الدوامة؟

- معك حق لكن...

- استمع للكلام... خذ هذه الورقة ولا تفتحها إلا فِي حال لم أنجُ، وهذا جواز سفرك وحافظتك وبها بعض من المال... تابع عينيَّ دائمًا، وعندما أشير إليك، انخفض بداخل السيارة. وبعد أن تصدمنا الشاحنة، اهرب. وكما قلت لك... فِي حال نجوت، سأعثر عليك، وإذا آلت الأمور إلى شيء آخر... فافتح الورقة التي معك.

أخذ فاروق الورقة، ووضعها بداخل الجواز، وقال:- أشكرك.

- لا تشكرني و...

تردد قليلًا، ثم تابع:- آسف بخصوص لارا.

شعر فاروق بأنه قد طعنه... فلم يعلم إن كان يتوجب عليه أن يطلب منه ألا يذكرها أمامه مرةً أخرى أم لا... فظل صامتًا حتَّى دخل جوليانو، وقال له بالإيطالية:- قداسته فِي انتظارنا... هيا بنا.

- حسنًا... اسبقني إلى السيارة...

قالها رياريو لوجليانو، ثم حول كلامه إلى فاروق بالإنجليزية مرة أخرى:

- The Pope has a final message to you… Szyndler was right in. 89 The Holy Mother wasn't guilty. Find her to find him.

***

صوت دوي سيارة الإسعاف الآتي من بعيد أعاد فاروق لوعيه، فحاول أن يزحف من بين الحارسين الفاقدين للوعي ليصل للباب، لكنه قبل أن يفعل، نظر نحو رياريو ليجده غارقًا فِي دمائه هو وجوليانو، فتحرك مسرعًا، لكنه لم يستطع كتم صرخة خرجت منه بسبب الألم الذي شعر به فِي صدره وهو يحاول التنفس بعمق... بالتأكيد قد كُسر أحد ضلوعه...

حاول دفع الباب لكن دون فائدة... ففتح الزجاج، وبدأ فِي معاودة الزحف حتَّى خرج بجسده كله خارج السيارة، فانقلب على ظهره لمواجهة أشعة الشمس... يا له من صباح يوم جميل! لا يعلم ما الجمال فيه، ولا ما دعاه لأن يفكر فِي ذلك فِي وقت كهذا، لكنه افتقد أشعة الشمس على وجهه فِي أوقات الجري...

كان الجو لطيفًا، وأشعة الشمس تعطي شعورًا لذيذًا بالدفء... وكان هو جالسًا فوق شجرة الجميز الضخمة الممتدة فروعها فوق المياه. وبيده عود من الغاب مربوط فِي نهايته خيط صيد قد اشتراه فاروق بنفسه لصناعة صنارته تلك. ويومها جلس مرتخيًا على ذلك الفرع منتظرًا نصيبه من مياه النهر، حتَّى غلبه النعاس. وبعد عدة ساعات، استيقظ ليجد الظلام قد حل، وأنه كان على وشك السقوط فِي المياه، ولم يجد صنارته. بالتأكيد سقطت وجرفتها المياه. قرر فاروق العودة خائب الرجاء دون غنيمة، ودون أداة الصيد... ولكن عند محاولته النزول من أعلى الشجرة، سقط بقوة، وارتطم رأسه. وعندما نظر أمامه وهو راقد على الأرض، وجد شعرًا يكاد يلامس الأرض من أمام عينيه، فتبعه بنظره إلى الأعلى، فوجده منسدلًا من إحدى النساء رائعات الجمال، وهي تجلس أعلى الشجرة فِي المكان الذي سقط منه تمشط شعرها الممتد إلى الأرض.

نظرت له حانقةً، وقالت له:

- تعيشون فِي مكاني دون صونٍ، وتجرؤون أن تظلوا بها حتَّى أوقاتي!
لم يستطع فاروق أن ينطق، وظل معلقًا نظره بها دون أن يرمش، فتابعت:
- تتمتعون بثرواتي، وتولون عليَّ من ينهبكم وينهب حقوقكم ويقمعكم كالدواب. ومنكم من يسبح له... تتركون المزيَّنَةَ أكتافهم كالرقيع يسيطرون على عقولكم وأرضكم، وتعلِّمون أولادكم أن الماضي كان أسوأ، وأن عهد الكشاف الأعظم ليس إلا عهد ظلم وظلمات، وتوهمونهم أن المستقبل أفضل، ولكن الحقيقة أن الضباع لا تقاسم فريستها...
- لكن...
- لا ترد يا فتى، واستمع. ستظلون كما كان آباؤكم وأجدادكم فِي غفلةٍ عمَّا تصنعون.
- اللعنة... فِي أي يوم نحن الآن؟!

تنبه فاروق أنه لا يزال راقدًا بجوار السيارة، فنهض مسرعًا، وتوجه نحو نافذة رياريو ليسحبه، لكنه كان ثقيلًا جدًّا، وقد علقت قدمه بالمقود، فشعر بألم رهيب فِي ضلوعه، وتلطخ قميصه بدماء رياريو، لكنه لم يستسلم، وعاود المحاولة مرة أخرى دون فائدة... ثم توقف على الفور عندما وجد أن سيارة الإسعاف قد وصلت... فتحرك مبتعدًا عن مكان الحادث... لا يعلم أين يذهب، لكنه حاول بقدر الإمكان الابتعاد، كما أمره رياريو فِي المستشفى.

ابتعد فاروق عن المكان كثيرًا، لكن لم يوقفه شيءٌ إلا صوت مميز جدًّا لم يتوقع أن يسمعه هنا على مسافة أقل من 500 قدم عن الفاتيكان... بدأ يبحث عن مصدر الصوت، ولكن كل شوارع روما كالعادة تتميز بمعمارها المتناسق الذي لا يمكن تصنيفه ببساطة لأي حقبة زمنية؛ فقد جمعت بين الطراز الروماني واليوناني وعصر النهضة والباروك والكلاسيكي والقوطي.

انتهي الأذان، ولكن لم يصل فاروق إلى مكان المسجد، فاستوقف أحد المارة وسأله:- موسكي.

فأشار له برأسه أنه لا يدري.

لمح فاروق عاملين أحدهما على سلم والآخر يحمل ما يشبه كاميرا مراقبة، ويستعدان لوضعها على أحد المباني، فتوجه نحوهما وقال:

- موسكي موسكي.

نظر له حامل الكاميرا، ثم توجه بنظره إلى صديقه على السلم الذي أشار على الفور من فوق كتفه نحو منتصف الشارع، وبدأ يتحدث، لكن لم يترك له فاروق الفرصة، وانطلق مع اتجاه يد الرجل...

تقدم إلى منتصف الشارع، وتوقف لينظر حوله باحثًا عن المسجد... حتَّى جاءه صوت الإقامة الخافت، فالتفت خلفه ليجد مبنًى له نفس طراز (إجواره) دون أي اختلاف، لكن ما يميزه هو باب كبير الحجم نسبيًّا، والكلمات المنقوشة على اللوحة المعدنية أعلاه تقول:

Baitun Nur

دخل فاروق من الباب... وبدأ يبحث عن مكان الوضوء، فالتقطت عيناه أحدهم يمسح عن وجهه الماء، ويفك من تشميرة يديه، ثم يتجه نحو المصلين. عثر على مكان الوضوء... وتوجه نحوه مسرعًا. وبعد أن انتهى، عاد ليلحق بالركعة الثانية مع المصلين... وما إن فرغ من الصلاة، جلس فِي هدوء، وبدأ ينظر حوله ويتأمل المسجد...

كان بسيطًا بدرجةٍ كبيرةٍ... يشبه شقة واسعة أُفرغت من أثاثها. حوائطه بيضاء لا يزينها إلا مجموعة من لوحات إرشادية بمواقيت الصلاة... سجاده أحمر قانٍ إسلامي تزينه البراويز الكوفية، وساعة حائط تحمل أكثر من توقيت

بداخلها لدول مختلفة... والمنبر كان خشبيًّا نقالًا، أبسط ممَّا يمكن... لدرجة أنه لولا القماش الذي يزينه واتجاهه المقابل للمصلين والمجاور للقبلة، لظن البعض أنه كرسي عادي.

تعلق نظر فاروق بساعة الحائط، وظلَّ يتأمَّلها، ويقارن بين توقيتات المدن وبعضها، وتعجب من فروق الزمن، وجال بخاطره التباطؤ الزمني، وأحجيات السفر عبر الزمن، وتذكر يوم أن كان عائدًا من كندا إلى القاهرة، وتحركت طائرته يوم الاثنين الموافق السادس من يونيو، لتمر رحلته عبر خط التاريخ الوهمي، ويصل إلى القاهرة يوم الأحد الخامس من يونيو، وظل يومها عقله يداعبه حتَّى بدأ يفكر أن الكون دائمًا وأبدًا كان فِي سلام داخلي مع نفسه، وأن المكان والزمان كانا متفقين منذ بدء الخليقة، أو هكذا تراءى لبني البشر. وظل ذلك الاعتقاد قائمًا حتَّى بدأ كابوس الإرباك الزمني يؤرق العقول المفكرة.

كابوس الإرباك الزمني مصطلح دخيل على العقول لم يظهر إلا مع أول رحلات القطارات الطويلة، وانتشار ساعات الجيب... حين لاحظ السيد ويزلي أيزنبيرج تأخر ساعته عند وصوله إلى محطة ميدلتون، وظن وقتها أن بها عطلًا، وأرسلها فِي نفس اليوم للسيد موردكاي ليصلحها... وبدوره لم يجد أي عيب فِي تروسها أو انسجامها... فقط تأخرت خمس دقائق عن التوقيت الحالي، فأعاد ضبطها وسلمها له... لكن عند عودة السيد ويزلي إلى مدينته، وجد أن ساعته قد تعطلت ثانية، لكن هذه المرة كانت قد تقدمت عن التوقيت الحالي... كانت - وقتها - كل مدينة تضبط ساعتها على حسب موضع الشمس فِي السماء؛ فعندما تصل الشمس إلى سرة السماء، فهذا يعني أن الساعة الثانية عشرة. هنا بدأ ويزلي فِي اكتشاف الأمر وعرضه يومها على صديقه الكاتب

والشاعر السير والتر رالي الذي تم إعدامه بعدها بفترة قصيرة. وظل هذا الكابوس يعتري الكل حتَّى جاء ذلك الفتي من مدينة أولم الألمانية ليعرض ورقته العلمية الثالثة التي كانت عن النظرية النسبية الخاصة التي أسهمت وقتها فِي إزالة غيوم الارتباك الناتج عن الجهل عند الكثيرين...

توقف عقل فاروق عن التفكير عندما شعر بوقع أقدام تقترب منه، وتوقفت خلفه تمامًا. تسلل الرعب إلى قلبه، وبدأ يشك. هل استطاعوا أن يتتبعوه إلى هنا؟ هل أفاق جوليانو أم إن حراسه هم من استفاقوا أولًا واستطاعوا الآن العثور على فاروق؟

انتفض بشدة عندما شعر بيد على كتفه.

- على مهلك... سيدي.

كان المتحدث يتكلم بعربية فصيحة ولسان قويم لا لغط فيه ولا اعوجاج.

استدار فاروق ليجد أمامه شابًّا ثلاثينيًّا أبيض البشرة شعره طويل إلى حد ما، وله لحية قصيرة مهذبة حد الاصطناع، يرتدي قفطانًا مطرزًا يبدو من شكله أنه صناعة هندية.

ابتسم الشاب، وعاود الحديث مرة أخرى:- مرحبًا بك.

أومأ فاروق برأسه دون أن يرد، فمد الشاب يده وتابع:

- محيي الدين حماد... إمام وخطيب المسجد.

ترك فاروق يد الشاب معلقةً فِي الهواء لفترة، ثم تدارك نفسه وبدأت الطمأنينة فِي التسلل إلى قلبه، ومد يده مصافحًا:

- دكتور فاروق الديب.

صافحه الشاب بحماسة، وربت على يده بالأخرى وقال:

- هذه أول مرة لك هنا؟

- نعم.

- مصري؟

- من القاهرة.

- يا... الله... لا تتصور كم السعادة الذي يسيطر على يومي عندما أرى ابنًا من أبناء وطني.

ابتسم فاروق، ومرة أخرى لم يرد بأي شيء.

- أنا من نبرو... هل سمعت عنها؟

حدق فاروق فيه للحظات، وظل يفكر بينه وبين نفسه أنه ليس على استعداد لتكوين صداقات الآن؛ فهو به ما يكفيه وما يشغله عن العالم بأسره... لكن عاد ليفكر أنه فِي وطن غير وطنه، وأرض غير الأرض، وأناس غير الأناس، ولغة غير اللغة... فلعل هذا الشاب يكون ذا منفعة.

- بالطبع أعرفها... الدقهلية.

اتسع فم الشاب أكثر وأكثر، وقال بسعادة:

- نعم... نعم...

مرت لحظات من الصمت، وما زال فاروق قلقًا، وما زال الفتى يحمل ابتسامته الواسعة.

- قُل لي يا دكتور... لم أنت هنا؟

هنا لم يأخذ فاروق أي وقت فِي التفكير وقال:- مؤتمر علمي.

- إذًا أين تمكث؟

- ماذا؟!

- أي فندق أقصد!

حاول فاروق أن يتذكر اسم الفندق الذي كان به هو ولارا لكن دون فائدة، وخصوصًا أن عقله يتوقف وقلبه يختلج عندما يتعرض لأي ذكرى تخصها...

فقال:- أعتذر... لقد تأخرت عن موعدي.

فهم الشاب أنه يحاول التهرب من التحدُّث، وعلم أنه يحاول إنهاء اللقاء بطريقة شبه جيدة، فقال:- سأراك مرة أخرى بالتأكيد.

فاروق:- إن شاء الله... هل سأجدك هنا؟

- بالتأكيد... أنا موجود هنا دائمًا. أتمنى فعلًا أن أراك مرةً أخرى.

- حسنًا، إلى اللقاء.

- إلى لقاءٍ آخر.

نهض فاروق وصافحه، ولاحظ الشاب القطع فِي بنطال فاروق عندما قام من مجلسه، وعندما استدار فاروق مغادرًا، ظهر له الدم الذي يغطي معصم وكوع فاروق...

بدأ محيي الدين يشك فِي حقيقة فاروق. هل هو هارب أم قاتل أم مهاجر غير شرعي؟ لكن هيئته لا تدل على ذلك... فِي كل الأحوال عليه أن يبلغ عنه السلطات.

بعد أن أغلق نيكولا الهاتف مع جوليانو وتأكد منه أنهم فِي الطريق إلى مستشفى فيلا لويسا، هدأ قليلًا، وقرر الآن أن يتوجه إلى قبر ماركوس بينتولا ليتأكد من الشائعات التي تكاد تفتك بالڤاتيكان...

أخيرًا ستعرف الطمأنينة قلب نيكولا لأول مرة منذ يوم أن تم إعلان وفاة ماركوس... فمنذ ذلك اليوم الذي أعلنت وسائل الإعلام الإيطالية فيه عن الجنازة، والأمور ليست على ما يرام، وكل شيء حدث بسرعة رهيبة داخل أسوار مدينة الرب تلك.

في صباح ثاني أيام الوفاة، وبعد ليلة طويلة، تم الإعلان عن أن جنازة البابا ستجري فِي الساعة 8:00 من يوم الأحد. وكان البيان قد أذيع فِي أعقاب أول اجتماع للكرادلة بعد وفاة بينتولا، وكان ذلك الاجتماع بهدف تحديد تاريخ الجنازة. وأعلن فِي اليوم التالي الناطق باسم الڤاتيكان عن عقد مؤتمر فِي الساعة 12 فِي حضور عمدة روما والعديد من الشخصيات العامة، للحديث عمومًا عن ترتيبات سجي جثمان البابا. وقد كان مؤتمرًا صغيرًا غير مشبع؛ لأن الأمور الخاصة بذلك لم تكن لتناقش على الملأ، ولكن فقط فِي مجمع الكرادلة.

وفي هذا المجمع، أقسم الكرادلة كالعادة على الحفاظ على سرية المحادثات والنقاشات داخله، وذلك وفق ما ينص عليه الدستور البابوي الذي صدر عام 1996، وحددت فيه قوانين تنظيم جنازة البابا وانتخاب خلفه.

وكان على الكرادلة فِي هذا الاجتماع التمهيدي اتخاذ عدد من القرارات المهمة الخاصة بحقبة الفراغ التي تكون ما بين وفاة حبر وإعلان الآخر. كما كانوا سيطلعون للمرة الأولى على أية وصية قد يكون البابا تركها. وعادة تستمر مراسم الدفن عدة أيام، ويتم الاتفاق على أن يدفن البابا بين اليومين السادس والتاسع، وذلك طبقًا للإجراءات التي حددها الدستور الرسولي الذي أصدره

البابا نفسه، ويترك البابا قبل وفاته وثيقة تحدد حرفيًّا التدابير والمراسم والممنوعات بعد وفاته بما فِي ذلك مراسم التشييع. وبعد أن تأكد المدبر الأعلى لشؤون الكرادلة "يوستينوس" من وفاة البابا، وبعد أن أعلن هذه الوفاةَ الكاردينال الأسقف المساعد لمدينة روما، كان على الكرادلة أن يحددوا النهار والساعة التي سيتم فيها نقل جثمان الحبر الأعظم إلى الكنيسة الكبرى. ولأن "بينتولا" نص فِي دستوره الرسولي على الترتيبات التي يجب اتباعها فِي حال وفاته، فقد كانت الأمور شبه محسومة؛ فقد كتب البابا فِي دستوره الرسولي:

«علي مجمع الكرادلة أن يتخذ جميع التدابير اللازمة لنقل جثمان الحبر الأعظم إلى كنيسة القديس بطرس فِي الڤاتيكان باحترام كامل».

ونصَّ على اسمين اثنين كان ثالثهما يوستينوس لاستلام الجثمان داخل حوائط الكنيسة السستينية بمفردهم. وختام مراسم الدفن فِي المكان الذي قد حدده فِي وثيقة أخرى لا تفتح إلا بمعرفة المدبر الأعلى، وكان الأمر مريبًا للعديد وقتها؛ فعادةً يدفن جثمان البابا فِي الڤاتيكان إلا فِي حال وجود وصية شخصية للحبر الأعظم تطلب عكس ذلك. وإذا كانت، فدائمًا ما تكون الوصية بالدفن فِي مسقط رأسه أو مع عائلته أينما كانت. ووقتها أكد بعض مواطني البابا الفلورنسي أنه أعرب عن رغبته فِي أن يدفن فِي بلدته فِي مقبرة عائلته فيرينسي بالقرب منديلا ليبيرتا. والآن ستحسم هذه المسألة فِي حال وجوده هنا أم لا.

وقبل أن يتوجه نيكولا نحو القبر، رن هاتفه ليصرعه خبر الحادث، وأن رياريو والآخرين فِي المشفى، وفاروق قد هرب.

خرج فاروق مسرعًا، وهو يشعر بأعين الشاب تتبعه. فسار هائمًا بين الشوارع لا يعرف وجهته... لا يزال تحت تأثير الحادث... وفجأة بعد كثير من السير والعديد من المنعطفات، وجد فاروق نفسه يقف أمام مطعم بيتزا، فلم يفكر، ودخله على الفور، ولم يلاحظ الأعين التي تتبعه وتتأمله باندهاش إلا بعد أن طلب البيتزا، وبدأ فِي الأكل...

توقف عندما لاحظ ذلك الرجل أشعث الشعر رث الهيئة الذي بكتفه العديد من بقع الدماء، ففزع منه... فزع لأن ذلك لم يكن إلا انعكاسه فِي إحدى المرايا داخل المطعم... طلب فاروق الحساب سريعًا، وغادر على الفور... ظل يبحث عن محل ملابس حتَّى وجد واحدًا، واشترى منه سترة قطنية وبنطالًا لهما نفس ذوقه، لكنهما بعيدان تمامًا عن نوعه المفضل. وألقى ما معه فِي القمامة بعد أن أفرغ جيوبه من أشيائه المهمة التي لم يكن يملك إلا إياها...

جواز سفره، والأموال التي أعطاها له رياريو، والوثيقة التي لا تزال مطوية كما هي منذ أن غادروا القاهرة، والورقة التي أخذها من لارا والمكتوب فيها:

Sotto gli alberi di tilia.

أخرجها فاروق مرة أخرى لينظر إليها، لكنه لم يستطع ترجمتها؛ فعلاقة فاروق بالإيطالية كانت مثل علاقته بالسوشي! لكن ورقة رياريو سقطت الآن من جواز سفره... اللعنة؛ كان قد نسِيَها تمامًا... لم ينتظر فاروق أن يتأكد من نجاة رياريو أو وفاته. أخرجها على الفور وقرأها، وسعد جدًّا عندما وجدها قد كُتبت بالإنجليزية...

In the Grey city,
the iron widow still steady,
Where the clairvoyants waiting,

The big rebound to be ready

قرأها فاروق مرة أخرى، وأعادها مرة تلو الأخرى وهو مندهش، وفي النهاية حدث نفسه قائلًا ترجمتها:

- فِي المدينة الرمادية... لا تزال الأرملة الحديدية صامدة... حيث ينتظر المستبصرون الصعود العظيم.

لمعت الفكرة فِي رأسه على الفور... لكن ما إن فكر فِي أنه الآن بمفرده، أصابه الإحباط... لقد كثرت الألغاز وتعددت البلاد... لم يعلم وقتها ما عليه فعله، لكنه تذكر لارا وصوتها يتردد فِي أذنه فِي نغمة ملائكية حزينة، وهي مبتسمة وتلفظ أنفاسها الأخيرة:- خطوة واحدة.

ابتسمت عيناه، وتزينت بدمعةٍ مملوءةٍ بلذة ونشوة غريبة فِي تذكر لارا... رفع رأسه إلى السماء، واتخذ لها نجمةً أقل لمعانًا من نجمته، وتطلع إليها كأنه يحدثهما معًا...

حسنًا، الآن عليَّ أن أتوجه إلى المدينة الرمادية... برلين... لكن أولًا عليَّ أن أجد أيًّا من مكاتب البريد السريع.

- **عزيزي**... كما وعدتك، فإن الأمور ستسير كما اتفقنا، وأنا على عهدي معك، وسأعمل بكل جهدي لإقامة دولتكم، ولكن علينا الآن الوصول إلى ذلك الدكتور، وأيضًا علينا التأكد من وجود الجثمان هنا. عليَّ أن أغلق الآن...

كان هذا نيكولا متحدثًا فِي هاتفه وهو متوجه نحو قبر بينتولا بمفرده. وبعد أن وصل أمام القبر القابع أسفل الكنيسة السستينية والذي يتوسط غرفة بيضاء دائرية الحوائط، وفي مواجهة الباب تجويف كبير يحوطه قوس بني نُقش عليه بحروف ذهبية:

Speranzae salvezza

أما داخل التجويف، فيوجد التابوت الحجري الذي من المفترض أن يحوي جثمان بينتولا. ومن أعلاه صورة لشجرة فاكهة، أسفلها رجل يحاول الوصول إلى إحدى ثمارها. وبعيدًا عنه تجلس امرأة ذات شعر طويل مسدل، ووجه خائف ومرتعب. تحرك نيكولا مقتربًا من القبر، وحاول جاهدًا دفع الغطاء، لكنه كان أثقل مما تصوَّر، وظل يحاول ويستجمع قوته حتَّى حركه بعض سنتيمترات... وبعد وقت طويل، تملك من الغطاء، ودفعه حتَّى ظهر له ما بداخله...

***

توقفت سيارة الأجرة بفاروق أمام مبنى ضخم كتب أعلاه بحروف كبيرة: Rome Termini

دفع فاروق الأجرة للسائق، وتحرك مسرعًا داخل المحطة دون انتظار الباقي... سأل أحد العاملين عن الاستعلامات، فأشار له نحو شباك زجاجي عريض ناحية اليمين مكتوب أعلاه Queries... توجه نحوه مسرعًا، وسأل:

- The next train to Berlin.

نظرت السيدة فِي الشاشة التي أمامها للحظة، ثم قالت:

– Platform quindici.

رد فاروق:

- Sorry, can’t understand.

قالت:

- Platform fifteen.

ثم أضافت وهي تشير إلى اللوحة فِي ظهر فاروق:

- Now, ora.

نظر فاروق من خلفه، وظل ثواني يبحث حتَّى وجده... سيتحرك القطار فِي الساعة الخامسة... الساعة الآن الخامسة إلا دقيقتين... عليه أن يجد الرصيف رقم 15، وأن يحجز تذكرة، لكنه لا يعلم كيف أو من أين... وذلك سوف يؤخره، ولا يعلم ما قد يحدث فِي ساعات انتظاره للقطار التالي. الكنيسة لن تتركه، خصوصًا بعد معرفتهم بتورط رياريو، وأن الأمر أكبر بكثير من أن يتم احتواؤه فِي بعض الأشخاص...

توقف عن التفكير، وجرى مسرعًا نحو الرصيف، ليجده هناك تستعد أبوابه للإغلاق. جرى مسرعًا وهو يأمل أن يلحق به. كانت المسافة بعيدة، وألم ركبته عاد إليه، لكنه لم يتوقف أو يتهاون. وكان وقع إغلاق الأبواب على أذنه هادئًا بعد أن قفز فِي إحداها، وأطلق القطار صافرته معلنًا عن الرحيل من الأراضي المقدسة...

لكن فاروق استدار ليجد أحد العمال فِي القطار يصرخ فيه بإيطالية يكاد فاروق يجزم أنها عبارة عن خليط من الشتائم القذرة وسب الثقافات... حاول الرجل أن يمسك يد فاروق ليأخذه معه ويوقف القطار، لكن فاروق سحب

يده، ودفعه للخلف، فتحرك الرجل نحو الركن البعيد، ورفع يده نحو الحائط.
علم فاروق على الفور أنها المكابح، فجرى نحوه وأمسك يده، وبدون أن يفكر، أخرج محفظته، وأعطاه نصف الأموال التي بها، والتي كان قد أعطاها له رياريو دونًا عمَّا نقص منها فِي الأكل والرداء... نظر له الرجل فِي غضب، ثم بدأت ملامحه فِي الارتخاء بعد أن تحسَّس المبلغ فِي يده.
أنزل يده، وأمسك بفاروق، لكنه هذه المرة تحرك به نحو إحدى العربات، وأجلسه فِي مكان فارغ وقال له:

- anything else?

أخرج فاروق الورقة التي لم يفهمها، وأعطاها له، وقال: translation please.
نظر بها قليلًا ثم قال: Sotto gli alberi di tilia.

- It means under Tellia’s trees.
- What does it mean?
- It’s a famous street in berlin.

- شارع؟
قالها فاروق مصدومًا وسعيدًا فِي آن واحد.
فقال الرجل مندهشًا: Bardon.
رد فاروق مبتسمًا:

- Never mind. Thank you very much.

شعر فاروق بنشوة غير طبيعية وإثارة لم يعهدها من قبل... إنه على الطريق الصحيح... تأمل السماء من النافذة وقال:- لا تقلقا... سأصل...
غط فاروق فِي النوم دون أن يشعر، وغاب فِي عالم الأحلام طويلًا حتَّى شعر بيد تتحسس كتفه. فتح عينه ليجده عامل القطار، وهو يقول بابتسامة هادئة:

- Next stop is yours.

قام فاروق وقلبه كان لا يزال مختلجًا من أحلامه. توجه نحو نهاية العربة، وانتظر حتَّى توقف القطار، وفتحت أبوابه، ونزل منه. وما إن خرج من المحطة، حتَّى سأل أول من قابله:

- Sotto gli alberi di tilia.

جاءه الرد بالألمانية، فاعتذر وقال أنه لا يتحدث إلا الإنجليزية، فأشارت السيدة خلف المحطة، وقالت:

- You can walk... It’s 4 blocks behind the station. Take the right turn in the fourth... It’s a big street with huge trees.

- Thank you.

تركها مغادرًا نحو الاتجاه الذي أشارت إليه. ظل يسير بين شوارع المدينة الرمادية غير آبه بمن حوله أو ما يجول بالعالم الآن... هناك سيمفونية عذبة تجري مع دمه فِي عروقه تعزف ألحانًا دينيةً لا أصل لها فِي معجمه... هو يعلم أنه يقترب من سر إلهي عظيم لا يعلم ماهيته، لكن يكاد قلبه أن يخرج من صدره من شدة الورع... بالتأكيد هو يسير على خطى الرسل والأنبياء... هذه الأحاسيس لا تولد إلا من رحم الإيمان... ليس هناك فِي الكون مارد ولا شيطان ولا عفريت يمكنه أن يخلق هواجس وفتنًا بهذه الدقة اللامتناهية التي تتلاعب على أوتار مشاعره بقوة غير مؤلمة، أو بألم طفيف ممتع.

انقطعت أفكاره عندما وصل إلى المكان الموعود... شارع جانبي، لكن اتساعه يدل على أنه كان يومًا من الأيام شارعًا مهمًّا.. عريق ضخم تزينه أشجار الزيزفون، لا تصل الشمس إلى أرضه؛ لهذا سُمِّي بهذا الاسم: شارع "تحت أشجار الزيزفون"؛ فما إن تطأ قدمك بداخله، حتَّى تبتلعك أوراق الأشجار لتختفي فِي ظلها.

- ها نحن هنا...

قالها فاروق.

دلف إلى الشارع، وظل ينظر حوله دون أن يعرف وجهته... قطع منتصف الشارع. وقبل أن يتسلل الشك إلى صدره، رآها تقف هناك، تنظر إليه بعينين حديديتين تخلو منهما الحياة...

تقف وسط الحديقة الأمامية لقصر عتيق هائل الحجم... كان يومًا ما حسن الهيئة، وقد أصبح الآن يصدر قدرًا من الكآبة لا بأس به هو والأعشاب التي أمامه، والتي يبدو أنها لم تجزَّ منذ الأزل!

تطلع فاروق نحوها وهي تقف هناك صماء جوفاء، صُنعت من معدن غير معروف، قيل إنه قد يكون خليطًا من معادن مختلفة ومواد ومركبات لا يعرفها إلا صانعوها، وتعمدوا إخفاء منحنياتها ومحاسنها إلا صدرها البارز... فهي أنثى، لكنها فِي الحقيقة أشبه بأسطوانة جوفاء لها رأس سيدة أربعينية... وأشيع عليها اسم العذراء الحديدية، لكنها فِي الحقيقة لم تكن عذراء قط... كانت أرملة هوجاء قاتلة... تعرف فاروق عليها على الفور... إنها هي... عذراء محاكم التفتيش.

وبالرغم من شهرتها، إلا أن قليلًا من يعرفون أصل تلك السيدة وحقيقتها، فتقول الأساطير إنها فتاة ريفية جميلة المظهر حسنة الوجه ذات قوام فاتن، تزوجت من مزارع فقير، وأقامت معه فِي ضواحي برلين، ثم ترملت ولها من الأولاد اثنان... بعد وفاة زوجها، توجهت للعمل فِي القصور والبيوت حتَّى التقت يومًا بأحد النبلاء فِي حديقة هذا القصر الذي قد شيده الإمبراطور "فريدريش الأكبر"، والذي شهد العديد من الأحداث التاريخية، بدءًا من

تتويج الإمبراطور "فلهلم" الأول، وتوقيع معاهدة الهزيمة فِي 1919، وأحداث أخرى.

بُني القصر، وتُوُورِثَ مراتٍ عديدةً، وتنقلت ملكيته حتَّى آلَ إلى أسرة هوهنسون، وهنا خيم عهد دموي مظلم على القصر.

كانت بدايته عندما التقى النبيل وايلي ريست هوهنسون بتلك الأرملة الفاتنة فِي حديقة القصر، وهي مسرعة وسط العشب كاشفةً عن ساقيها، قاصدةً منزلها بعد أن أنهت أعمالها، فتتبعها، ووجد أنها كانت تعمل فِي الدعارة ليلًا، وتستمتع بذلك. وأوقاتًا كانت تضاجع الكثيرين فِي آن واحد. وبالرغم من صدمته، إلا أنه لم يستطع أن يقتل ذلك الحب بداخله نحوها، فصنع ذلك التمثال الحديدي الممتلئ بالنتوءات الحادة كالمسامير، وجعله يحتضن كل من تسول له نفسه احتضان تلك الفتاة، وقتل كل من كان يضاجعها، وجعل التمثال نهايةً لكل حي يلمس "سيدوف"، أو هكذا كان يطلق عليها... ولما علمت سيدوف، لم تتضايق قط، بل وقعت فِي غرام النبيل وايلي، وبدآ يتقابلان، وتساقيا كأس الهوى معًا، لكنه قال لها أنه لا يستطيع أن يتزوجها، فصُدمت منه وقالت:- ألا تهواني؟

قال:- أهواكِ وأتمناكِ لي وحدي، ولكن...

قاطعته:- ماذا إذًا؟ هل هو ماضيَّ الملوث؟!

رد سريعًا:- لا أبدًا... لكن السبب هذه العيون الأربع... لولاها ما كنت ترددت للحظة... فهم لا يرحمون.

هنا صمتت الأرملة، وفكرت قليلًا، ثم تركته وذهبت إلى المنزل، وظلت طوال اليوم شاردةً لا تتحدث. وعند حلول الليل، توجهت إلى طفليها الصغيرين وهما نائمان، وظلت جالسة قليلًا أمامهما تفكر وتفكر، حتَّى قامت

وأمسكت كلًّا منهما من رقبته على حدة بكلتا يديها، وظلت تخنقهما حتَّى تلون وجهاهما بزرقة خانقة، وفارقا الحياة، وخرجت فِي عتمة الليل لتدفنهما... وظلت بعدها يومين فِي منزلها تبكيهما، وفي نهار اليوم الثالث ذهبت إلى النبيل لتقول له:

- أبشِر... لم يعد لتلك العيون الأربع وجود... اقترب مني كما شئت.

ولكن هنا كانت الفاجعة... فلم يكن النبيل يوم قال تلك العبارة يقصد بالأعين الأربع أولادها... بل كان يقصد عيون والديه العجوزين... فانهارت الأرملة، وعادت أدراجها لتحضر ملابس طفليها من المنزل، وتخرج من منزلها وقد مسها الجنون، وصارت هائمة فِي الشوارع والحقول تحمل ملابسهما فوق صدرها وتبكي حتَّى ماتت... ومنذ ذلك اليوم، لا تزال الأرملة الحديدية تقف فِي حديقة القصر رمزًا لسوء العاقبة وشر العذاب.

ظل فاروق يتطلع إليها قليلًا، ثم بدأ يتفقد المكان من حوله. بوابة القصر مفتوحة قليلًا... ألقى نظرةً أخيرةً نحو الشارع قبل أن يدفعها ويخطو بقدمه داخل العشب الذي يكاد يغطي حذاءه... سار نحو الأرملة السوداء، ووقف أمامها قليلًا، ثم أخرج الورقة ليقرأها مرة أخرى:

(في المدينة الرمادية... لا تزال الأرملة الحديدية صامدة... حيث ينتظر المستبصرون الصعود العظيم).

لكن وقوفه أمامها قد أزال بعض الغيوم عن عقله، وبدأ يفكر بطريقة مختلفة... أدرك أن السطحية التي تعامل بها مع الأمر منذ لقائه مع شيخ الأزهر ليست خيارًا... عليه أن يحفر فِي أعماق الكلمات أكثر وأكثر. نظر إلى الورقة، وقرأها مرة أخرى قبل أن يقول لنفسه إن كلمة rebound ليست ترجمتها الوحيدة الصعود... ففي القاموس العلمي يمكن استخدامها فِي وصف أشياء

أخرى... وفاروق نفسه استعملها فِي إحدى المرات عندما كان يكتب مقالة عن تسامي ذرات المادة... كلمة rebound يمكن هنا أن تحمل أكثر من معنى... يمكن أن يكون المستبصرون ينتظرون الطفرة العظيمة، أو ما إلى ذلك.

هنا بدأ فاروق يتحمس كثيرًا... إن كانت تعني أو يُقصد بها "طفرة"، فهذا يعني أن قطع الأحجية بدأت تتجمَّع لتشكل فِي عقله سيناريو مقبولًا.

لوهلةٍ، تذكر فاروق وهو يقف بجوار لارا فِي الڤاتيكان وهي تفتح الكتاب وتنظر داخله قبل أن يقول لها أن تضعه فِي حقيبتها... أغمض عينيه، وحاول استحضار ما رأته عيناه.

كان ماهرًا فِي هذا الأمر، لكنه دائمًا ما كان يستعين بعوامل خارجية لاستحضار ذاكرةٍ من عقله لم يتعمد الاحتفاظ بها... كالرائحة والموسيقى وغيرهما من الأشياء التي تحفز حواسه لاستحضار لحظات من الماضي، وكأنها تحدث الآن... لكن الآن عليه أن يعتمد على عقله فقط... ظل مغمضًا عينيه، وبدأ فِي التذكر.

كان الكتاب يحمل بعض المعادلات كالتي فِي الوثيقة، لكنها كانت مترجمة. بعد كل معادلة هناك فقرة أو اثنتان من الكلام المسترسل، ولمح تابوتًا زجاجيًّا مرسومًا بدقة فِي إحدى الصفحات مكتوبًا أسفله lazarous، وكان موصلًا ببعض الأسلاك والخراطيم، وداخله بعض المجسات والمستشعرات، وبجواره جهاز كبير يشبه إلى حد ما جهاز غسيل الدم...

مسح فاروق على وجهه بكلتا يديه، وفتح عينيه لينظر إلى الأرملة، ويردد بلسانه دون أن يشعر:- إنها هي... الذاكرة الجينية.

كاد عقل نيكولا أن ينفجر من هول المفاجأة... إن جثمان بينتولا ليس هنا... ولم يكن قط هنا... التابوت فارغ منذ البداية... لكن كيف؟! كيف تم ذلك بدون أن يشعر أحد... لا يمكن ليوستينوس أن يفعل ذلك بمفرده. وهنا شعر بالصاعقة تضرب جسده بالكامل، وشُلَّ من الصدمة... إنه رياريو بالتأكيد...

جن جنونه، وبدأ يحدث نفسه.

- كيف؟ كيف لم أعرف منذ البداية أن قائد الحرس مسؤول؟ كيف لم ألاحظ سفره المفاجئ إلى برلين، ولقاءاته الأخيرة مع بينتولا؟ كم كنت أحمق!

ظل دقائق طويلة يتعجَّب ويهز رأسه ويتساءل ويكرر: "كيف" عشرات المرات.

خرج مسرعًا عائدًا إلى مكتب رياريو ليفتش فِي أوراقه. وعندما وصل إلى المكتب الكائن فِي القصر الرسولي، بدأ يبحث كالمجنون... لا يعلم ما يبحث عنه، لكنه قلب المكتب رأسًا على عقب حتَّى وجد كتيبًا صغيرًا بداخل مكتبة رياريو، وقد كان جدول أعماله اليومي. ظل يقلب به حتَّى قابل عنوانًا فِي برلين، وهنا استجمع قواه، وبدأ فِي التفكير والربط بين جلساته مع بينتولا فِي الأسبوع الأخير، وزياراته لبرلين المفاجئة والمتكررة.

انتفض نيكولا من رنة هاتفه، وسعد عندما وجد أن المتصل هو جوليانو.

علم منه أنه بخير، وأن رياريو أيضًا قد استيقظ ويعاني من بعض الكسور.

رد نيكولا:- اسمع يا جوليانو. أعلم أنك قد عانيت، لكن الأمر اقترب من الانتهاء. أنا أعلم أين هذا الدكتور الآن...

تنفس نيكولا الصُّعَداء، وتابع:

- اسمع... عليك أن تتوجه إلى برلين... ولكن قبل أن تخرج من المستشفى، تخلص من رياريو؛ فإنه خائن ومتواطئ معهم. وبعد أن تتأكد من موته، توجه إلى العنوان الآتي فِي برلين، واقتل كل من يعترضك.

أغلق نيكولا الهاتف، وعاد للبحث داخل المكتب. ولكن عندما لم يجد شيئًا آخر، توقف أخيرًا، ثم لاحظ الشاشة التي تقبع هناك على منضدة صغيرة فِي نهاية الغرفة... توجه نحوها، وهو يعلم أنها ستؤكد له شكوكه. كانت الشاشة خاصة بمئات الكاميرات الموجودة داخل الفاتيكان، وبدأ فِي البحث فِي أرشيف التسجيلات الخاص بالكاميرات، حتَّى وصل إلى اللحظة المنشودة.

لم يعد يستطيع أن يسيطر على رعشة يديه وهو يتابع كاميرات المراقبة فِي حنق وضيق شديد. رياريو يساعد فِي نقل جثمان بينتولا... لقد كان يعتقد أنه أحد حلفائه... على أي حال، هو الآن فِي عداد الموتى... وبعد أن يقتل جوليانو فاروق، ستموت القصة معه، وتختفي أسطورة بينتولا للأبد.

"**حسنًا**... هندسة وراثية، وتسارع جسيمات، وVR. إنه كما توقعت تمامًا... لكن هذا مستحيل حتَّى على عقلي تصديقه".

هكذا قال فاروق لنفسه، وتابع التفكير فِي الذاكرة الجينية فِي هدوء أمام الأرملة... الذاكرة الجينية (أو هكذا أطلق عليها)... ففي عام 2001 قام مجموعة من علماء الهندسة الوراثية ببعض التجارب على مجموعة من الديدان، حيث جعلوها تعيش فِي ظلام دائم، وفي كل مرة يتم تعريضها للضوء، يقومون بصعقها بتيار كهربائي خفيف، ثم يعاودون تكرار الأمر، حتَّى تعلمت الديدان أنه كلما أضيء المكان ستصعق، فبدأت الديدان تلتف حول نفسها فِي كل مرة تشعر بأي ضوء. ولكن الأمر الغريب لم يظهر إلا فِي تبعات التجربة، وبعد جيلين كاملين من تلك المجموعة... فعندما تم تعريض الجيل الثالث من الديدان للضوء كان لها نفس ردة فعل أجدادها، وكان التساؤل الأكبر هو كيف يُمكن لذلك أن يحدث؟

اجتمع يومها العلماء على قدرة الحمض النووي للكائنات على الاحتفاظ بالذاكرة، أو على الأقل لمحات منها. وبعيدًا عن هذه التجربة، كانت هناك بعض الحوادث المنفردة التي أظهرت أعراض الذاكرة الجينية على بعض الأشخاص، كانت أولاها - أو أول ما وصل إلى معلوميتنا - هي موهبة الموسيقار توم ويغيز الذي ولد أعمى، ولم يتلقَّ أي درس موسيقي، ولكن كانت لديه قدرة رهيبة على تكوين ما يسمَّى بالجمل الموسيقية... وحادثة ألونسو كليمونز الذي كان يبلغ من العمر أقل من عامين عندما تعرض للسقوط، وظهرت بعدها بعدَّة أعوام موهبة النحت بدقة، وقدرته على تشكيل أي مادة لينة كالسمن. وعندما كان يلعب فِي مرة من المرات، شكل بعض الحيوانات بدقة متناهية وغير مسبوقة لأحد فِي ذلك العمر. ولم يكن ألونسو قد

أخذ أي دروس بأي نوع من أنواع الفن، لكن والديه ذكرا أنه قد سقط وارتطم برأسه وهو رضيع، وحدث له انحناء فِي الجمجمة... ولكن تم تفسير الأمر وقتها على أنه وُلد بتلك الموهبة أو الفطرة. ولكن بعض الآراء - التي ظهرت منذ اختراع مصطلح الذاكرة الجينية - تقول إن الفطرة ليست إلا ذاكرة الأولين. ومهما اختلفت المصطلحات من جينية أو عرقية أو متوارثة أو بديهيات أو حتَّى فطرية، فكلها تنبع من الدم الذي يسري فِي عروق هذا الكائن المعقد.

ولكن بعد فترة كبيرة من الدراسات، اتفق العلماء والباحثون أن التكوين الداخلي للحمض النووي للإنسان أعقد من أن نصل إلى مفاتيح تلك اللمحات من حياة أجدادنا السابقين.

وفي خضم تفكير فاروق وشكوكه التي تكاد تكون مؤكدةً، لاحظ اهتراء العشب من تحت أقدامه، وحتى مسافة قريبة.

تتبع بنظره الأرض التي تنم على أن هناك حركة دائمة إلى هذا المكان، حتَّى انقطع الطريق مرة أخرى... لا بد أن هذه الآثار حديثة... انحنى فاروق ليتحسس البقعة التي أسفله، ويكاد العشب يختفي بها تمامًا. تحسس قليلًا، ولكنه عندما عدل وضع قدمه، شعر بجزء معدني بارز أسفلها...

كان ذلك الجزء المعدني عبارة عن مقبض حديدي مزين بنقوش تشبه أفرع الأشجار المتشابكة، ويخرج منه بعض الثمار التي تشبه التفاح، لكنها بالتأكيد ليست تفاحًا.

حاول فاروق رفع المقبض، فانفتح معه مدخل السرداب بسهولة، ووجد أسفله سلمًا حجريًّا يقود إلى الظلام. وبجوار أولى السلالم وضع مشعلٌ خشبيٌّ التفَّت حوله قماشةٌ مبتلةٌ تفوح منها رائحة البنزين، وبجوارها على أحد

الأحجار البارزة من الحائط وُضعت علبة كبريت... بالتأكيد أحدهم يتردد إلى هنا كثيرًا، أو هناك من يعلم بقدوم فاروق.

أنار مشعله، وتحرك نازلًا إلى باطن الأرض دون تفكير، ودون أن يلاحظ ذلك الوجه العجوز الذي يتطلع إليه من خلف أحد نوافذ القصر، الذي من المفترض أن يكون خاليًا.

***

عندما وصل فاروق إلى نهاية السلم، وجد رواقًا صغيرًا يقود إلى تجويف هائل أسفل الأرض. تقدم نحوه ودخله، ليجده كقاعة أو بهو فخم ذي سقفٍ عالٍ مزين بشعارات ورسومات لجميع الأديان، وعلى جدرانه نقوشات مختلفة لأحداث تاريخية ومعارك ووقائع لم يسمع عنها فاروق من قبل، ومن المحتمل أيضًا أن عالمه المعاصر حتَّى لم يعرفها. وفي منتصف أرضية البهو تجويف مستطيل كان يحوي تابوتًا أو شيئًا ما لكن تم نقله. وهناك على الحائط لوحة لسيدة عارية ذات شعر أسود حريري الملمس يكاد يصل إلى الأرض، جمالها البسيط المميز مع تناسق ملامحها وتناظرها يخطف الأنفاس. أما عيناها فسوادهما قاتل ورسمها واتساعها متكامل بدرجة غريبة وجسدها العاجي ومنحنياتها المرسومة بإتقان تام تتسمر لها العقول وتعجز أمامها الألسنة وتنفتح لها الأفواه معلنة أنه لا وصف قد يكفي لوصفها... وبالرغم من جسدها العاري الأخاذ إلا أنها كانت تقف ببراءة مشبكة أصابع يديها أمام شفتيها ومن تحت اللوحة كتب:

Eve Temptation Pantaleon Szyndler

اقترب فاروق من المنتصف، وانحنى أمام التجويف الذي يدل على أنه حتَّى وقت قريب كان هناك ناووس يستقر به... لكن لاحظ فاروق بالجوار

وجود بطاريات كبيرة ومحولات وشاشات عرض تم تجميعها بأحد أركان الغرفة، وكأنها وضعت هنا استعدادًا لنقلها هي الأخرى...

من الواضح أن الذي كان هنا، قد غادر على عجلةٍ من أمره... لكن عندما التف فاروق نحو الحائط البعيد من البهو، أضاء مشعله جزءًا صغيرًا منه، تعرف فيه على صورة البابا بينتولا... اقترب فاروق منها... وكلما اقترب، كان المشعل يضيء له الحائط، وكانت عيناه تتسعان من الدهشة... كان الحائط عبارة عن مكتبة ضخمة تحتوي على صور العديد من الشخصيات العامة وأخرى غير معروفة، وهناك خطوط من خيط أحمر يربطهم جميعًا مكونًا شجرة كبيرة، وأسفل كل صورة تجويف فِي الحائط يحمل بعض الأوراق، وكل شخص منهم يحمل أعلى صورته رقمًا... اقترب فاروق ليلتقط أحد الملفات... كان صاحب الملف اسمه أرمين شويجارو، ويحمل الرقم 15، وتوضح الأوراق أنه صاحب التجربة رقم 15، أي إنه الشخص الخامس عشر الذي يستخدم تابوت الذاكرة كما هو مسمّى فِي الأوراق.

"تابوت الذاكرة"! إذًا شكوك فاروق صحيحة تمامًا... إذًا ليعازر وتموز وأيوب وكل ما إلى ذلك لم يكن رمزًا للبعث والنشوء... لقد قصد بينتولا شيئًا مغايرًا تمامًا... ورأى شيئًا جعله يقوم بإرسال تلك الوثيقة...

توجه نحو بعض الأوراق التي أُلقيت فِي الأرض والتقطها هي الأخرى... وجد أن الدكتور ويلسون قد قام ومعه مجموعة من العلماء ببعض التجارب على البشر فِي عام 2004 مع الدكتورة ساندرا برادلي عالمة الأعصاب... وتتحدث الأوراق بالتفصيل عن تلك الدراسات الخاصة بالذاكرة الجينية، والتي توضح أن الـ 97 ٪ من الحمض النووي – وهي نسبة

الجزء غير المعلومة وظيفته أو مهمته - عبارة عن مجال هائل الحجم لتخزين المعلومات.

وجد فاروق أن الموضوع أعقد كثيرًا مما تصور، وأنهم قد تعمَّقوا بشدةٍ فِي دماء البشرية، وأن الذاكرة الجينية لا تتلخَّص فِي الفكرة التي تقول إن أحماضنا النووية تحمل لمحات من ماضي أجدادنا، لكنها تمتلك تفاصيل دقيقة مرئية ومسموعة ومحسوسة... ذكريات مخزنة صوتًا وصورةً ورائحةً وشعورًا.

يعتبر العلماء أن هذه الهبة المخفية بداخلنا قد تظهر لنا فِي ومضات أو لحظات لا نستطيع تفسيرها...

وحَوَت الأوراق حل معضلة الارتباطات العصبية المتجددة التي من المفترض أنها تحوي الذكريات طويلة المدى... وكان الفضل فِي ذلك للدكتورة ساندرا التي كتبت أن العقل وبطريقة غريبة يستطيع أن يشكل مخططًا تفصيليًّا أرشيفيًّا للأحداث التي عاشها صاحبه أو أجداده مرتبة بطريقة معينة، وتتحرك بانتظام كي لا تضيع أبدًا فِي وقت تجديد الخلايا... وعليه فإن الأمر أشبه بتحريك البيانات من قرص صلب إلى آخر قبل استبدال القديم.

وتوضح الأوراق أيضًا أنه قد تم إيقاف التجارب فترة كبيرة لإصابة الأشخاص بحالات صرع وهلاوس، وادعائهم ظهور خيالات حولهم، واعتقاد الشخص المصاب أنه شخص آخر. والآن فِي آخر أبحاثه التي لم تر الشمس، يقول ويلسون أنه كان يعمل معها بالإضافة لدكتور فريدريك وين أحد علماء البرمجة أو الـ VR.

شعر فاروق بالحماسة تغمره... الذاكرة الجينية شيء حقيقي إذًا... وهي المفتاح لكل شيء.

لقد ظل الـ DNA لغزًا كبيرًا بالنسبة لعلماء الهندسة الوراثية... إذًا هناك مجموعة من العقول الرهيبة قد استطاعت أن تفك شفرة الحمض النووي الريبوزي... وقد توصلوا لشيءٍ لطالما اعتبرناه أسطورة... إنها الطفرة التي ينتظرها العالم.

نستطيع الآن الولوج إلى الماضي. نستطيع أن نرى ذكريات آبائنا ونعيشها لحظة بلحظة. نستطيع أن نسافر لأجدادنا. نستطيع أن نعرف مَن حرق القاهرة، مَن قتل ج. ف. كندي، كيف بُنيت الأهرام... نستطيع أن نرى الأنبياء والرسل... نستطيع أن نحضر العشاء الأخير، ونهاجر مع المهاجرين... نستطيع معرفة التاريخ الذي لم يُكتب ونعرف الحقيقة التي زيفها الكتبة المنتصرون... نستطيع ونستطيع ونستطيع...

لو أن الغرباوي هنا لظن أن ذلك ما هو إلا ضرب من الجنون، لكننا هكذا نحن دائمًا نرحب بالتطور البطيء لكننا نخشى الطفرات ولا نصدقها، ودائمًا نعتقد أنها سحر من عمل الشيطان.

توجه فاروق فِي النهاية نحو صورة البابا ليلتقط ملفه ويعرف سره الذي أجبره على إرسال وثيقة للأزهر وتشفيرها، وما علاقة ذلك به... لكنه سمع وقع أقدام تنزل على السلم... وعندما نظر إلى الجهة التي يأتي منها الصوت، وجد ضوءًا يقترب من نهاية الرواق... لم يعرف ما عليه فعله. ألقى المشعل الذي فِي يده على الأرض، وحاول أن يُطفئه لكن دون فائدة، فالتقطه مرة أخرى، وظل يبحث حتَّى وجد أحد التجويفات بين الجدران، وقد امتلأ بالغبار، فاختبأ به وألقى المشعل فِي أرضه، وظل يمسك بالتراب بيده ويلقيه على المشعل حتَّى انطفأ، واختفى فاروق فِي الظلام...

اقترب وقع الأقدام من الرواق حتَّى وصل إلى البهو، ثم اختفى.

ظل الصمت يلف المكان للحظات حتَّى صدر صوت أجش يقول بإنجليزية ضعيفة:- أعرف أنك هنا بروفيسور فاروق.

هرب الدم من عروق فاروق، وتسارع تنفسه مع ضربات قلبه، ولم يشعر بقدمه وهي تخطو نحو الضوء فِي البهو، ليظهر مواجهًا للرجل.

رث الهيئة، جسده ضئيل، ورأسه يكاد يكون خاليًا من الشعر. عيناه الزرقاوان تلمعان بقوة من خلف نظارته الطبية الدائرية... عرفه فاروق على الفور.. إنه صاحب التجربة الخامسة عشرة.

ظل كلاهما يتأمل الآخر، حتَّى كسر الرجل الصمت وقال:- كنت فِي انتظارك... لا أستطيع أن أقول إنك لم تتأخر.

رد فاروق:- لا أفهم... كيف تعرفني؟

ابتسم الرجل قليلًا، وقال:- هل تعتقد أن وجودك هنا صدفة؟

لم يردّ فاروق، فتابع الرجل:- هل تعتقد أن اختيارك كان عشوائيًّا؟ أو اختيار لارا كذلك؟ لا يا عزيزي... بينتولا لم يكن ليترك الأمر هكذا لكي تتلاعب به الأقدار... إنه ليس بهذه السذاجة ليفعل ذلك... فهو من زرع فكرة الاستعانة بكما فِي عقل الغرباوي قبل أن يرسل وثيقته بفترة كبيرة.

تذكر فاروق حديث الغرباوي عن لقائه مع بينتولا، وتطرقهما للحديث عن علماء المسلمين وتاريخ الإسلام ومصير البحث العلمي فِي البلاد الإسلامية... بالتأكيد بينتولا قد بحث عنهما هو ولارا، وذكر اسم لارا أمام الشيخ، ومن المحتمل أيضًا اسمه... لذلك كان أول تفكير الغرباوي الاستعانة بفاروق ثم لارا...

- حسنًا، ماذا الآن؟

قالها فاروق.

الرجل: قالوا لي أنك رجل ذكي... كنت أتمنى لو كنا نملك الوقت لأوضح لك كل الأمور... أوه، يا لوقاحتي! نسيت أن أعرفك بنفسي. أنا "خمسة عشر" كما يطلقون عليَّ، أو "إرمين شويجار" كما كنت أسمَّى.

تابع إرمين:- حسنًا، أنا آسف لأن أقول لك ذلك، لكن وأنا أتحدث إليك الآن، فإن رياريو قد فارق الحياة، وهذا المكان بالتأكيد كُشف للبابا، ولم يبقَ من المستبصرين إلا أنا وأنت، وعليك الآن أن تحمل الرسالة للعالم، لأنني وقع على عاتقي مهمة حماية المستبصر الأخير.

- انتظر انتظر... هل تقول إن رياريو قد مات؟

- بالتأكيد... قُتل.

- وما هي مهمتك؟

- عليَّ أن أدمِّر هذا المكان قبل وصولهم.

- وما هي الرسالة التي يجب أن أحملها؟

- انظر يا عزيزي... إن الله لا يزرع فِي العقل فكرة أو معلومة إلا وهو يعرف أن هذا العقل أرض خصبة تصلح بيئتها لهذه الفكرة.

لم يرد فاروق، وتنهَّد ساخرًا، وكأنه قد مل الأحجيات، فتابع "خمسة عشر":

- إذا لم تكن وصلت، فما زلت لا تستحق.

غضب فاروق بشدة، وبدأ يلعن بالعربية، ولم يفهم خمسة عشر سبابه ذلك، لكنه عرف أنه قد فاض به وعانى الكثير، فقال له بلغة عربية غير متقنة:

- فاروق... اصبر كما صبر أولو العزم ولا تستعجل.

توقف فاروق عن السِّباب وقال له:

- ماذا؟ هل...؟

قاطعه الرجل بإشارة من يده، بأن يتوقف ليستمع.

سمعا صوت فتح المدخل بالأعلى، وجاءهما ضوء طفيف من نهاية الرواق، فصرخ (خمسة عشر):

- الآن أسرع فِي هذا التجويف. ستجد ممرًّا سيقودك إلى خارج القصر من الحديقة الخلفية... اخرج واختفِ الآن، ولا تنسَ... زيندلر كان على حق... الأم المقدسة بريئة... ابحث عنها.

توجه فاروق نحو المكان الذي أشار إليه "خمسة عشر" ليجد خلفه جدارًا آخر موازيًا له، فيظهران كأنهما جدار واحد، لكن التجويف بينهما يقود إلى أعلى. ظل يجري به حتَّى قابله باب خشبي. فتحه ليجد الضوء يدخل إليه، ويكتشف أنه لم يعد فِي ممر.

لقد كان فِي غرفة خشبية تقف وسط الحديقة الخلفية للقصر. خطا فاروق خطوة نحو العشب ليشعر بهزةٍ قويةٍ، ويسمع صوت انفجار كبير يأتي من تحت الأرض، ليجد من خلفه القصر يبدأ فِي الغوص.

أسرع فاروق نحو السور، وحاول بكل ما أوتي من قوة أن يستجمع نفسه ليقفز من فوقه، وبالفعل قفز ليمسك بيده أعلى السور، لكن صدره آلمه بشدة من ذلك الاحتضان القوي... صعد بقدميه حتَّى أصبح فِي الجانب الآخر، وترك يده ليقع أرضًا، وظل يتابع الغبار يعلو المكان الذي كان يقف به قصر فريدريش الأكبر... ظل الرعب فِي عينيه للحظاتٍ حتَّى رآه هناك. إنه جوليانو دي باتزي يخرج من بين الحطام... فقام فاروق مسرعًا، وبدأ فِي الجري بعيدًا عن المكان حتَّى اختفى تمامًا بين شوارع برلين.

كان نيكولا جالسًا فِي مكتبه يتأمل السماء من النافذة، منتظرًا اتصالًا من جوليانو ليؤكد مقتل فاروق... ولكن بعد فترة طويلة تخللها التفكير فِي بعض الأمور التي يتوجَّب عليه فعلها من مهمات وزيارات كان قد ألغاها كلها فِي الأسبوع الأول، وبدأ الرأي العام والشارع المسيحي بالشعور بالضيق من اختفاء حبرهم الأعظم الجديد عن الأنظار؛ رن هاتفه وقد كان المتصل هو جوليانو دي باتزي.

- قداستك... لقد انفجر المكان بما فيه، ولكن لم نعثر على جثة الدكتور. نعتقد أنه هرب مرة أخرى.

- وهل هناك أي دليل متبقٍّ.

- لا، سيدي. لقد وصلنا إلى المنزل، واكتشفنا أنهم كانوا فِي كهف أسفله. ولكن قبل أن نتمكن من النزول، فجروا المكان بما فيه. وأعتقد أن من كان هناك - أيًّا كان - قد هرب قبل الانفجار بلحظات.

- وهل هناك أي شيء يربطنا بالمكان؟

- قداستك... إن المكان أصبح كالرماد... لا يوجد هنا ما يربط أي شيء بأي أحد.

لم يعرف نيكولا هل عليه الشعور بالغضب من جوليانو لأنه قد ترك السر ليُدفن دون أن يعلمه، أم يشكره على أنه أنقذ العالم المسيحي من فتنة كبيرة.

أخيرًا قال:- حسنًا، اختفِ الآن، وانتظر تعليماتي...

أغلق نيكولا الهاتف، وبدأ فِي التفكير فِي خطوته القادمة. بعد أن تم تفجير المكان، فالآن فاروق لا يمتلك أي شيء، والأمر قد انتهى... ولكن تسلل إلى قلبه الشك؛ فإن بينتولا دائمًا ما كان يسبقه بخطوة، وإن إقبالهم على تفجير المكان لهو أمر ليس بالهين. وعلى أي حال، إذا كان هناك أمر آخر، فبالتأكيد

سيظهر مرة أخرى مع ظهور فاروق... عليه أن يتوقف عن مطاردته الآن... وحتى ذلك الحين - أي ظهور فاروق - عليه أن ينتظر فِي هدوء، وعليه أن يفكر فِي كيفية التخلص من العقبة الأخيرة التي تقف فِي طريقه.

ولكن هنا تكمن المشكلة الكبرى... فإنه بعيد عن يديه، ولا يمكنه قتله إلا بتدبير وتخطيط محكم حتَّى لا يرتبط الأمر به أو بالڤاتيكان...

ظل نيكولا يفكر طويلًا، حتَّى لمعت الفكرة فِي رأسه، وقام ليتصل بضحيته القادمة ليخبرها بآخر التعليمات...

قام من مجلسه، وتوجه إلى الهاتف، واتصل به على الفور... وبعد ثوانٍ قليلةٍ، ردَّت الضحية على هاتفها، مرحبةً بالصديق نيكولا بلاجسيوس...

رماد ذهبي مشع متناثر، يظهر فِي عتمة الأرض، يرسم أشكاله وتضاريسه باحترافية رائعة. منظر خلاب وملهم وخاطف للأنفاس... لكن بالرغم من أن حقيقة هذه الصورة من الأسفل ليست كما ترى من تلك النافذة، إلا أن صوت احتكاك عجلات الطائرة بأرض المهبط قد أسعد فاروق... وبالرغم من فرحته بالعودة إلى الوطن، إلا أن ذلك لم يروِ ظمأه... فها هو قد عاد إلى أرضه بعد رحلة ضارية، ولكنه لا يعرف له وجهةً الآن... ولا يعلم أين يوجد ذلك التابوت، وماذا رأى بينتولا؟ ولماذا أرسل الوثيقة؟ وما سر التسمية؟ كلها أسئلة لا أجوبة لها...

بعد أن توقفت الطائرة وبدأ الركاب فِي الخروج، تبع فاروق الركب المتحرك، ووصل إلى باب الطائرة. وما إن خرج منها حتَّى وجدهما هناك فِي انتظاره فِي نهاية سلم الطائرة... بنفس هيئتهما ولباسهما الذي قابلوه به أول مرة... لكن هذه المرة هو من سيخطو نحوهما... ظل واقفًا للحظات ينظر إليهما ويستجمع قواه، ثم تحرك نازلًا السلم... وعندما وصل إليهما، لم يلق لهما بالًا، فتحدث مساعد الغرباوي:

- دكتور فاروق... حمدًا لله على سلامتك... الشيخ فِي انتظارك.

نظر له فاروق باشمئزاز وقال:

- لست فِي حالة تحتمل لقاء أحد الآن.

- إنه يعلم أنك قد عانيت الفترة الماضية... لكنه فِي انتظارك منذ أن تحركت من برلين.

ابتسم فاروق ساخرًا وقال:- حسنًا... وإن لم أوافق؟

- أعتقد أني سأكون مضطرًّا لإجبارك على ذلك... أعتذر منك؛ فأنا لا خيار لديَّ.

بالرغم من حنق فاروق الشديد، إلا أنه قرر الذهاب لمواجهة هذا الشيخ الخَرِف.

قال أخيرًا:- حسنًا.

رد المساعد:

- يسعدني خيارك... تفضل معي.

***

وصل فاروق إلى المشيخة، وقد كان يعرف طريقه إلى مكتب الغرباوي، فلم ينتظر أن يقوداه. ودخل دون أن يطرق الباب، ليجد عددًا من الشيوخ والأئمة جالسين بالداخل مع الشيخ... علت الدهشة وجوههم من ذلك الدخول الفظ، لكن الغرباوي نظر له بكل هدوء وقال:

- اعذروني؛ فلقد انتهى اجتماعنا اليوم.

تحرك فاروق، وجلس أمام مكتب الشيخ منتظرًا مغادرتهم. أغلق الغرباوي أي محاولات لأحاديث ما بعد الاجتماع، وقال لهم:- ليس الآن.

وبعد أن غادروا جميعًا، ذهب فِي هدوء نحو مكتبه، لكنه لم يجلس على كرسيه، بل جلس على الكرسي المقابل لفاروق، وعاد المشهد الأول بينهما يتكون من جديد. وبالرغم من نفس المجلس ونفس الأشخاص، إلا أن النفوس هذه المرة ليست كما كانت.

ظل فاروق معلقًا عينيه به فِي حنق شديد دون أن يتحدث، والصمت يعم الغرفة لحظات طويلة، حتَّى تنهد الغرباوي وقال أخيرًا:- عزيزي فاروق. أعلم أنك لا تشعر بالارتياح لوجودك معي الآن، لكن عليك أن تعلم أن ذلك

الأمر أو هذه القضية التي انجرفنا بداخل أحشائها هي أكبر مني ومنك ومن نيكولا بلاجسيوس نفسه.

قال فاروق مستهزئًا:- ولم لا تقول أن عقلك أنت أقل من أن يدرك الأمور على حقيقتها؟

- لا يا عزيزي... يمكن أن تكون محقًّا، لكن أنا أفقي أوسع منك لأدرك أن الأمر أخطر من أن أتدخَّل به.

فاروق: وجهات نظر.

الغرباوي: إذن لا تفسد بيننا الود.

- ليس بيننا أي ود... أنا أعلم الحقيقة...

بدأ صوت فاروق فِي الارتفاع، وتابع:

- أعرف أنك كنت على اتصال مع نيكولا منذ البداية. أعرف أنك أول من باع بينتولا عندما أرسل لك الوثيقة. أعرف أنك لم تكن مخلصًا له كما كنت تدَّعي. أعلم أنك أنت ونيكولا من قتلتماه... ونحن - أقصد أنا ولارا التي قتلتها - لسنا إلا أدوات، وكنتما تستخدماننا لكشف ما توصل إليه بينتولا... لكنه كان أذكى منك، وتعامل مع الأمر وكأنه كان مطلعًا على قلوبكما، واستعملكما كدواب مطيعة.

- عزيزي فاروق...

كان هذا شيخ الأزهر محاولًا تهدئة فاروق الذي بدأ يفقد صوابه.

صرخ فاروق:- دعني أكمل ولا تقاطعني... علمت نواياك من البداية، وأعلم بخيانتك... لكن ما لا أستطيع أن أفهمه هو لماذا؟ لماذا بعت بينتولا؟ بمَ وعدك نيكولا فِي المقابل... لا يملك أن يمنحك سلطة فوق سلطتك... هل هي الأموال؟ هل وعدك بثروة أو شيء من هذا القبيل؟

ضحك الغرباوي ضحكة ساخرة وقال:
- ألم أقل لك إن الأمور التي يدبرها أكبر من أن تفهمها؟ عزيزي فاروق... لا أعلم كيف أوضح لك هذا، لكني سأسألك ما هي الفائدة بالمخاطرة الآن وإشعال حرب بين الإسلام والمسيحية... لن تعود منافعها على أي منا؟ وفكرت فِي الأمر طويلًا، ووجدت أن من الأفضل لنا الاتحاد... فكرت فِي انتهاز الفرصة... فكر معي... ماذا لو وعدت نيكولا بالحفاظ على كيان الفاتيكان من تهديدات بينتولا، وفي المقابل ساعدني هو فِي إنشاء كيان مستقل للأزهر الشريف؟
- إذًا هي السلطة؟
- لا يا فاروق... إن هذا المنصب ليس دائمًا لي... لكن الأزهر هو الذي سيدوم، ويجب عليَّ الحفاظ عليه... صدقني لو لم أكن تحالفت أنا مع نيكولا، كان سيجد طريقة أخرى لينتصر... ومهما امتلكنا من دلائل وحجج، فما كنت لأدحض الفاتيكان... كان عليَّ الانحناء قليلًا حتَّى أعلو بالأزهر. كان علينا أن نقدم بعض التنازلات من أجل أغراض كبرى. كان الهدف هو تجديد العلاقات من أجل ضمان القوة فِي المستقبل.
ضحك فاروق مستهزئًا وقال:
- هل تقصد أن تقول أنه كان علينا تجديد الخطاب الديني؟
تضايق الشيخ وقال:- لن تفهم أبدًا.
رد فاروق وقد قام من مجلسه:
- حسنًا... أنا لن أفهم أبدًا... لكنك أيضًا لن تفهم أبدًا أن الهمس فِي وقت الاحتياج للصراخ بالحقيقة، كفر وخيانة للقضية.

- يا عزيزي إن المشكلة الكبرى فِي وطن تحت وطأة حكم فاشي، أنك مهما حاربت لأجل قضية ما، فإن الوطن وحكامه والقضية نفسها سوف يخونونك فِي آنٍ واحدٍ، ولن تصل إلى شيءٍ.

- حسنًا... معك حق فِي ذلك... لكنه ليس مبررًا... أعتقد أننا لن نصل إلى نقطة تتلاقى فيها آراؤنا إلا تلك.

قالها فاروق وهو يتحرك نحو الباب، تاركًا الشيخ جالسًا.

فتح الباب، وهم بالخروج، فقال الغرباوي:

- دكتور فاروق... أرجو أن تكون هذه هي النهاية... فهذا أقصى ما يمكن أن تصل إليه... أرجوك أن تتوقف عن البحث.

- ليس من شأنك.

قام الغرباوي، وتوجه نحوه وقال:

- أصبح المكان فِي برلين كالرماد. أخبرني ماذا وجدت هناك؟

نظر له فاروق طويلًا، وفكر فيما إذا كان عليه إخباره أم لا، ولكن قرر أنه لا فائدة من ذلك، فأغلق الباب خلفه تاركًا شيخ الأزهر فِي حيرة...

مكتب شيخ الأزهر بعد عدة أيام...

أثناء استغراق الغرباوي فِي حيرته، جاءه اتصال من نيكولا يسأله عن التطورات، ويتأكد منه إن كان فاروق قد توصل إلى شيء أم لا.

الغرباوي: لا لا... أعتقد أنه ليس لديه أي فكرة عمَّا عليه فعله؛ فقد تحرك إلى المنزل فورًا، ولم يغادر منذ يوم أن تقابلنا بعد عودته.

نيكولا: حسنًا يا عزيزي. أعتقد أننا أوشكنا على الانتهاء، لكن علينا متابعته لفترة ليست بالقصيرة حتَّى نبدأ فِي التحرك لتنفيذ مخططنا.

تساءل الغرباوي:- ألن يكون قتله أفضل؟

نيكولا: لا... لن أقول إننا يجب أن نكتفي من سفك الدماء؛ لكن إن كان هناك شيء لم نكتشفه بعد فهو مفتاحنا الأخير... سنتركه يعيش لحين إشعار آخر.

الغرباوي: وأنا سأظل أراقبه.

صمت نيكولا قليلًا يفكر كيف سيستقبل شيخ الأزهر الآتي، ولكن قرر أن يحدثه بأسلوب لائق حتَّى لا ينفر منه.

أخيرًا قال:- حسنًا... بالنسبة لهذا الأمر، فأنا لا أقلل منك أخي، لكنني سأرسل لك راهبي الأكثر إخلاصًا... أرجو استقباله ومساعدته، وترك أمر مراقبة فاروق له.

تعجب الغرباوي بشدة؛ فكيف لراهب إيطالي لم يزر مصر من قبل أن يتجول فِي شوارعها، ويراقب أحد قاطنيها دون أن يُكشف أو يتوه أو يقع فِي العديد من المشكلات، فتساءل:- راهبك هنا فِي مصر! أعتقد أنه لن يستطيع.

نيكولا: لهذا أعتمد عليك وعلى رجالك كي يساعدوه.

الغرباوي: حسنًا. اعتبر أن الأمر قد تم... متى سيصل؟

قال نيكولا: ستحط طائرته بعد ساعة.

الغرباوي: سأكون فِي انتظاره.

نيكولا: حسنًا، هناك أمر آخر... بالنسبة للقائنا، علينا أن نقوم ببعض الزيارات المختلفة لنبعث رسالةً إلى العالم حول مجهودنا.

الغرباوي: أنا معك فِي أي شيء.

نيكولا: أرجو منك فقط إطلاعي على مخطط زياراتك هذا العام، وعليه سأقوم بتحديد مخططي... وسأساعدك فِي تجديد وتطوير خطاباتك، وسنقوم سويًّا بعملية تجنيد القيادات.

قال الغرباوي فِي قلق:- إننا كلما اقتربنا شعرت أن الأمر كبير جدًّا ومخيف.

- يا عزيزي... التغيرات الكبرى لا تأتي فِي سلام... والأمر سهل جدًّا إذا ما توافر معك المال اللازم لشراء الأحصنة المحرِّكة للأحداث والبيادق التي ستضحِّي بها... وتأكد أن بإمكانك شراء أي أحد؛ فلا يوجد من ليس لديه سعر.

لم يرد الغرباوي، وشعر بخوفٍ شديدٍ من تبعات الأمر إذا فشل... سيخسر وقتها كل شيء، بما فيه مكانته وحياته ومستقبله.

تساءل نيكولا عندما لم يأته رد:- هل ما زلت معي؟

- نعم... لا أزال معك... انظر... الأسبوع القادم سأكون فِي المملكة لحضور حفل توزيع جوائز القرآن الكريم، وبعد عودتي يجب أن نتقابل لنضع النقاط على الحروف.

وعبر البحر الأبيض المتوسط، وعلى بعد ثلاثمائة ميل بعد الألف، ابتسم نيكولا فِي خبثٍ وقال:- نعم نعم... بعد عودتك.

توالت الليالي، ولم يغادر فاروق شقته، وقلَّما كان ينهض من سريره... وكأن جسده قد أصابه الخمول والتعب بعد أن علم أن رحلته انتهت... ولكن بالرغم من ذلك الإحساس الذي سيطر على جسده، إلا أن عقله لم يستسلم...

فقد امتلأت شقته بقصاصات ورقية وكتب ومذكرات وأبحاث وأوراق غير مرتبة وجرائد كلها تتعلَّق بأمور البابا السابق ومقتل الدكتور ويلسون وحادث الانفجار فِي برلين، وكل شيء يمكن أن يكون ذا صلة بالأمر... ولكن كلها آلت به إلى طريق مسدود.

وقبل أن ينهض من سريره ليبحث عن شيء يأكله أو يطلب من الخارج، وجد جرس شقته يعلن عن وصول زائر له... اندهش تمامًا، ولم يستطع أن يفكر فِي أن هناك أحدًا قد يزوره فِي الصباح... توجه نحو الباب، وسأل:

- من؟!

- خدمة البريد السريع.

هنا تذكر فاروق، وابتسم لنفسه. فتح الباب ليستلم الطرد الذي كان قد أرسله لنفسه من روما بعد خروجه من المطعم.

فقد أرسل لنفسه يومها الوثيقة، وأكد على أن يكون الاستلام بعد أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع من تاريخه...

فقد كان يعلم أنه فِي أسوأ الأحوال إن لم يصل منزله خلال أسبوعين، فإنه بالتأكيد سيكون قد قُتل، ولن يحتاج إليها مجددًا...

أخذ الطرد، وشكر الرجل، وأغلق الباب ليعود لغرفته وقد نسي الإفطار تمامًا، وفتح الطرد ليُخرج الوثيقة ويبدأ فِي النظر إليها... وظل محدِّقًا بها حتَّى غط فِي النوم مرة أخرى.

وصل جوليانو دي باتزي إلى أرض مصر، وكان أحدُ رجال الغرباوي فِي استقباله. وبدلًا من استقباله فِي فندق، تم استقباله فِي سيارة جيب سوداء ذات زجاج ملون، وتوجه به إلى أسفل منزل فاروق.

كانت السيارة مجهزة بكل سبل الحياة من مأكل ومشرب وثلاجة صغيرة وما إلى ذلك. وظل الرجلان معًا فِي السيارة يومين كاملين، وفاروق لم يخرج من منزله، وعليه لم تغادر السيارة المكان أبدًا...

ظلا يتابعان شقة فاروق ونوافذها التي تظل مضاءةً للصباح، وخيال فاروق يحرك أعينهما دون فائدة... ومع أول خيط لضوء الصباح، تنطفئ الأضواء، ويخلد فاروق للنوم حتَّى الظهيرة. وبعد ذلك يأتيه البواب بالإفطار والبقالة وتموينه من الشاي والقهوة، وقبل الغروب تأتيه الوجبة الثانية على دراجة نارية من أحد المطاعم.

وفي تلك الفترة، ظل الغرباوي على اتصال بنيكولا، وبدأ فِي التجهيز لزيارته للمملكة...

***

نهار اليوم الثالث من المراقبة

كان فاروق مستلقيًا على الأرض بين أكوام الأوراق متابعًا حركة ريش المروحة، ويستمع لإحدى مقطوعات الهولندي "كاسبر كيد"؛ وعندما انتهت، قام ليشغل نفسه بأي شيء غير البحث والتنقيب خلف ماركوس بينتولا... فكر أن عليه أن يعود إلى الحياة. يمكنه أن يتابع الأخبار فِي التلفاز؛ فهو منقطع عن العالم منذ أن خرج من منزله من قرابة الشهر متجهًا نحو النادي ليعدو...

ومنذ ذلك اليوم، لم يعد من هناك... والذي عاد ليس فاروق الدكتور الجامعي...

قام ليصنع لنفسه كوبًا من الشاي، وتوجه للتلفاز، وتوقف عند إحدى القنوات الإخبارية. كانت المذيعة تتحدث عن اختطاف قوات حزب الله لجنود إسرائيليين من جنوب الضفة الغربية، وانتقلت للخبر التالي الذي يعلن عن بدء كوريا الشمالية فِي أول تجربة نووية. وظلت تنتقل من خبر إلى آخر حتَّى وصلت للأخبار الرياضية التي تصدَّر عناوينَها فوزُ منتخب إيطاليا على منتخب فرنسا بركلات الجزاء الترجيحية، وبهذا يتوَّج بطلًا لكأس العالم.

في الحقيقة، كان فاروق يتابع دون أي اهتمام، حتَّى حادت عيناه قليلًا نحو النافذة عندما سمع صوت جلبة عالية آتيًا من الشارع... فنهض مسرعًا، ونظر من خلف الزجاج ليجد بعض الأطفال العائدين من المدرسة يتشاجرون مع بعضهم البعض.

تأمَّلهم طويلًا دون أن ينتبه لتلك السيارة التي تقف منذ أيام، وظل يحاول أن يتذكر طفولته، لكن عقله لم يساعده على ذلك، وصفير براد الشاي لم يترك له فرصةً للتعمق فِي ذكرياته...

توجَّه إلى المطبخ، وأحضر بعض البسكويت مع الشاي، وعاد لغرفته تاركًا التلفاز الذي لم ينجح فِي أن يشتت تفكيره عن البحث...

عاد إلى غرفته التي تبدو كأن زلزالًا قد ضربها، أو تمت زيارتها للتو من ذوي الشرائط المغفلين... تأملها قليلًا دون أن ينتبه لما أمام قدميه، ولحظة دخوله تعثر فِي أحد الكتب، وكاد أن يسقط أرضًا... وبالرغم من تداركه لنفسه، إلا أنه لم يستطع إنقاذ كوب الشاي الذي أفرغ كل محتواه على الأوراق والكتب التي على الأرض... سبَّ فاروق بصوتٍ عالٍ على غير عادته، وانحنى

ليجمع الأوراق التي ابتلَّت، لكن هناك أسفل أحد الكراسي، جذبت إحدى الصحف انتباه فاروق... كانت جريدة الديلي ميل التي يعود تاريخها إلى ما يقارب شهرين أو أكثر... كانت هناك وحيدةً أسفل ذلك الكرسي... سحبها ونظر إلى العناوين فِي أول صفحة، وبدأ فِي تصفُّحها حتَّى جذب انتباهَه شيءٌ ما... هذه الصورة قد رآها من قبل فِي برلين. نظر إلى الخبر أعلاها...

كان الخبر - أسفل صورة رائعة لامرأة عارية ذات شعر طويل - يقول: اختفاء لوحة إغراء حواء للفنان "بانتليون سيندلر" من المتحف الوطني فِي "وارشو".

فكر فاروق: سيندلر! سيندلر...

تذكر الآن كلمات كل من "رياريو" و"خمسة عشر"، عندما قالا له: "إن سيندلر كان محقًّا.... الأم المقدسة بريئة... ابحث عنها".

ابتسم وذهب مسرعًا نحو جهاز الحاسوب ليبحث عن لوحة إغراء حواء. فتحها أمامه، وبدأ فِي تأملها مرة أخرى، إذ لم يستطع التمعن بها جيدًا فِي برلين. ولمح من خلفها شيئًا لم يكن قد رآه فِي برلين؛ فقد كانت حواء تقف بعينيها البريئتين، ومن خلفها على الأرض ثعبان ضخم ينظر لها بحنق، وخلفهما مجموعة من الأشجار التي تحمل ثمارًا تشبه التفاح، لكنه ليست بتفاح.

غمرته الحماسة، ومسح على وجهه، وكاد أن يبكي... أخيرًا يعلم ماذا حدث، وما الذي رآه بينتولا... لم يستطع تمالك نفسه أو التحكم فِي مشاعره... قام من مجلسه، وظل يسير فِي شقته كالهائم لا يعرف ماذا يفعل... المشاعر بداخله تكاد تفتك به... الآن اتضحت الصورة كاملة أمامه... كم كان ساذجًا!

فبينتولا تعرض للجهاز... واطلع على ذاكرة أجداده... وكما قالت الأبحاث فِي مفكرة ويلسون، فكلما تعمقنا فِي الحمض النووي، سافرنا أبعد فِي

الذاكرة... وبينتولا قد تعمَّق إلى أن وصل إلى المنتهى... حتَّى وصل إلى الخطيئة الأولى... خطيئة آدم.

لكن الغريب هو ما لمع فِي عقل فاروق الآن... ماذا لو تغير الأشخاص، وتعمَّقنا بنفس القدر؟ فكر قليلًا، وتوصَّل إلى شيء مدهش ومرعب للغاية... قد يغير معتقدات العالم بأسره... الأمر الآن أنه إذا ما تم اختبار أي من الأشخاص على الجهاز بنفس التعمُّق، فإنه سيرى نفس الشيء، ونفس الخطيئة. سيرى نفسه يقضم من الفاكهة المحرمة. إذًا جميعنا مشتركون فِي نفس البداية. كلنا أكلنا منها... كل من سيعود، سيرى نفسه هو المخطئ... أن الذنب الذي أخرجَنا من الجنة لم يكن خطيئة آدم بمفرده... كنا كلنا معه... لكن هذه ليست نقطة الاختلاف... هناك شيء أو شعاع من الضوء أنار عتمة قلب بينتولا... وسيندلر صوره فِي لوحته... وهذا الأمر هو العقبة التي كادت أن تفتك بقلبه قبل أن يهتدي.

فكل الأديان السماوية على مر التاريخ، وكل الكتب الرسولية المحرفة، اتهمت حواء زورًا وبهتانًا بأنها أغوت آدم، وصورتها بالصورة الخبيثة، وحدث ما نعرفه... فكانت البداية حين صدر أمر الله لهما أن يسكنا الجنة ويتفكرا بها لكن جاءهما الشيطان، وسلط عليهما ما هو أسوأ من وسوسته... سلط عليهم الفكر... والفكر هادم اللذات من قبل أن يُخلق الموت... فالتفكر فعل قلبي يغذِّي الروح... لكن الفكر فعل عقلي ينهش بها. وبعد أن كانا يتفكران فِي عظمته وسبحانيته... أصبح التفكير فِي مصيرهم شاغلهم الشاغل، فأكلا منها، فطُردا شر طردة... وكانت حواء (أو حياء كما تقول الأساطير) هي السبب، وهي التي وسوست لزوجها حتَّى ينعم بالخلود.

الخلاصة أن الكل اتهمها إلا آخر الكتب وخاتمها الذي قال إن آدم بمفرده هو الذي عصى فغوى... وظهر ذلك جليًّا فِي لوحة سيندلر... البراءة والسكينة التي تشع من عينيها، ومن خلفها الأفعى التي تنظر لها بحنق لفشلها فِي إغوائها...

أخيرًا قال فاروق:- إذًا الأم المقدسة التي تحدث عنها هي حواء...

وتذكر قول بينتولا فِي الوثيقة:

حين تَمتدُّ روح الجدة حتَّى حدودِ الخَيال

حينَ تخضرُّ عشبًا يغني شذاها

والشموس التي أرضَعَتها سناها

حين يخضرُّ حتَّى دجاها

يلمس الدفء قلبي فيجري دمي فِي ثراها

وستجدني أرقد بين ثناياها

إذًا هو يرقد هناك، حيث دفنت الجده

سيجد فاروق جثمانه هناك معها، وبالتأكيد تابوت الذاكرة أيضًا... لكن هنا تكمن المشكلة... فالمعروف والمصدق فقط أنها دُفنت خارج جنة عدن... لكن لا أحد يعرف أين... ومعظم ما يقال أو يُدَّعى أنها دفنت فِي مدينة جدة؛ ولذلك سُمِّيت تيمنًا بها... ليس إلا أقاويل، ولا مصدر ولا أساس مرجعيًّا يؤكد ذلك...

تنهد طويلًا، وعلم أن رحلته ستبدأ من جديد، لكن هذه المرة ستكون رحلة البحث عن الجدة الأولى...

عليه أن يجد الآن المكان الذي دُفنت فيه حواء.

بعد مرور أيام أطول من عمر الأرض، وأسود من رماد الموت على فاروق، أصابه التعب والهم من البحث والتنقيب عن أثر حواء الذي اختفى من آلاف أو ملايين السنين. وبالرغم من أن كل الأبحاث كانت تقوده إلى جدة، وتحديدًا فِي حي العامرية، إلا أنه لا أثرَ أو دليلًا يُثبت صحة الكلام... وما زاد الطين بلة أنه اكتشف أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينقل القبور ويخفيها صيانةً للعقيدة، وحمايةً لجناب التوحيد... فبدأ يفقد الأمل، وبدأت شعلة الحماسة بداخله تفقد بريقها.

تساءل بينه وبين نفسه... هل عليه الاستسلام الآن؟ هل الغرباوي كان على حق؟ هل هذه هي النهاية؟

أخيرًا، نزل فاروق من منزله قاصدًا أقرب مقهى له... إنه لم يخرج من منزله منذ أيام. عليه أن يغير روتينه اليومي لعله يصل إلى شيء.

حاول وهو يسير على قدميه أن يستمتع بالطريق والشوارع والسماء؛ فقد اكتفى من سقف حجرته الذي ظل يتأمله طوال الفترة الماضية، والأوراق التي تملأ أرض شقته.

جلس على مقهى (أبو عبده) بكراسيه الخشبية ورواده البسطاء من سواقين النقل الثقيل والمقاولين والفواعلية، وهاتفه فِي يده وسماعاته تستقر فِي أذنيه؛ فلا شيء يريح أعصابه أكثر من زجاجة شعير وكوب زجاجي به ثلج وليمون، ومعهما صوت فيروز الملائكي بألحانها الرحبانية...

انتظر طلبه متأمِّلًا المارة من حوله، وأخذ يتابع أحاديث الجالسين ونظراتهم وحركاتهم ولعبهم للطاولة والدومينو.

بعد أن وضع الفتى زجاجة الشعير والكوب الزجاجي، التقطها فاروق ليصب لنفسه الشعير، ويستمتع بمنظره وهو يتغلغل بين الثلج، ويغمر قطعة

الليمون الساكنة فِي الكوب، وتبدأ رغوته فِي الارتفاع مكونةً طبقة بيضاء أعلى المشروب.

كانت فيروز تقول: "تذكرتك يا عليا واتذكرت عيونك...".

سرح بخياله مع "عاليته" هو لا "عالية" الأغنية؛ ومع آخر رشفة من كوبه، تعلقت الليمونة بفمه، وشعر بحمضيتها اللاذعة الممتعة؛ ولكن فجأة انتفض عقله متذكرًا شيئًا.

تذكر لارا وهي تحكي له عن الرهبان فِي أحد العصور التي عانوا فيها من الاضطهاد، وكيف كانوا يكتبون بالليمون... كم هو غريب هذا العقل البشري! لا يعمل إلا إذا أراد هو وليس مالكه!

تذكر يومها عندما وجدا الأرقام اللاتينية على الوثيقة... كيف لم يفهم وقتها؟ يومها اعتقدا أنها من الممكن أن تكون صفحاتٍ فِي كتاب الترانيم... كم كانا أحمقين!

لقد انتهت الأرقام مرةً بالحرف N، ومرةً أخرى بالحرف E.

إنها بالتأكيد إحداثياتٌ لموقع أو مكان ما... ترك فاروق القهوة مسرعًا، ووضع عشرة جنيهات على الطاولة، وجرى نحو منزله، وهو يقول لنفسه:

- أخيرًا سأصل للنهاية...

بين تلك التلال الحريرية صفراء اللون التي كونتها الكثبان الرملية، ومن أسفل ذلك النجم متوسط الحجم الذي تنعكس أشعته عن بساط الصحراء الشرقية، كان فاروق يترجَّل ممسكًا بهاتفه وحقيبته، وقد نزل من سيارته التي تركها منذ أكثر من خمس ساعات على جانب الطريق الساحلي فِي (أبو رماد)، وترجل منها.

وقرر أن تكون رحلته الأخيرة لا تقل معاناةً عمَّا سبقها. وبالرغم من خطورة تحركه فِي ذلك المكان، لكنه لم يفكر فِي أي شيء من ذلك، وأخيرًا وجده فِي المكان الذي أشارت له الوثيقة. بعض أشجار الصبار تحيط بمكانٍ ينمو فيه العشب بكثرة وعلى غير العادة فِي أرض قفر...

تعجب فاروق من ذلك، وزاد عجبه أن هذا المكان غير معلوم لأحد من البشر، أو على الأقل المصريين.

وقبل أن يخطو خطوة أخرى، تنهد وقال:- حسنًا... ها نحن هنا الآن.

قالها فاروق، وضحك مندهشًا من أمره؛ فمنذ يومين كان ضائعًا لا يعرف طريقه، والبارحة فقط اكتشف أنها هنا معه فِي مصر... عندما أسرع تاركًا المقهى ودخل منزله، وبدأ فِي البحث عن الوثيقة وأخرجها، ولكن كانت الكلمات قد اختفت منها، فحاول تسخينها مرة أخرى، لكنها لم تظهر بقوة كما كانت مع لارا... ظل يسخن فيها حتَّى بدأت تتضح أمامه. وقبل أن يهم بالكتابة، اشتعلت الورقة، فلم يحاول إطفاءها، لكنه تركها، وظل يتأمَّل الأرقام بها ويرددها مع نفسه، ثم بدأ يكتبها فِي ورقة بيضاء، وهو يتابع الوثيقة البابوية تتحول إلى رمادٍ ككاتبها...

حول الأرقام اللاتينية إلى أرقام عربية، فكانت:

N °8.13'18°22

E °56.29'36°35

***

خطا فاروق أولى خطواته فِي القبر الذي يقع فِي منتصف الصحراء فِي أقصى الجنوب الشرقي لمصر... وما إن دخل إلى المكان، حتَّى وجده مضاءً بمصابيح كهربية لا يعلم من أين تستمد طاقتها...

كان القبر عبارة عن بهو واسع مزين بأشجار ونباتات تخرج من بين الأحجار والحوائط. كان المكان شبيهًا بالجنان. وهناك على اليمين، غرفة كبيرة من المحتمل أنها قبر حواء. أما منتصف البهو، فيستقر فيه قبر صغير، وبجواره تابوت زجاجي عرفه فاروق على الفور... اقترب منه فاروق فِي هدوء، وعرف مِن شاهد القبر أن بينتولا يرقد هنا، وحواء فِي الغرفة المجاورة.

انحنى فاروق فِي حضرتهما راكعًا على إحدى ركبتيه، وبدأ فِي البكاء حتَّى أجهش به... لم يستطع تمالك مشاعره. ارتفع صوت بكائه بشدة، وأخيرًا علت ابتسامةٌ وجهَه الغارقَ فِي الدموع، وبدأ يستعيد ويستحضر ذهنه من هول تلك التطوُّرات.

عليه الآن التفكير فِي كيفية الإعلان عن هذا الاكتشاف للعالم... كيف يخلِّص العالم من كابوس الصراع الديني الذي عصف بالبشرية وإنسانيتها.

وجد لسانه يقول دون تفكير:

- أنا الأمل... أنا طوق النجاة... أنا خلاص البشرية.

نظر إلى سقف البهو وكأنه يتطلع إلى الله فِي السماء، وعاد للبكاء مرة أخرى... لكنه صمت فجأةً عندما سمع صوت خطوات ثقيلة تأتي من خلفه، فقام ملتفتًا مذعورًا، ليجد جوليانو دي باتزي أمامه يرفع السلاح ويقربه منه، حتَّى شعر فاروق ببرودة فوهته على جبهته... وفقد النطق تمامًا عندما رأى

ابتسامة الموت تلوح على شفتَيْ جوليانو... أغمض عينيه مستسلمًا، وحزن بشدة لأنه لن يستطيع إخراج صورتها لينظر إليها مرةً أخيرةً، وقال فِي نفسه: كيف أموت الآن؟ كيف يحدث هذا؟ لا يجب أن أموت.

فأنا الأمل...
أنا طوق النجاة...
أنا خلاص البشرية...

النهاية

لكِ وبكِ ومنكِ